الطريق الى بئر السبع

ايثيل مانين









للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ـــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص ب ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري


الطريق إلى
بئر سبع

طبعة ١٩٨٥

إيشيل مانين



ترجمة

د. نظمي لوقا

المـؤلفة
في سطـور

* «ايثيل مانين» ــ مؤلفة هذه القصة الشائقة ــ روائية انجليزية معاصرة، من أصل ايرلندي، ولدت في لندن عام ١٩٠٠ .. وهي تعتبر «عصامية»، ثقفت نفسها بنفسها ــ اذ اضطرتها الظروف الى ترك المدرسة في سن الرابعة عشرة، وبدأت حياتها العملية في الخامسة عشرة، ككاتبة اختزال في وكالة للاعلانات.
* ثم تدرجت في العمل حتى صارت ــ في سن ١٧ سنة ــ مساعدة لمحرر المجلة المسرحية والرياضية (ذي بليكان).
* وفي سن الثانية والعشرين، كتبت روايتها الطويلة الأولى، ودخلت بها مسابقة للقصة الطويلة.
* ومنذ ذلك التاريخ دأبت على نشر رواية طويلة كل عام، بانتظام.. كما ألفت عدة كتب في أدب الرحلات، وصفت فيها سياحاتها في كل من (بورما، الهند، روسيا، المغرب، مقاطعة بريتاني (بفرنسا)، اليابان، ثم الشرق الأوسط).. وقد ترجمت كتبها الى اللغات: الفرنسية، الالمانية، الهولندية، الاسبانية، الايطالية، السكندنافية.
* وهذه القصة الممتعة التي تصور فيها مأساة العدوان الصهيوني الغادر على عرب فلسطين خلال حرب ١٩٤٨



اهـداء الكتـاب

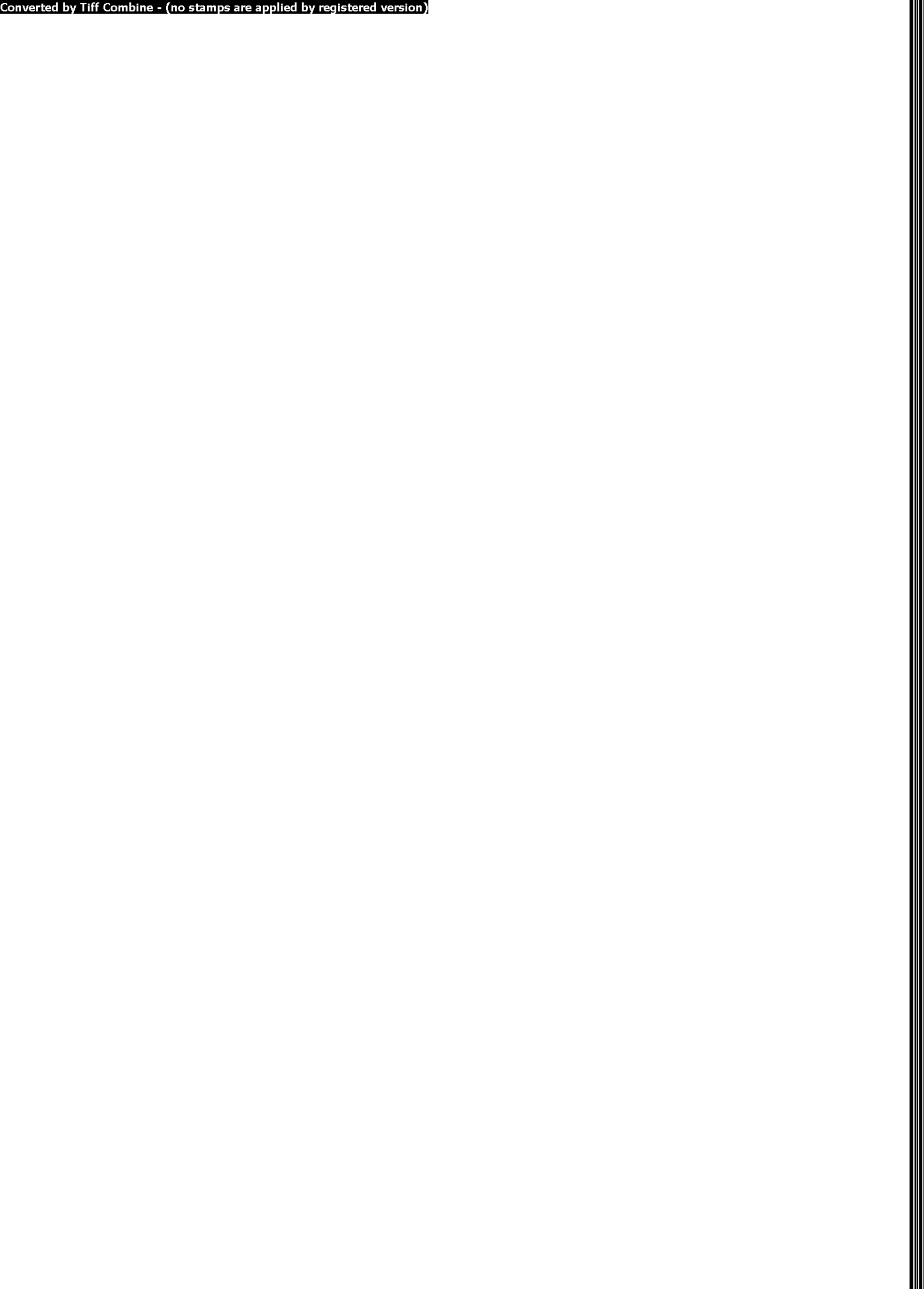
الى اللاجئين الفلسطينيين
ومن اجلهم. اولئك الذين
قالوا لي في كل الاقطار
العربية التي استضافتهم:
ــ لماذا لاتكتبين قصتنا نحن،
قصة الخروج الآخر...
خروجنا نحن؟!

المؤلفـة



«واعطيتكم ارضا لم تتعبوا عليها ومدنا لم تبنوها وتسكنون بها ، ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون» .

يشوع : ٢٤ · ١٣



مقـدمة المؤلفـة

لابد من ايضاح.

حتى ٢٩ نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٤٧ كان ثمة بلد يسمى فلسطين، هو الوطن العتيق للفلسطينيين القدامى، وهو بلد عربي الصبغة بصورة واضحة. وحين صدر اعلان «بلفور» في نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩١٧ مؤذنا بأن الحكومة البريطانية تؤيد «قيام وطن قومي لليهود في فلسطين» كانت غالبية السكان هناك من العرب، بنسبة تزيد على ٩٠٪. وكان في فلسطين في ذلك الوقت نحو ٥٠٫٠٠٠ يهودي. اما المسلمون والمسيحيون فكان عددهم وقتئذ نحو ٦٧٠٫٠٠٠. ولكن في سنة ١٩١٥ كان السير «هربرت صمويل» اليهودي

والصهيوني البارز قد نادى في مذكرة بعنوان « مستقبل فلسطين » بهجرة ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الى فلسطين تحت الحماية البريطانية. فوضحت من ذلك المطامع الصهيونية بصورة لا خفاء فيها، وثبت أن ما يرمون اليه ليس انشاء موطن قومي وملاذ لضحايا الاضطهاد من اليهود في مختلف البلدان، بل الهدف الحقيقي هو اقامة دولة يهودية مستكملة الاركان!

ولما صدر اعلان بلفور بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبا، واجه واقعا اقل من ذلك بكثير، فكان الحل البديهي في نظر اليهود هو ازدياد الهجرة اليهودية الى فلسطين بحيث يصبح اليهود هناك أغلبية. وفي سنة ١٩١٩ أصدر الدكتور « وايزمان » الزعيم الصهيوني وقتئذ تصريحه المشهور بأن فلسطين ينبغي أن تعدو « يهودية مثلما تعتبر انجلترا انجليزية ».

وفي سنة ١٩٢٠ تجسم اعلان بلفور في صورة الانتداب الانجليزي على فلسطين. وكان العرب حين قاتلوا في صف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك قد اعتقدوا انهم انما يحاربون في سبيل استقلالهم. فاذا بهم ينكبون بالانتداب الانجليزي والفرنسي بدلا من نيل استقلالهم. وبذلت محاولة للتحكم في

الهجرة اليهودية ، ولكن الهجرة غير المشروعة ظلت في ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة في برلين ، فازدادت عداوة العرب ، ووقع شغب وحدثت اضطرابات وفرضت احكام عرفية واستمر الكفاح الوطني للحصول على الاستقلال .

وعند نشوب الحرب العالمية الثانية لم يكن الوطن القومي لليهود قد تحقق في صورة ذاتية ، ولكن تعداد اليهود كان قد قفز من ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٠٫٠٠٠ ، وكانت حكومة الانتداب قد منحت اليهود سيطرة متزايدة على مقدرات البلد الاقتصادية . وكانت الصناعات الصهيونية تتمتع بحماية الحكومة ، في حين كانت القرى العربية تدمر لتفسح المجال للمستعمرات الصهيونية . وصار لليهود مستشفياتهم ومدارسهم ومنظماتهم السياسية ، وتمتعوا بمعاملة متحيزة من حماتهم البريطانيين .

وكما كانت الحرب العالمية الأولى سببا في اعاقة المطامع الصهيونية ، كذلك عاقت الحرب العالمية الثانية الآمال العربية الوطنية ، وثبت ان الاضطهاد النازي لليهود في المانيا كان سندا قويا للصهيونية .. فتألفت لجنة انجليزية امريكية ـــ ثلاثة من بين اعضائها الستة من غلاة الصهيونية ـــ زارت فلسطين في سنة

١٩٤٦ وأوصت في تقريرها بادخال مائة الف يهودي فورا الى فلسطين، وقد استعجل الرئيس (الدمية) ترومان تنفيذ ذلك، مع ترك الباب مفتوحا لمزيد من التهجير مستقبلا!

ولما لم يصل مؤتمر فلسطين المنعقد في لندن في سنتي ١٩٤٦، ١٩٤٧ الى اتفاق، لأن ممثلي العرب في ذلك المؤتمر طالبوا بقيام دولة عربية ديمقراطية مستقلة في فلسطين، أحيلت «مسألة فلسطين» الى الأمم المتحدة، وخصصت دورة غير عادية للفصل فيها. وتحت الضغط الصهيوني الذي تؤيده الولايات المتحدة، أوصت اللجنة الخاصة التي ألفتها الأمم المتحدة لشؤون فلسطين بتقسيم ذلك البلد.

وفي ٢٩ نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٤٧ قامت الجمعية العمومية بمنظمة الأمم المتحدة المنعقدة في واشنطن باقرار تقسيم فلسطين، بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع ١٠ عن التصويت. وكانت بريطانيا من الدول الممتنعة عن التصويت. ونجد في مذكرة ترومان كلاما عن الضغط الصهيوني وعن «التكتيك» الذي استخدم للحصول على هذه الأغلبية الساحقة، اذ كتب يقول:

«لم تكن ثمة حركات للضغط على الولايات المتحدة لم يسبق لها مثيل من قبل فحسب، بل أن البيت الأبيض أيضا كان هدفا لنيران متصلة من الضغط. فلست اعتقد أن البيت الأبيض تعرض لقدر من الضغط والدعاية كالذي تعرض له في هذه المناسبة. وقد أزعجني وضايقني الحاح بضعة من زعماء الصهيونية المتطرفين، مدفوعين بعوامل سياسية ومستخدمين تهديدات سياسية. بل أن بعضهم قد وصل به الأمر الى أن اقترح علينا الضغط على الدول الكبرى كي تصوت في صالحهم عند انعقاد الجمعية العامة».

وكذلك صرح «روبرت لوفيت» نائب وزير الخارجية بأنه لم يتعرض في حياته اطلاقا لكل ذلك الضغط الذي وجه اليه أثناء المراحل النهائية للتصويت.

وخطة التقسيم التي أقرتها منظمة الأمم المتحدة أعطت ٦٠٪ من فلسطين ــ بما في ذلك أخصب المناطق ــ لثلث السكان وهم اليهود. اما المليون فلسطيني وهم كل سكانها تقريبا فقد انتزعوا من موطنهم وجردوا من أملاكهم خلال الحرب التي نشبت بين العرب واليهود على اثر ذلك القرار. وكل ما تبقى من

ارض فلسطين العربية على الضفة الغربية لنهر الأردن ضم الى شرق الأردن على الضفة الشرقية من ذلك النهر . وبذلك قامت المملكة الهاشمية الأردنية . والشريط الضيق المتاخم لساحل البحر الأبيض والبالغ طوله ٢٥ ميلا وعرضه ٥ اميال ، (وهو كل ما تبقى من ولاية غزة ، احدى ولايات فلسطين الحرة) ، قامت مصر بادارته ، وقد منح الرئيس ناصر في سنة ١٩٦٢ تلك المنطقة دستورا للحكم . ولا تزيد هذه المنطقة على أن تكون معسكرا فسيحا للاجئين .

ومن بين المليون من الفلسطينيين على وجه التقريب الذين فروا من بلادهم نتيجة للارهاب الاسرائيلي ـــ الذي من امثلته مذبحة (دير ياسين) في ابريل «نيسان» سنة ١٩٤٨ ـــ او الذين طردوا من بيوتهم ـــ (الأمر الذي ينكره الصهيونيون رغم الأدلة الدامغة) ـــ من هؤلاء المليون يعيش أكثر من نصف مليون في أسوأ حال بتلك المعسكرات التي تمدها الأمم المتحدة بالمعونة منذ أواخر سنة ١٩٤٩ . أما الباقون فقد استوعبتهم بلاد مضيافة . ولكن هؤلاء وهؤلاء جميعا يطالبون باستعادة وطنهم لاعادة اسكانهم . وما من واحد منهم ، سواء في المعسكرات أو في

خارجها، تلقى «بنسا» واحدا على سبيل التعويض عن بيوتهم واراضيهم واموالهم التي استولى عليها الاسرائيليون!

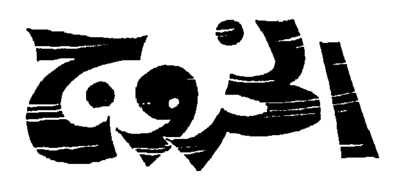
وفي كل عام تعيد الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة تأكيداتها لحقوق عرب فلسطين اللاجئين في العودة الى بلادهم. أو في التعويض الكامل اذا لم يرغب احد منهم في العودة الى حيث سيكون مواطنا من الدرجة الثانية في دولة يهودية. ولكن هذه القرارات لاتوضع قط موضع التنفيذ. بل ان مسز جولدا مايير وزيرة الخارجية الاسرائيلية أعلنت النقيض من ذلك بصورة قاطعة ان «سياستنا لم تتغير. فنحن لن نقبل لاجئا واحدا!».

ولقد قسمت بلاد أخرى ولكنها بقيت بعد التقسيم محتفظة بكيانها ولها وجودها ومسمياتها على الخرائط ويسكنها أهاليها. اما فلسطين فقد انقطع وجودها من حيث هي اسم ومن حيث هي بلد. وانقطع كذلك وجود الفلسطينيين من حيث هم امة.

انه عصر التشتت الفلسطيني.



الكتاب الأول





— ١ —

كانت درجة الحرارة في السهل الساحلي اكثر من مائة درجة فهرنهيت في الظل ذلك الظل الهزيل الذي تلقيه اشجار الزيتون ، أو ظل الصخور الأحمر. فلولا ضغط الارهاب لما استطاع احد ان يسير في تلك الحرارة فوق تلك الأرض. فالكتائب الاسرائيلية تطرد الناس بعيدا عن الطرق ليوغلوا في البرية بين التلال الجرداء التي لانهاية لها .

والأرض رملية لاتطيق القدم العارية ان تمسها . ارض قوامها الرمال والصخور والحصى الرمادي والحسك . انها ارض متموجة تنتهي الى تلال متتابعة لاتلبث ان تذوب في سماء استنزفت الحرارة كل ما فيها من الوان . فالمنظر فسيح يمتد الى ما لانهاية في جميع

الاتجاهات . وبرية الأردن الواسعة تغص الآن باناس معظمهم من النساء والأطفال كأنهم الجيش المشتت يتعثر فوق الصخور ويشق له طريقا بين الحصى ، يرتقي الروابي الرملية في اعياء وقد استنزف جهده العرق ، يسقط ليقوم ويقوم ليسقط مرة أخرى . والنساء محتضنات أطفالهن يسحبن العجائز ، والعجائز يتهاوون على الأرض فيعجزن عن النهوض . ولكن الجموع الزاحفة لا تكف مع ذلك عن التقدم ، يستحث خطاها الخوف ، تحت وهج للشمس يعمي الأبصار . يتقدمون بين الصخور لأنهم إن لم يتقدموا قضي عليهم بالموت من ضربة الشمس أو من العطش أو من الأعياء !

وهم يشعرون على الدوام بالخوف من تلك الطائرات المدنية السوداء الصغيرة التي تطير على انخفاض شديد بحيث يستطيع المرء أن يرى من فيها من الرجال ، تحوم فوق رؤوسهم كأنها الطيور الجارحة ، على نحو ما حدث في الليل .. في تلك الليلة الأخيرة المروعة في (اللد) .

لقد ظل « انطون منصور » يتذكر الى أمد طويل صوت تلك الطائرات الغريب ، وانه لصوت يختلف عن صوت أي طائرة اخرى . ويذكر الخوف الذي اثارته ، وانه لخوف يختلف عن أي

خوف عرفه في سنوات عمره الاثنتي عشرة. ان شيئا في رأسه بدا له انه ينفجر مع ذلك الصوت، ثم تدفق الدم بلا انقطاع من انفه. وفي البداية توقفت امه عن السير وحاولت ان توقف النزيف. ولكن بعد قليل لم تبق لديه بقية من الطاقة فالتفتت برأسها وتطلعت اليه ولم تستطع ان تتكلم. فلم يكن أحد ينظر الى أحد أو يكلم أحدا أو يصنع شيئا لأحد. لأنه لم يبق لدى احد منهم سوى الاصرار على الحياة ومقاومة الموت الذي تفرضه عليهم الحرارة الشديدة والاعياء والظمأ المهلك. فليس هناك مجال للتفكير، بل المجال كله للخوف. ولا مجال للعاطفة، بل المجال كله للتعاسة.

وكان «أنطون» يتلفت بين الحين والحين لينظر الى امه كي يتأكد انها لم تزل هناك. فمن السهل ان يفقد المرء أي أحد في ذلك الحشد من الزحام. وثمة اطفال يتخبطون بين الحصى وهم يصرخون لأنهم فقدوا ذويهم وما من أحد يلقي باله اليهم. فاذا تعلقوا بأحد باكين منتحبين دفعهم بعيدا عنه. حتى النساء كن ينظرن اليهم من غير شفقة. ورأى انطون وهو في شبه دوار امرأة تلقي فجأة بالطفل الذي كانت تحمله الى بطن حفرة حيث

استقر صارخا . ومضت المرأة في طريقها قدما . فالجميع يسيرون الى الأمام والشمس تنهال عليهم بشواظها تريد ان تقتلهم، والطائرات السوداء تحوم كالصقور تتربص الفرصة للانقضاض من السماء التي صهرتها الحرارة، والارض التي لا ترحم ولا تلين تعكس ما تتلقاه من حرارة الشمس وتصليهم به في وحشية .

كان الجميع في طريقهم الى المدينة الجبلية الصغيرة (رام الله)، التي تبعد بضعة أميال عن القدس . ولكنهم وقد ابعدوا عن الطريق وطوح بهم الى جوف البرية لم يعودوا يبصرون طريقهم، وكان أقلية من صغار السن هم الذين يدركون الاتجاه الصحيح، اما البقية فكانوا يسيرون صوب الشرق خبط عشواء. فكل ما يعنيهم ان (اللد) ينبغي ان تكون من خلفهم. (اللد) التي رددت شوارعها هذا الصباح أصداء مكبرات الصوت التي اذاع بها الاسرائيليون المنتصرون أوامرهم الى السكان :

ـــ اخرجوا ! اذهبوا الى الملك عبد الله !

ومع أنطون كان يسير غلام أعمى أكبر منه سنا بقليل هو ابن خادم ضيعة ابيه . كانا يمشيان ويد انطون اليمنى قابضة على يد (أمين) اليسرى . ويداهما معا مرفوعتان الى كتف أنطون بحيث

يظل الغلام الأعمى ملتصقا به. وقلما كانا يتحدثان. ولا كان أحد منهما يشكو أو يتذمر.

أما «بطرس منصور» ــ والد انطون ــ فكان يسير مع أخيه فريد، وكلاهما من ذوي الوزن الثقيل، لم يألفا السير اكثر من بضع خطوات الى سيارتيهما، فلقد كانا من أهل الثراء، وكانت حياتهما على الدوام سهلة هينة، من الناحية المادية على الأقل. ومن ورائهما سارت زوجتاهما: «ماريان» زوجة بطرس الانجليزية، و ماجدة زوجة فريد، وابنتها الكبرى نادية. والى جوارهن كان طفلا نادية الصغيران يتعثران ويبكيان ويشكوان بلا انقطاع من التعب والعطش. وكانت شفاههما قد ابيضت كأنما عليها طبقة من الملح. فكانت ماريان وسلفتها تتناوبان حملهما على فترات قصيرة وهما تترنحان وتتعثران فوق الأرض الصلدة. أما نادية فكانت تمشي خافضة الرأس غير مكترثة بعذابهما، منطوية على جحيمها الخاص. ولكم تمنت لو كانت مسلمة كي يتسنى لها ان تخفي وجهها خلف نقاب.

منذ بضعة ايام احدقت الكتائب اليهودية بالرجال من جميع الأعمار واعتقلوهم في مسجدي المدينة، وكان زوجها

«نصري» من بينهم، وكذلك ابوها واعمامها واخوالها وابناء العم والخال واخوتها. وبالأمس اطلق سراح اولئك الرجال ولكن نصري لم يكن بين من اطلق سراحهم، لأن جميع من هم في سن التجنيد قد ارسلوا الى معسكر للاعتقال. هذا بالنسبة لمن كانوا في المسجد الكبير. أما الثلاثمائة رجل الذين كانوا معتقلين في المسجد الصغير فلم يفرج عن أي واحد منهم اذ حدث منهم شغب صغير اخمد بنيران المدافع الرشاشة. وتقرر عدم الافراج عن احد منهم اطلاقا.

وفي البداية كان من رأي جميع الرجال المقيمين في دار منصور التوجه الى المسجد الصغير لأنه أقرب الى الدار، وبذلك يتحاشون اختراق المدينة والتحرش بالجنود الاسرائيليين من الجنسين. وكان منظر النساء المجندات غريبا وهن يحملن مدافع «ستين» وقد ارتدين سراويل قصيرة تكشف عن افخاذهن البضة العارية. ولكن منصور عارض فكرة الذهاب الى الجامع الصغير قائلا ان الافضل الذهاب الى الجامع الكبير والبقاء هناك قرب الأبواب، لأن اشاعة كانت قد سرت بين الناس مؤداها ان ثلاث سيارات مسلحة تابعة للفيلق العربي ظهرت على مشارف المدينة،

ومن المؤكد ان هذه السيارات ستتلوها قوات مسلحة من ذلك الفيلق. وسيكون الجامع الكبير أول مكان يحررونه. ولما كان بطرس رأس الأسرة فقد أصغى الجميع لكلامه باحترام وذهبوا عن بكرة ابيهم في صحبته الى الجامع الكبير.

وقبل عودة الرجال حضر جنديان اسرائيليان الى «دارة الخير» وهو اسم دار منصور ــ في طلب الماء. ومن وراء قضبان نافذة في الطابق الأول استرقت النظر اليهما نادية وخادمة تدعى «رندا» تقوم برعاية شؤون الطفلين، ومعهما بضع نساء اخريات، فانتابهن فزع شديد، بيد ان نادية وجدت في نفسها الشجاعة كي تصيح بالجنديين:

ــ ماذا تريدان؟

ونظر الجنديان الشابان الى فوق وضحكا. ثم أجاب أحدهما بلغة عربية ركيكة:

ــ لا تخفن. نحن من «الهاجاناه» ولسنا من «شتيرن» لانريد شيئا سوى الماء. الحر شديد ونحن ظمآنان. تعطفن علينا!

وقال شيئا للجندي الآخر الذي ضحك ثم انزل الاثنان

مدفعي (ستين) عن كتفيهما واسنداهما الى جذع شجرة جزورينا في مواجهة مدخل الدار، ثم التفت الجندي الذي كان قد طلب الماء صوب النافذة، وقال:

ــ ها أنتن ترين. لسنا مسلحين!

وكان شابا وسيما ذا ابتسامة صافية كابتسامة الأطفال. ولم ترد نادية على ابتسامته، ولكنها قالت: «سأرسل اليكما بماء». وأمرت خادمتها «رندا» بأن تحمل اليهما ابريقا من الماء المثلوج، فقالت ماريان للخادمة فجأة:

ــ خذي الماء في ابريق من الأباريق البلورية الفاخرة. وخذي ايضا كوبين من البللور. يجب ان نريهما أننا شعب متحضر! لو كان بطرس هنا لكانت هذه مشيئته. فهما على كل حال ضيفانا.

فاحتجت نادية قائلة:

ــ ولكنهما من الأعداء!

الا انهما استضافا نفسيهما في دارنا. ثم هما شخصان تبدو عليهما أمارات المودة.

وذهبت رندا فأحضرت الماء المثلوج في ابريق من البللور

ووضعت الى جواره كأسين من البللور فوق صينية من الفضة، ونزلت حافية القدمين فوق السلم الرخامي العريض ثم اجتازت بهو المدخل المرصوف بالفسيفساء الى الباب الأمامي. وعندما فتحت الباب كان الجنديان جالسين على سياج شرفة المدخل المنخفض، فأشارت لهما الى الصينية التي وضعتها على حافة منضدة داخل الباب مباشرة، فوجه اليها الجندي الذي كان قد طلب الماء كلمات الشكر باللغة العربية. أما الآخر فتقدم الى الأمام وقال لها بلغة انجليزية «خنفاء»:

ـــ هالو أيتها الحسناء! اتتكلمين الانجليزية؟

وكانت رندا في الواقع تتكلم شيئا من الانجليزية، التي تعلمتها وهي في خدمة آل منصور، فهزت رأسها. وقال لها الآخر، عن زميله:

ـــ انه لبناني أمريكي ولا يعرف العربية كثيرا.

ثم صب كأسا من الماء وتجرعها وصب كأسا أخرى. أما زميله فشرب نصف كأس من الماء ثم طوح بالكأس الى الأرض فتطايرت شظايا البللور في كل اتجاه وراح يضحك في عصبية وهو يقول:

ــ اننا نصنع ذلك في حفلات الزفاف اليهودية. فهو عمل رمزي!

ولم تفهم رندا ما قال، ولكنها أجفلت متراجعة الى الوراء، وقد أفزعتها لهجته وهيئته، مستاءة لتحطيم الكأس الثمينة. فمد يده وقبض على معصمها وجذبها اليه قائلا:

ــ هيا يا حسناء. هيا بنا نحتفل بالزفاف!

فصرخت الفتاة وناضلته بعنف، الا انه كانت ثمة حجرة للاستقبال يفضي اليها باب في البهو فجذبها الى داخل تلك الحجرة وأغلق دونهما الأبواب. وضحك الجندي الآخر وصب لنفسه مزيدا من الماء.

واتت صرخات رندا بنادية وماريان والنساء الأخريات الى رأس السلم.. بينما صاحت ماريان الانجليزية في حدة:

ــ ما الخبر! ما الذي يحدث؟ اين الخادمة؟

فضحك الجندي ثم قال:

ــ انها بسبيلها الى فقد بكارتها كما يبدو من صوتها!

وكانت ماريان قد اندفعت تنزل السلالم في غضب أعمى، وتبعتها نادية. وكان الجندي الآخر فى الانتظار عند نهاية السلالم

فأطبق ذراعاه حول نادية بمجرد نزولها. وضحك ضحكة النصر اذ وجدها تناضل وتصرخ وترفس، وقد تسمرت ذراعاها الى جانبها، وكانت قبضته في منتهى الشدة، فرفعها مدى الخطوات القليلة عبر البهو الى الحجرة، والتفت من فوق ظهره عندما وضع يده على مقبض الباب وقال لماريان:

ـ كل شيء على ما يرام يا أماه. في وسعك أن تنصرفي:

وبعد ذلك صفق الباب في وجه ماريان. وادير مفتاح في قفله.. وارتفعت صرخات نادية وصيحاتها فطغت على نحيبها!

○

كانت رندا تسير بتثاقل ومشقة خلف نادية والمرأة الانجليزية. وكانت تمشي معها خادمات أُخر ممن يعملن في دار منصور وضيعته، وأناس متباينون ممن أووا الى تلك الضيعة في الأيام والليالي القلائل الأخيرة. ولقد بلغ عدد من لاذوا في النهاية بذلك البيت الكبير العريق المسمى (دار الخير) الى أن اعتقل الرجال، قرابة مائة شخص..

وكانت الفتاة تعاني من الصدمة وينتابها الدوار وهي سائرة أشبه بحيوان مصعوق، غارقة في تعاستها الى درجة لا يمكن ان تشعر معها حتى بالحر أو العطش، وقد استحوذ عليها الرعب الى درجة تعجز معها عن الشعور حتى بالخوف.

وكانت المرأة الانجليزية فريسة مثلها للرعب. فباعتبارها سيدة الدار كان في وسعها ان تلغي أمر نادية الى رندا بانزال الماء الى هذين الجنديين اليهوديين. كان في وسعها ان تمنع ذلك وأن تبقي الدار مغلقة الأبواب في وجهيهما.. اجل، كانا حريين في هذه الحالة ولا شك أن ينسفا قفل الباب بالرصاص ويقتحما الدار. ولكن في تلك الحال على الأقل، حتى لو تم اغتصاب نادية ورندا، لم تكن لتلحقها شخصياأية مسؤولية أدبية مما تشعر بوطأتها الآن على كاهلها. ولقد عاد بطرس بعدئذ من الجامع دون «نصري» وقد حطمته أنباء المذبحة الوحشية التي وقعت في الجامع الصغير، ولم تكن زوجته قد أخبرته بعد بما حدث لنادية وللخادمة. وفريد أيضا لم يكن بلغه النبأ المزلزل!

على ان بال «ماريان» مشغول الآن الى أقصى حد بشأن زوجها بطرس. اذ كيف يستطيع رجل في مثل سنه وقد جاوز

الستين . لم يألف السير حتى على الطرق الممهدة ، مصاب بعلة في القلب ، أن يظل حيا بعد ساعات من التعثر المستمر فوق هذه الأرض الوعرة القاسية ، في هذا الحر المحرق ، ومن غير ماء؟

كان يمشي على غير هدى ، ويضرب في طريقه خبط عشواء مثلما يفعل المسنون حوله من الرجال والنساء ، فيضع قدما أمام أخرى من غير تفكير ، وبطريقة آلية ، لا لشيء الا لأنه لا مناص له من ذلك ، وإلا فليس امامه سوى السقوط على الأرض ، بين أكداس الحصى الرمادي اللون ونبات الحسك الشائك ، حيث يقضي نحبه .. مثلما قضى كثيرون غيره نحبهم عندما عجزوا عن الاستمرار في المناضلة ، فخروا على الأرض لاهثين فاغري الأفواه في دلك الظل المحمى تحت الصخور ، أو في خميلة عارضة من خمائل الزيتون المتناثرة بين الاحجار ، وهم يئنون :

ـــ ماء ! أعطونا ماء !

وكان الظمأ الكبير قد بدأ ينتاب بطرس قبل ان يطردوا جميعا الى البرية . ولم يكن معهم من مقتنيات الدنيا الا الثياب التي يرتدونها ، بعد أن جردوا من ساعات معاصمهم واقلام حبرهم ؛ بل ومن خواتم الزواج . لقد بدأ ظمأه في المسجد . وكان

بالمسجد ماء في الميضأة حيث يتوضأ المؤمنون من صهريج قبل أن يؤدوا الصلاة، ولكن الحراس الاسرائيليين تبولوا في ذلك الصهريج وهم يقهقهون ويهيبون بالفلسطينيين قائلين :

ــ هيا تعالوا واشربوا! وستجدون مذاقه طيبا!

ولما رجع الى البيت وجد به ثلاثة جنود، رجلين وامرأة، واقفين بجانب سيارته عند رأس الممر الطويل المغروس بأشجار النخيل والجزورينا المفضي الى داره. وكانت المرأة شابة وسيمة ذات عينين قويتي النظرة، فيها اعتداد شديد بالنفس يبلغ حد السلاطة، فغرست في ظهره مدفع ستين وسألته بلهجة المانية واضحة جدا في نطقها الانجليزي :

ــ أتتكلم الانجليزية ؟

فلما قال لها نعم طلبت منه مفاتيح السيارة، فسلمها اليها، وركب الجنود الثلاثة سيارته، وأطلت عليه المرأة المجندة من النافذة المجاورة لمقعد السائق لتقول له :

ــ من الخير لك ولأسرتك أن تغادروا الدار بسرعة، ولا فلن تساوي حياتكم جميعا فلسا واحدا!

وضحك رفيقاها . وعندئذ استطردت مزهوة بوقاحتها :

ــ حتى ولا ثمن الرصاصة !

ثم بصقت عليه .. وانطلق الثلاثة بالسيارة .

أما بطرس فوقف عند رأس سلم مدخل بيته يرقب السيارة الكبيرة البيضاء وهي تنهب ممر اشجار الجزورينا ، وهي وقفة طالما وقفها باعتباره رب البيت المضياف يودع ضيوفه . ثم دخل البيت في تثاقل واعياء . وبدأ الاستعداد للجلاء .

وكان المفروض أن يتسنى الحصول في المدينة على سيارات أجرة تنقلهم الى (رام الله) . وحتى ان لم ينجحوا في الحصول على أكثر من سيارة واحدة فقط فقد كان في وسع بعضهم ان يستقلها الى رام الله ليعود منها بما يكفي لنقلهم جميعا .

ولكن عندما وصلوا الى المدينة لم يجدوا بها أي أدوات من أدوات النقل ، من أي نوع . فالسلطات العسكرية الاسرائيلية قد استولت عليها جميعا ، والعربات المزودة بمكبرات الصوت تذرع الشوارع آمرة الناس بمغادرة المدينة في مدى نصف ساعة ! .. ولذا كانت الشوارع غاصة بخليط متزاحم من الناس ، وكانت الكتائب في كل مكان ، وقد أسكر الجنود النصر ، فهم على

استعداد لاطلاق النار لأوهى الأسباب، أو لغير سبب على الاطلاق !

وكان ثمة عدد من الفتيان والفتيات في أزياء عسكرية يتجولون هنا وهناك حاملين في كل يد من أيديهم دلوا مملوءاً بساعات المعصم واقلام الحبر وسائر أنواع الحلي والمجوهرات... وها هو جندي يقف عمدا امام جماعة من النساء المحجبات اللائذات بباب أحد الحوانيت ويفك أزرار بنطلونه ويشرع في التبول تحت أنظارهن مباشرة. ولما أبصره زملاء له من الجنود يصنع ذلك الصنيع القبيح أخذوا يقومون باشارات بذيئة يوجهونها الى النساء المحجبات المحتشمات !

وكان بطرس وهو واقف على ناصية أحد الشوارع مع زوجته ماريان وابنه انطون، وأعضاء آخرين من أهل بيته، قد رأى ذلك الحادث الشائن فتقلصت يده اليمنى على المقبض الفضي لعصاه التي يحملها على الدوام وقال:

ــ انهم يأتون بكل ما من شأنه أن يذلنا !

ولكن ماريان وضعت يدها على ذراعه وقالت له:

ـــ انهم لا يعرفون خيرا من هذا. هيا بنا! فلعلنا نظفر بشيء نركبه ونحن في الطريق.

ولكن لم تكن ثمة مركبة ولا دابة ولا طريق.

لا شيء سوى البرية، وحرارة النهار التي أخذ يشتد اوارها.

ـ ٢ ـ

ولم يدرك الفلسطينيون على وجه التحقيق المدى الذي صمم مغتصبو أرضهم على الوصول اليه في اذلالهم، الا بعد ان وجدوا أنفسهم في البرية. فهناك جرد هذا الشعب الأبي الكريم من كل خصائص الانسانية. وثمة ظروف لا يحتفظ المرء فيها الا بشيء واحد هو تصميمه على البقاء. وفي تلك الظروف تتخلى الأمهات عن أطفالهن لتلتهمهم بنات آوى، لأنهن عجزن عن حملهم خطوة أخرى!.. في هذه الظروف عينها يترك الشبان ذويهم المسنين ليموتوا، ويقدم الرجال والنساء على احتساء بولهم وبول اطفالهم. انه الماء انه شيء يرطبون به أفواههم الجافة وشفاههم المشققة التي انتشرت على حوافيها اطارات من الملح بيضاء، مع ارتقاء الشمس في كبد السماء.

وذات مرة، عندما جلس انطون وأمين ليستريحا قليلا في الظل الهزيل الذي تلقيه خميلة من أشجار الزيتون انتظارا للحاق بقية أفراد الأسرة بهما، قال الغلام الأعمى «أمين» لرفيقه:

ــ توجد صهاريج رومانية في هذه البقاع. وفي بعض الأحيان توجد بها بقية من الماء. فاذا جئت الى مجموعة من الصخور فعليك أن تنقب بينها. فحينما كنت متمتعا بنور عيني كان من عادتي أن أذهب مع أبي الى البرية لنرعى قطعان الماعز، وكنا نجد مثل تلك الآبار فيما بين (اللد) و (نعلين). وتوجد أيضا أشجار الخروب. وقرون الخروب حلوة لذيذة الطعم! الا تحبها؟!.. الا صبرا ياسيدي، فحين نصل الى الوادي سيكون المسير أسهل بكتير علينا لأننا نستطيع ان نسير في الوادي على امتداده الى أن نصل الى القرية. كيف حالك الآن يا سيدي؟

ــ قدماي تؤلمانني بشكل فظيع. ولست ادري هل في وسعي ان استمر في المسير وأنا أحمل سترة حلتي؟

ــ لماذا لا تلقي بها عن كاهلك؟ لماذا لا تنبذها؟

ــ انها افضل حلة عندي. وان أنا القيت بها لن أجد شيئا

أرتديه عندما أصل الى (رام الله). والجو في رام الله بارد في الشتاء جدا كما تعلم.

ـــ ان ابناء عمومتك هناك سيمدونك بكل ما ينقصك. ثم من ذا الذي يدري هل سنكون هناك في الشتاء أم لا؟ ان الجيش العراقي سينضم الى الفيلق العربي لتحرير فلسطين وسيلقي باليهود الى البحر! ان شاء الله!

فأمن انطون على كلامه قائلا بلهجة آلية:

ـــ ان شاء الله.

وكان حشد من الناس يستريح معهما تحت ظلال أشجار الزيتون، مستلقين أو منبطحين على الأرض الصخرية، أو جالسين وظهورهم الى جذوع الأشجار، محدقين في شرود الى الأفق الرتيب الرحب من الأرض الحمراء والحصى الرمادي والشوك الأبيض.. وحدود التلال الصخرية الجرداء التي تتميز بها فلسطين يقف عندها البصر ليجدها طبقات فوق طبقات ينتهي اليها السهل المترامي المتموج، كأنه بحر تجمدت أمواجه!

وكان ثمة عدد من الأطفال الباقين على قيد الحياة، وامرأة عجوز لا تكف عن الأنين في طلب الماء، وجماعة من النساء

جالسات القرفصاء محجبات الوجوه لا يتكلمن، ولكن أيديهن الخشنة تنم على حقيقتهن بوضوح فهن ريفيات.. وكانت هناك ايضا امرأة شابة جالسة وعلى صدرها طفلها الذي مات، تحملق فيه بنظرة خالية من كل تعبير، وطرحتها البيضاء مسدلة على نصف وجهها.

ما من أحد في الحقيقة كان يلقي باله الى سواه. فكل مشغول بنفسه. وعلى مدى الأفق زرافات من الخلق. ألوف من الناس على مدى النظر. كل واحد منهم يتحرك ببطء وجهد في اتجاه واحد صوب الشرق. ووجوههم الى الأردن.

وأخيرا وصل والدا انطون وسائر أفراد آل منصور الى تلك المجموعة من أشجار الزيتون، وارتموا في الظل الحار. ونظر الصبي بقلق الى امه. وكانت امه اصغر من ابيه بعشرين سنة وأقوى منه بنية بكثير، ولكن قلقه كله كان بشأنها. فلديه احساس بأن أباه على رغم سنه وعلة قلبه انسان لا يلحقه الفناء. فبطرس آل منصور من أسرة فلسطينية مرموقة. وابنه يؤمن بأنه رجل عظيم عن جدارة واستحقاق. وعظماء الرجال لايسقطون على الأرض ولا يموتون. انهم قد يهانون ويذلون، وتغتصب

أملاكهم على يد الأعداء، وقد يطردون الى البرية، ولكنهم اذا ماتوا بسبب ذلك فمعناه أنهم تقبلوا الهزيمة. وأنفتهم وكبرياؤهم لايسمحان لهؤلاء العظماء من الرجال بتقبل الهزيمة!

كان هذا التصور لأبيه العربي يريح أعصاب انطون. اما أمه الانجليزية فهو يشعر انه لا ينتظر منها ان تكون حائزة لهذا العنفوان الجسدي وتلك الأريحية المعنوية. ثم انها كانت في حالة بالغة السوء عندما غادروا البيت. ولذلك صلة ما بجنود (الهاجاناه) الذين وضعوا ايديهم على ابنة عمه نادية والخادمة رندا.

انه يجهل تفاصيل المسألة ومحور الموضوع. ولكنه يعلم انه كان ثمة صراخ كثير وهياج شديد، وان كل من في البيت كانوا يبكون وينتحبون. وعندما غادر الجنديان البيت كان عليهما ان يقاتلا النساء اللواتي تعلقن بهما وخمشنهما بأظافرهن. وفزع انطون خشية أن يعمد الجنديان الى شهر مسدسيهما والشروع في اطلاق النار. وبدا في لحظة من اللحظات أنهما فاعلان ذلك لامحالة!

لقد كان الأمر كله مروعا ومزعجا. وعندما سمح للجنديين

بالفرار انهارت أمه، وكانت حالتها في منتهى الفظاعة. كذلك كانت حالة نادية فظيعة. أما رندا فلم يكن لها هم سوى البكاء.

وشكت أمه من صداع شنيع أصابها بعد انصراف الجنديين. وعلى الرغم من هذا الصراع شرعت في اليوم التالي في السير الى (رام الله)، فوق أرض لايحلم بشر فيما عدا الرعاة بأن يطأها بقدميه. وبعد فترة من السير جعلت تمشي بمشقة وهي صامتة، شأنها في ذلك شأن معظمهم، ولم تقبل نحوه عندما رأته يصاب بنوبة اخرى من نزيف الأنف.

غير انه لم يحنق عليها بسبب ذلك. فلم يكن في يدها أن تصنع له شيئا. بل لم يكن هناك ما يمكن أن يصنعه أي انسان لأي انسان. فكل واحد مشغول بنفسه. وهذا هو الهوان الذي فرضه اليهود عليهم عندما طردوهم الى الطريق ليناضلوا ويتعذبوا كالبهائم في تلك البرية.

وقال في نفسه: انهم يريدون ان يفرضوا علينا العذاب يريدون ان يذلونا. وفي وسعهم ان يفعلوا ذلك بنا ولكن ليس في وسعهم ان يفنونا. وظلت هذه الفكرة الأبية تسند روحه المعنوية مدة، ولكن بعد ذلك حلقت فوقهم الطائرات السوداء الصغيرة،

وهبطت الى ارتفاع منخفض، فلم يعد ثمة شيء سوى الفزع والرعب والخوف المميت من الموت.

ومع تقدم النهار صار جليا ان كثيرين من هؤلاء الناس لقوا حتفهم على أفظع صورة. وكلهم من المسنين والأطفال الصغار ومن لا حول لهم ولا طول. وكانت امه تبدو في حالة فظيعة، كأنما هي أيضا معرضة للفناء.. وها هي امه قد ارتمت بجواره الآن ولأول مرة منذ غادروا البيت منحته ابتسامة يسيرة. وحتى في الليالي الأخيرة الفظيعة عندما قذفت المدينة بقنابل المدافع والطائرات ـــ حينما اطبقت عليها الكتائب اليهودية ـــ كانت تتمكن دائما من الافترار عن ابتسامة عارضة كي تبقى روحهم المعنوية عالية.

لقد كان الحال عصيبا جدا، ولكنهم لم يواجهوا ذلك الخوف الشخصي المميت من الموت، ذلك الخوف الذي حل بهم مع أنباء المذبحة في الجامع الصغير ومع التعرض للهلاك في البرية حين أخذت تلك الطائرات السوداء اللعينة تطير على ارتفاع منخفض بصوتها الغريب المختلف عن كل صوت آخر.

وقالت ماريان:

ــــ لا بد أن نكون الآن في منتصف المسافة الى (نعلين).

وقد سمعت بعضهم يقولون انهم يستطيعون أن يروا الوادي بالفعل. اننا عندئذ نستطيع على الأقل أن نعرف أين نحن فالسير على غير هدى هو الذي ينهك قوانا. ونحن لم نفعل شيئا سوى السير صوب هدف غامض في مكان لا نعرف أين هو!

وكانت قصيرة القامة، نحيفة، داكنة الشعر، ذات ملامح حسنة وعينين زرقاوين زرقة عجيبة، ورثها انطون عنها. وكان من الممكن أن يظنها الناس عربية ــ وكثيرا ما ظنوها ــ فلم يكن فيها شيء انجليزي مميز، بل ولا أوربي مميز. وكانت في الأحوال العادية تبدو أصغر سنا من أعوامها التي ناهزت الأربعين. أما الآن فهي تبدو عجوزا الى درجة تكاد تجعلها امرأة اخرى، وتحت عينيها ظلال سوداء من اثر الاعياء العقلي والبدني. وشفتاها مشققتان ينزف منهما الدم. وثوبها الرقيق المصنوع من القطن، ذلك الثوب الذي كان ناضرا قشيبا عند بداية المسير، غدا خرقة كثيرة الأوضار مبللة بالعرق.. كان مظهرها أشبه بمظهر امرأة غجرية قضت ليلتها نائمة في حفرة، وهي التي كانت في العادة نموذجا للأناقة والهندام!

ونادية التي جلست بجوارها، بدت ايضا زرية الشياب، ومحياها الشاحب الجميل شبيها بوجه فتاة تسير في نومها. فهي تحملق في الفضاء ولا تتكلم!

أما بطرس واخوه فريد فجلسا على مسافة قليلة فوق صخرة صغيرة ملساء، وقد اعتمد بطرس على عصاه ذات المقبض الفضي، ورأسه الجميل منحرف الى الوراء قليلا وهو ينقب بعينيه في الأرض الممتدة حتى حافة الأفق عن الوادي الذي يوصل الى جنوبي قرية نعلين حيث ينبغي أن يقضوا الليلة. وحين يروون ظمأهم ان لم يجدوا شيئا يأكلونه.

لقد ازداد وزنه في السنوات الأخيرة. بيد أنه لم يزل، في الثانية والستين من عمره، رجلا وسيما مهيب المنظر، وفي محياه ما ينم على الفكاهة وعلى الحزن معا، مع هيبة عظيمة. أما شقيقه فريد ــ الأصغر منه بعشر سنوات تقريبا ــ فيشبهه، وان كان أقل منه وسامة ومهابة. فيه شيء من الفكاهة ولكن بدون ذلك الأسى الغامض الذي يعتبر عنصرا هاما في اضفاء ذلك السحر الخاص وتلك الحساسية على الشقيق الأكبر. وكانت ماريان تميل

الى شقيق زوجها وتشعر نحوه بالاعزاز ، ولكنها لم تكن حرية ان تتزوج شخصا آخر على الاطلاق سوى بطرس.

وكانت «ماجدة» زوجة فريد امرأة وسيمة تميل الى البدانة، وقد جلست على العشب بجوار نادية تحاول ان ترفه عن الطفلين الذين راحا ينتحبان من شدة الظمأ والاعياء. وكان أكبر الطفلين فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها رقدت على الأرض الوعرة وأنشأت تبكي في تعاسة ملحة.

ونظرت ماجدة بيأس صوب سلفتها وقالت لها :

ـــ لست أدري كيف سيمكننا ان نصل بالطفلين الى هناك.

فرفهت ماريان عنها قائلة :

ـــ لم يبق أمامنا الا ساعتان.

وكانت تعلم ان المسافة قد تمتد الى ثلاث ساعات .على الأقل. ولكن لفظ ساعتين كان يبدو أقل بكثير من لفظ ثلاث ساعات. وحين تنقضي الساعتان ويكون ثلثا الطريق قد قطعا فمن الممكن عندئذ أن يجد الانسان القوة على قطع المسافة الباقية. ثم ان حرارة النهار ستكون قد قلت أيضا، وذلك من شأنه أن يساعد كثيرا على تخفيف الحالة.

وقال انطون في امل:

ـــ لعلنا نعثر في طريقنا على صهريج من الصهاريج الرومانية. فأمين يقول ان بعض هذه الصهاريج موجودة في هذه الأنحاء، وقد يكون فيها ماء.

وتساءلت ماريان في لهجة يائسة كيف يمكن لهم ان يستخرجوا الماء من باطن تلك الصهاريج العميقة حتى ان وجدوا صهريجا منها غير جاف. فالماء الموجود بها لابد أن يكون على بعد سحيق... بيد ان ما في صوت الغلام من اللهفة ـــ وانها للهفة شابة يافعة للغاية ـــ جعل قلبها لايطاوعها على تثبيط همته، فقالت:

ـــ علينا اذن ان نفتح عيوننا جيدا لنتسقط مواضعها.

وكان من السهل على المرء أن يرتد آدمي المشاعر وهو جالس هناك تحت أشجار الزيتون، بعيدا عن عملية الافناء، وسحق الروح المعنوية، وانهاك القوى في ذلك الارتحال الاجباري!.. ان الظمأ المستعر لم يزل على حاله، ولكن وطأته غدت أقل فظاعة بعد أن كف الجسد عن التصبب عرقا وهو يبذل المجهود في السير المهلك، واستراحت الأقدام من الاحتكاك

الفظيع الذي أصابها بالتهابات وفقافيق جعلت من كل خطوة عذابا مقيما لا يمكن احتماله ، ومع هذا فلا بد من احتماله ، لأن ذلك هو المهرب الوحيد من الاستلقاء على الأرض والموت بضربة الشمس والعطش !

وكانت ثمة راحة أيضا من الفزع ، اذ انقضت عليهم الآن فترة من الزمن لم يروا فيها جنديا اسرائيليا ولا طائرة غادرة من طائراتهم . ولم يعد أحد يطاردهم ليوغلوا في البرية كما تطارد كلاب الصيد فرائسها . ولكنهم كانوا قد أبعدوا بما فيه الكفاية عن طريقهم بحيث صارت تفصلهم عنه أميال عديدة ، وليس أمامهم الا الاستمرار في خوض البرية .

ان مجرى الوادي الصخري سيكون عذابا من نوع جديد لهم عندما يصلون اليه فتلهب حجارته الأقدام المتورمة والدامية ، فليس ذلك الوادي الا مجرى نهر أصابه الجفاف . ولكن له مزية لا يستهان بها ، فهو طريق واضحة المعالم لايضل من يسير فيها ، وبذلك يتخلصون من الضرب على غير هدى . انهم عندئذ سيعرفون على الأقل انهم بعد ساعة أو ساعتين من المشي لابد ان

يصلوا الى قرية (نعلين)، وهي القرية التي لم تزل في أيدي العرب.

كان كثيرون يأتون ويذهبون، وبعضهم يستريح في العراء في ظل الصخور والحصى الأملس الضخم، وانه لظل هزيل. فالحركة دائبة لا تنقطع، والسهل المتماوج مزدحم بالناس كزحام شوارع المدن المأهولة في أيام المواسم. وانه لحشد من الناس متعدد الألوان حقا، يبلغ تعداده عشرات الألوف من الأنفس في خليط عجيب، ففيهم الرجال والصبيان ممن يرتدون القمصان البيضاء والبنطلونات، وفيهم من يرتدون الزي العربي التقليدي والعقال المعروف. وفيهم نساء وفتيات في زي اوربي حديث الطراز، ومنهن من ترتدي زيا أسود أشبه بزي الراهبات، ومنهن من تلبسن الزي الفلسطيني التقليدي الموصوف في التوراة، وهو زي طويل ضاف مثقل بالوشي والزخارف، وعلى ظهورهن تتدلى الطرح البيض التي تغطي رؤوسهن. والمسنات منهن يرتدين الزي الفضفاض الأسود أو الرمادي وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل. اناس من كل لون وصنف، فيهم القرويون وسكان المدن. فيهم الفقراء وأهل اليسار، فيهم المسلمون والمسيحيون. وما أكثر

الأطفال فيهم. ففي كل موضع أطفال يحملهم أهلوهم، أو يجرون أقدامهم ممسكين بذيول امهاتهم. وكلهم صغار، سود الشعر، سود العيون، وهؤلاء هم الجيل الصاعد من الفلسطينيين. جيل يشب بلا وطن، وبلا ديار، وبلا مستقبل، وقد كتب على كثيرين منهم أن يشبوا في مسغبة المعسكرات وتعاستها، بل ان كثيرين من هؤلاء الصغار الأبرياء كتب عليهم أن يموتوا هاهنا في البرية!

وكان بعض هؤلاء الناس المتبايني التكوين لهم أقارب في (رام الله) — كما هو حال آل منصور — وهؤلاء هم المحظوظون، وهم قلة قليلة. وأقلية منهم ايضا من لديهم أموال وممتلكات في ذلك الجزء من فلسطين الذي أصبح الآن اسرائيل. أما الأغلبية الساحقة فلا يملكون الا الثياب التي يرتدونها وايمانهم بالله الذي لا يغفل ولا ينام. والجميع قد خلفوا وراءهم الأراضي التي كانت عائلاتهم تمتلكها وتزرعها منذ قرون لاتحصى. فهم جميعا — رجالا ونساء — أناس كادحون، يتجه كل كفاحهم الآن لمقاومة الفناء تحت هذه الشمس المحرقة في هذا السهل الذي يجتازونه بأقدام متورمة داخل أحذية أبلتها الصخور والأشواك!

ان هذه الأرض الموحشة لا يجسر البدو أنفسهم على السير فيها معرضين لضربة الشمس والهلاك عطشا واعياء. ومع هذا يتحرك سوادهم الأعظم متعثرين في كل خطوة يخطوها فينهضون في صمت ويواصلون التقدم في عناء كأنهم تماثيل آلية صماء.. لأنهم يعلمون أن البديل الوحيد للتقدم الى الأمام هو الموت المحقق. وارادة الحياة تلازمهم الى آخر نفس من انفاسهم المكروبة اللاهثة.

ـ ٣ ـ

وجال في ذهن المرأة الانجليزية هذا الخاطر :

ـ لو انني لم اتزوج هذا الرجل الفلسطيني منذ اربعة عشر عاما لما كنت الآن هاهنا ، في هذه المحنة !

ولكن الشعلة الصغيرة التي اندلعت من هذه الفكرة لم تلبث ان اضطربت ثم خمدت انفاسها تماما امام الفكرة المقابلة لها ، فقالت تحدث نفسها :

ـ لو لم اتزوجه لعشت في انجلترا طيلة تلك المدة ، ولكان من الجائز جدا أن القى مصرعي في احدى الغارات الجوية التي شنها الألمان !

ونظرت صوب زوجها ، فاذا هو جالس فوق صخرة ملساء متجها بجسمه الى الأمام ، وكلتا يديه فوق مقبض عصاه

الفضي، وقميصه الأبيض المبلل بالعرق لاصق بجسده، وتحت عينيه جيوب، فبدا في تلك الجلسة مسنا مريضا. ومع هذا كله لم تزل عليه سيما ذلك السمت المهيب، ومخايل ذلك السلطان الذي جعل الناس ينادونه دائما بقولهم «يا بك».

وقالت في نفسها انه قاسى كثيرا جدا. فكيف يمكن أن يعيش؟. فان لم يكتب له ان يعيش فكيف استطيع انا ان اعيش؟ ان قوتنا رهن بأيامنا وأحوالنا. كان أبي يقول ان تلك الحكمة رثة ابتذلها الاستعمال، ولكنها صحيحة صادقة. فاللهم اجعلها تصدق ايضا!.. اعطنا القوة كي نستطيع مواصلة السير.. مسافة اخرى قصيرة.. ومدة اخرى أطول مما استطعنا. ولو تلك الساعات القليلة التي سيستغرقها هذا السير المهلك! اعط بطرس القوة يارب! بطرس على الخصوص يارب! أما أنا وانطون فسيكون في استطاعتنا ان نتدبر أحوالنا.. أما ان لم يستطع بطرس ان يقاوم ويثبت لهذه المحنة، فلن يكون في بقائنا نحن جدوى يارب..!

أما بطرس فلم يوجه كلاما الى زوجته أو ابنه. بل ولا حتى لأخيه، أو لأي امرىء آخر، وهم جالسون تحت ظلال

أشجار الزيتون وسط البرية. بل انه لم يحول رأسه لينظر اليهم. ولم يكن هذا من عدم اكتراث منه بعذابهم أو مدى قدرتهم على مقاومة الفناء المحدق بهم، بل لأن المأساة الجماعية التي كانت دائرة من حوله، والتي لم تكن مأساته هو ومأساة أفراد اسرته الا جزءا صغيرا جدا منها، كانت نكبة انسانية ضخمة، وكارثة هائلة صبت على شعب بريء.. هائلة جدا الى الحد الذي جعل رثاءه لما يصيبه ويصيب آله الأقربين يتوارى بين طياتها الجهنمية!

ان تشريد الألوف المؤلفة من البشر رجالا ونساء وأطفالا، والالقاء بهم الى جوف برية التيه، لم تكن مذبحة أهون شأنا من تلك المذبحة الأخرى التي تمت بنيران المدافع الرشاشة وأسنة الحراب ضد النساء والأطفال في قرية (دير ياسين) في اليوم العاشر من ابريل «نيسان»، ولا هي أهون من حصد أرواح ثلاثمائة رجل في الجامع الصغير في (اللد) منذ ثلاثة أيام.. فهي مذبحة للعجائز والأطفال الرضع الذين تحملهم أمهاتهم فوق صدورهم، وللصغار الذين لم يتقنوا بعد الكلام والذين لم تثبت بعد في الخطو على الأرض أقدامهم الصغيرة.. انها مذبحة الأبرياء!

كان من اليسير عليه أن يستعين بقوة ارادة حديدية

للسيطرة على نفسه كي يتحمل ذلك العذاب البدني . والحق أن عذابه الجسدي كان من الشدة بحيث كان في كل لحظة على شفا الانهيار . الا انه كان يأبى بعناد وصلابة ان يموت كما تنفق الدابة في البرية . من هذه الكبرياء العنيدة استطاع ان يستمد رصيدا من القوة يعينه في آخر مرة على الاستمرار في المسير على نحو ما .

أما عذابه الداخلي، عذابه المعنوي فهذا هو العذاب الذي لم يكن لديه أدنى رصيد من القوة يستعين به على مواجهته . فالفظائع التي كتب عليه ان ينبري لمواجهتها في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة كانت أكثر مما يطيق . كانت ثمة تلك الفظائع التي عاناها في المسجد الكبير ، وذلك الظمأ الذي لم يستطع أن يقنع منه غلته لا في الليل ولا في النهار ، وبذاءة أولئك الجنود وهم ينجسون الصهريج ثم يدعونهم ساخرين هازئين للشرب من مائه ، ويحولون بينهم وبين دورات المياه . فلما انجابت سحابة النهار وقلت وطأة الحر لم يجد الرجال المعتقلون بدا من قضاء ضروراتهم الجسدية لصق جدران الفناء الملحق بالمسجد وفي الأركان ، تحت أنظار بعضهم البعض، فصارت الرائحة الكريهة شيئا خانقا للانفاس . يضاف الى ذلك ما استولى عليهم طوال الوقت من

الخوف والفزع والتوجس: فمن يدري ماذا يمكن ان يحدث لهم في أي لحظة من اللحظات على حين غرة؟ ومن منهم يدري ما الذي يمكن أن يحدث ـــأو يمكن أن يكون قد حدث فعلا ـــ لأسرهم اثناء غيابهم؟ وما معنى هذه الانفجارات المتقطعة التي تنبىء عن اطلاق المدافع الرشاشة، وان اصواتها لتترامى اليهم من جوف المدينة..؟!

وفي احدى المرات طالت هذه الانفجارات في خيط متصل.. ولم يعرفوا جلية الأمر عندما أطلق سراحهم في صباح اليوم التالي، فعرفوا عندئذ أن هذه الطلقات كانت ايذانا بالمذبحة الرهيبة في الجامع الآخر، ذلك الجامع الذي كان فريد والآخرون يريدون بالأمس أن يذهبوا اليه، وألحوا في ذلك. ولقد اوشكوا أن يذهبوا الى هناك فعلا.

يا للصدفة المذهلة! ويا للرعب المصم !.. ثم بعد ذلك صدر اليهم الأمر بالرحيل « وإلا فلن تساوي حياتكم فلسا واحدا!». انه لن ينسى ما عاش سحنة تلك المرأة المجندة وهي تطل عليه من نافذة مقعد القيادة في السيارة ـــ سيارته هو!ـــ لتبصق وتنفث ذلك الغل المسموم فيه. لقد عاش عمره كله يحب

النساء ويكرمهن ويجلهن، ويرى فيهن المثل الكامل للرقة والدماثة والحنان. فهن في نظره مخلوقات تفيض عطفا، فهن الزوجات وهن الأمهات. ولكن هاهي امرأة في خاتمة المطاف تبصق عليه.. ولم يحدث له مثل ذلك من قبل، حتى ولا من المرأة التي تركته.. وبعد ذلك بدأ هذا الارتحال القاسي في البرية في حر الشمس اللافح، وناهيك بشمس يوليو «تموز» الرهيبة الضارية في ذلك السهل الساحلي، وتلك الطائرات الصغيرة السوداء تنقض عليهم وتطير على ارتفاع منخفض جدا، لتزود الناس بالارهاب والفزع فتبعدهم عن الطريق ليوغلوا في البرية، ثم تطاردهم هناك ليزدادوا في البرية ايغالا حتى يصلوا الى الجبال.

ذعر وفزع. والغاء للمقومات البشرية الغاء متعمدا يفرض على اولئك البسطاء الأبرياء فرضا. وكأنما لم يكن كافيا لأولئك الأشرار أن يسلبوهم وطنهم وبيوتهم وأرضهم وكل ممتلكاتهم المادية، فراحوا يسلبونهم ايضا كرامتهم الانسانية. بل وما أكثر من سلبوا منهم أرواحهم ذاتها!

وكان بطرس متنبها الى المرأة التي كانت جالسة عن كثب منه تحت اشجار الزيتون وعلى صدرها طفلها الذي مات عطشا،

مثلما فطن من قبل ــ اثناء المسير ــ الى تلك المرأة الأخرى التي أطلقت صرخة ضارية وهي تلقي بفلذة كبدها حيا الى قاع حفرة في تلك البرية المتأججة بحر الهجير، لأنها لم تعد قادرة على حمله خطوة اخرى، ولم تعد قادرة على الاستمرار في الحياة على المستوى البشري بعد أن ذهب بعقلها عذاب الظمأ والاعياء!.. وكان متنبها ايضا الى المسنين من الجنسين الذين نفذت قوتهم فتهاووا على الأرض، فتركهم بنوهم وذووهم ليموتوا بعد ان يطلقوا القلة الواهية من انفاسهم الأخيرة حيث سقطوا، ومرت بهم الجموع الذاهلة زاحفة نحو هدفها المجهول، وداسوهم بأقدامهم مثلما كانت عجلات الرومان المتوحشين تدهم المنهزمين في العاب السيرك على عهد الأباطرة.

اجل، كان بطرس متنبها للناس من حوله في جمود وعدم مبالاة بالذين يقدمون منهم ــ رجالا ونساء ــ على ضم راحات ايديهم ليجمعوا فيها بولهم كي يشربوه شرب البهيم، بل ويجمعون ايضا في راحاتهم بول سواهم، يقاتلونهم عليه ليظفروا لأنفسهم بقطرة من ذلك السائل الثمين الذي أصبح على دنسه مرادفا للحياة!

وكان متنبها أشد التنبه وأعمقه لزوجته وهي تظلع في مشيتها بألم واضح في صندلها الممزق من حجارة البرية ، ومتنبها ايضا لما كان مرتسما بجلاء من امارات التعاسة على محياها . ولكن ما من شيء يستطيعه لها رغم كل ما يكنه لها من الحب والرعاية والاعزاز . وكان هذا الاحساس بالعجز عنصرا من اقسى عناصر عذابه الداخلي .

وكان متنبها كذلك لمسير ابنه الشاق المتثاقل وقد اطبق يده على يد الغلام الأعمى ، وخيل اليه ان تلك اللمحة الخيرة هي الشيء الوحيد الصالح الطيب في كل هذا الجحيم الذي يتلظى بألسنة سعير من الحر ، والعذاب ، والظمأ ، وفقدان الاحساس بالغير ، لأن كل امرىء كان مشغولا بذات نفسه عن كل من عداه ، منصرفا للنضال في سبيل البقاء في هذه الحياة . ان ابنه انطون يستحق وحده على الأقل ان يبقى حيا مهما جرى الهلاك على غيره ممن حوله !

وارهقه القلق على ابنه وقد بلغ من التفكير في أمره هذا المبلغ ، واستمد من ذلك زادا من القوة فنهض ، واستأنفوا

مسيرهم. وفي هذه المرة اتت ماريان ومشت بجانبه. وقالت له وهي تحاول بث الهمة في نفسه:

ــ سنصل بعد قليل الى الوادي ان شاء الله.

واستقرت نظرته عليها برهة، وقال لها بالانجليزية:

ــ سأتمكن من المقاومة الى أن نصل. لاتقلقي عليّ. كيف حالك أنت؟

ــ أنا بخير.

وبعد بضع دقائق تخلفت عنه لتحمل أحد طفلي نادية ولكنها بعد ذلك تعثرت كمن أصابها العمى من شدة الاجهاد، لأن حمل الطفل كان اقوى من احتمالها، فكادت تصاب بالاغماء، لولا ان شخصا ما أخذ منها الطفل وهي مغمضة العينين.

وكان هذا الشخص فريد.. الذي قال لها يشجعها:

ــ قد يوجد صهريج من صهاريج الرومان تحت هذه المجموعة من الصخور التي ترينها أمامنا هناك.

ــ من الخير لنا ان لانتعلق بالآمال الكاذبة.

فلم يعقب على كلامها، بل حمل الطفل الباكي على

كتفيه وغذ السير، بينما مشت ماريان مع النسوة الاخريات..
وقالت ماجدة:

ـــ اذا لم نجد ماء عندما نصل الى هذه الصخور فاني ميتة لا محالة! لم يعد في وسعي ان اواصل المسير وانا ظمأى. آه! بحق السماء!

ورفعت احدى يديها ولطمت الطفل الآخر المتعلق بها على صفحة وجهه ثم دفعته عنها بعيدا في غلظة، فسقط الطفل على الأرض باكيا. وصاحت ماجدة بضراوة:

ـــ لم يعد في استطاعتي الاستمرار في حمله!

ثم انفجرت تبكي بكاء هستيريا وهي تقول:

ـــ أنا انتهيت! لا استطيع المسير!

فحملت ماريان الطفل الباكي وحاولت ان تسري عنه، ثم قالت لماجدة:

ـــ سنصل الى الماء بعد قليل. لقد انتهى أسوأ جانب من الطريق الآن. تشجعي. تشجعي!

وحملت الطفل على ظهرها ومشى الجميع قدما.. مشى

الحشد الهائل المتدافع ببطء ومشقة، ووجوههم جميعا صوب الشرق..

وعندما وصلت جماعة آل منصور الى الصخور كان جمع كبير من الناس قد ازدحموا حولها من قبلهم. وشق انطون والغلام الأعمى طريقهما بين المتزاحمين وراحا يناوران ويداوران باصرار الى ان نفذا الى المقدمة من تلك الصفوف المتراصة. وكانت الصخور فوق نشز من الأرض مرتفع بعض الشيء وفيما بينها بئر كان الرومان قد احتفروها. وهي بئر غائرة اذا نظرت في جوفها ألفيت لمعات الماء في القاع. وكان الناس قد عقدوا مناديلهم وجزازات من ثيابهم بعضها ببعض وادلوا بها في جوف البئر، وكانوا بعد ذلك يخرجونها وقد تلوثت بالطين الا انه طين بليل. فكانت العائلات تتقاسم قطع القماش الندية فيما بينها وتمتصه. والطلب على هذه المناديل الموحلة شديد جدا..

وكانت النساء يستخدمن الطرح التي يغطين بها رؤوسهن، فتشاور الصبيان فيما بينهما وانتهى رأيهما الى انهما حتى في حالة تعاونهما معا لن يستطيعا صنع حبل يصل طوله الى مستوى الماء البعيد الغور. ولكن اذا اقدمت جميع نساء جماعتهما

على تمزيق جزازات من ثيابهن فسيكون في وسعهما ربط هذه الجزازات بعضها ببعض ليصنعا منها حبلا يفي طوله بالغرض المنشود !

وعندما عادا الى بقية الجماعة كانت رندا تحمل الطفل، اما ماريان فكانت لم تزل مشغولة بماجدة التي لم تفارقها حالتها الهستيرية. وقال انطون :

ــ في البئر ماء.. ماء مختلط بالطين الى درجة كبيرة جدا والناس يدلون بحبال من مناديلهم وجزازات ثيابهم فتخرج سوداء من الطين ولكنها ندية بالماء. ويقبل الناس على مصها.

فصرخت ماجدة :

ــ ومن ذا الذي يريد ان يمص الطين؟ اني أفضل على هذا الف مرة ان اشرب ماء تبولي !

وكانت ماريان قد وصلت من الاعياء والهبوط الى مدى لا مزيد عليه، فأحست فجأة أنها لم تعد تطيق أكثر مما أطاقت، واذا بها تلطم ماجدة على صفحة وجهها، فترنحت وسقطت على الأرض، ثم جلست تبكي بهدوء وقد ثقلت عليها تعاستها، غير انها برئت من الهستيريا. وارتمت ماريان بجوارها وراحت تمزق

هدب ثوبها. ولما فرغت منه شرعت تعمل التمزيق في هدب ثوب نادية، وانطون يعاونها في ذلك.

ولبث الغلام الأعمى معهن، في حين مضى انطون الى الصخور ومعه ذلك الحبل المصنوع من جزازات الثياب. واستغرق غيابه بعض الوقت، ولما عاد الفتى اباه وعمه قد لحقا بالجماعة، وقسم الحبل قسمين فحظيت النساء بقسم منه رحن يتصصن ماءه، وحظي الرجال بالقسم الآخر. وجعل الجميع من فرط سرورهم بترطيب حلوقهم وشفاههم الجافة بذلك البلل المبارك لا يفطنون الى طعم الطين الممجوج.

ولم يكن قرب الصخور ظل على الاطلاق، فلم يمكثوا في ذلك الموضع طويلا، وسرعان ما اقتربوا من التلال القاحلة الصحراوية ثم دخلوا خورا عريضا قريب الغور.. وكان هذا هو الوادي المنشود، وقد بلغوه في النهاية.. غير مصدقين!

— ٤ —

وبدا الوادي جحيما من العذاب لا يقل عن جحيم البرية نفسها، والصخور فيه تملأ القاع، حتى ان بعض الناس فضلوا السير على الجانبين شاقين طريقهم بين الحجارة وكتل الصفا. ولكن هذا لا ينتقص من مزية الوادي باعتباره، طريقا واضحة المعالم، فهو من هذه الناحية ليس أقل شأنا من خطوط السكك الحديدية التي يتبعها الناس في الفيافي كي لا يضلوا .. وسرعان ما التأم شمل الجموع الحاشدة شيئا فشيئا في ذلك الوادي، وتفرقوا جماعات تسير تباعا كأنهم موكب مظاهرة هائل يمتد مسافة بعيدة لا يكاد يدرك آخرها الطرف.

وفي هذا الموسم كانت قد بدأت ثمار التين الشوكي في الظهور، وتفتحت أزهار في مجموعات من نبات الدفل قرمزية

اللون خففت من رتابة التربة الحمراء والحصى الرمادي الذي يكسو البرية. ثم فجأة تراءت للناس أشجار صغيرة متناثرة، لونها بين الرمادي والأخضر، هي أشجار الخروب الصغيرة الضامرة. ولكن قرونها الطويلة البنية اللون كانت تتدلى من أغصانها اثلجت الصدور التي كاد يقضي على أصحابها الجوع والظمأ.

واشتدت قبضة يد انطون على يد الغلام الأعمى. وصاح:

ـــ اشجار الخروب. هيا بنا!

ـــ أين هي؟ فوق الوادي؟

ـــ اجل. وقريبة منه جدا. وهاهم الناس يتقاطرون صوبها متزاحمين كأنهم جيوش النمل!

ـــ اذهب أنت ودعني. سيكون ذلك أسهل عليك من غيري. سأنتظرك هنا.

وجلس أمين على الأرض القرفصاء تأهبا للانتظار. اما انطون فحين وجد نفسه قد تخفف من جر ثقل الغلام الأعمى، صعد جانب الوادي وأسرع يعدو تلك الياردات القلائل صوب

اقرب شجرة خروب. وكان بضعة رجال وغلمان قد تسلقوها بالفعل. ولكنه تعلق بأقرب غصن به قرون مدلاة وقطع عددا منها. ولكن شابا كان جاثما فوق غصن اعلى منه ركله بقدمه وانتهره غاضبا وسبه، طالبا اليه أن يبحث لنفسه عن شجرة أخرى.. غير ان انطون لم يبال بالركل وظل متشبثا بغنيمته وراح يجمع مزيدا من قرون الخروب الثمينة ويحشو بها جيوب بنطلونه وداخل قميصه المبلل بالعرق. وعندئذ صوب الشاب الجاثم من فوقه ركلة شديدة الى وجهه بكل وحشية فأرغمه على النزول.

وكان الظمأ قد قلل احساس الناس بالجوع. ولكن الأيام الأخيرة التي تخللها الضرب بالقنابل كانت أيام مجاعة لم يظفر فيها معظم الناس بما يتبلغون به.. والذين حظوا بفنجان صغير من القهوة التركية وبضع زيتونات في ساعة مبكرة من هذا الصباح يعتبرون بلا شك من القلة المحظوظة!

وكان انطون جائعا جدا، وادرك أن أمين جائع ايضا. ثم من يدري هل سيجد كل هؤلاء شيئا يأكلونه عندما يصلون في آخر المطاف الى (نعلين) أم لا؟.. وحين عاد الى بطن الوادي الفى أمين في انتظاره حيث كان قد تركه، ولكن ذويه ومن يلوذون

بهم كانوا قد سبقوهما الآن بمسافة طويلة وغابوا عن النظر. وأخذ أنطون يعطي أمين القرن بعد القرن من قرون الخروب وهما يشقان طريقهما قدما ويمضغان الفصوص الصلبة، الحلوة المذاق، التي تشبه في طعمها وقوامها التمر الجاف، ويحسان لذلك بحرارة تسري في جسديهما اليافعين. ولم يلبث أنطون بعد قليل أن كف عن الأكل كي يبقي ما معه لبقية أفراد الجماعة عندما يلحقان بهم. وأحس الأعمى ان صاحبه امتنع عن مضغ الخروب فادرك ما دار بنفسه ولم يطلب من صاحبه مزيدا.

وكانت الشمس قد جنحت الآن الى الغروب. ومع أنهما كانا يتصببان عرقا وهما يتعثران على طول السكة الصخرية، الا ان الحر لم يعد يعنف بهما بمثل الشدة الوحشية السابقة. وكان الأطفال من حولهما مستمرين في البكاء والنحيب بصورة تثير الحسرة والاشفاق. أما المسنون فما زالوا يتوقفون كلما ساروا بضع ياردات ليستجمعوا انفاسهم اللاهثة. ولكن أحدا منهم لم يعد يتهالك فيخر على الأرض كما حدث في وقدة الهجير.. فمن خارت قواهم سقطوا في البرية وانتهى أمرهم منذ ساعات. اما الذين لم

تزل تحملهم أقدامهم في بطن الوادي أو على جانبيه فكل الدلائل تنبيء عن وصولهم بعد قليل الى (رام الله)!

○

و (نعلين) قرية صغيرة جدا مقامة على مدرجات جانب التل، فوق الوادي المتصل بوادي (اللد)، ويحف بالقرية الطريق العام. أما جانب الوادي من خارجها ففيه نبع صخري يستقي منه أهل القرية ويسقون دوابهم وماشيتهم. وعن كثب منه بضعة من أشجار التين. اما حيث تنحدر الأرض الى مستوى الوادي تحت مدرجات التل فثمة مصاطب عريضة زرعت فيها خمائل من أشجار الزيتون.

.. وعلى هذه المحلة الصغيرة، تدفق مائة ألف تقريبا من الجياع العطاش المنهكين الذين أصابهم مس من الخبال لفرط ما قاسوه من مشقات الحر والظمأ، وقد غص بهم الشارع الأوحد في القرية فانقلب أشبه بنهر تسري فيه موجة عريضة زاحفة متصاعدة كموجات المد، قوامها اجساد بشرية يقطر منها العرق. وفي نهاية ذلك الشارع ــ في اعالي المدينة ــ وقفت تلك

الحشود كأنها الجدار الصلب المتراص البنيان حول الينبوع الصخري، بحيث لم يجد المتأخرون موضعا لاقدامهم أو فسحة من الأمل في الوصول الى ذلك الهدف المنعش.

وقال انطون:

ــ قد تمضي ساعات قبل ان نقترب من هذا الينبوع. فهيا بنا يا أمين ندور حول نطاق القرية كي نصل الى طرفها الآخر، عسى ان نجد هناك قلبا رحيما نطرق بابه فيقدم الينا كوب ماء بارد ولقمة نتبلغ بها.

وراحا يشقان طريقهما بين الحواري والأزقة الضيقة، ثم بين الاسيجة النباتية وصفوف نبات التين الشوكي. وصادفتهما في الطريق جماعة صغيرة من الكلاب الهزيلة الضالة والقطط التي تتسقط فضلات الطعام من الطرقات. وفيما عدا هذا لم يجدا علامة من علامات الحياة. فقد نمي الى علم اهالي القرية نبأ سقوط (اللد) ففروا هاربين على طول الطريق الى (رام الله).

وكانت ثمة حوانيت قليلة مفتوحة. ولكن اصحابها تركوها مفتوحة قبل هجرتهم لأنهم لم يجدوا مبررا لاغلاقها بعد ان حملوا معهم كل ما كان فيها من شتى صنوف السلع.

وفي وسط هذا التيه من الأزقة والمنعطفات وصل الغلامان الى مخبز صغير معتم لا يكاد يزيد حجمه على حجم كهف من كهوف الجبال. وكانت رائحة انضاج الخبز تتصاعد من داخله. فهل ترى بقي الخباز بمفرده وتخلف عن الهجرة من تلك القرية المقفرة؟

وأطل انطون برأسه يخترق بنظراته العتمة التي بالداخل، فرأى وهج التنور الأحمر، وقد وضعت فوق سطح التنور من الخارج كومة صغيرة من أرغفة مبسطة مستديرة من نوع الخبز الذي يأكله الفلاحون. ورفع أنطون عقيرته بالنداء، وانتظر ان يسمع ردا، ولكنه لم يسمع شيئا، فهل رحل الخباز الى غير رجعة ام انه بارح مخبزه بصفة مؤقتة؟

أيا كان الجواب فان انطون لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه طويلا وقد الفى امامه الخبز الطازج الساخن، فتناول منه وأكل واعطى صاحبه فأكل ايضا. وبعد ان شبعا غادرا المخبز، وقال انطون لصاحبه الأعمى وهما يخرجان الى الزقاق الضيق:

ــ المهم الآن ان نعود ونعثر على الآخرين.

وفي طريق هبوطهما كانا يتحركان ببطء فوق الحصباء

الخشنة، رعاية لحالة أمين، فالتقيا بجماعة صغيرة من الناس اقبلت نحوهما ثم تجاوزتهما. وكان افرادها يحملون حزما ولفائف مما ينم على جلائهم عن القرية. وانتاب انطون شعور اليم مفاجيء بالاثم اذ خطر له ان يكون صاحب المخبز احد هؤلاء الرجال.. وان يكون الخبز الذي التهم منه بضعة أرغفة كان معدا لزاد هؤلاء الناس في سفرهم. وامتدت يده تتحسس الأرغفة القليلة التي دسها في قميصه ليقدمها لأفراد أسرته. ومع اعتقاده بأن ظنه صحيح في الغالب الا ان ذلك لم يدفعه للتفكير في رد الأرغفة. وكان أمين قد خبأ عددا آخر منها في قميصه مع شيء من قرون الخروب. وفزع انطون عندما رأى أحد هؤلاء الرجال يقف ويتحدث اليه ويسأله من أي البلاد هما. فقال له انطون: «من (اللد). لقد اتيت انا وصاحبي الى هنا لعلنا نجد احد يتعطف علينا فيعطينا شيئا من الماء نروي به ظمأنا. ولكننا لم نجد أحدا!».

فقال له الرجل: «معظم الأهالي رحلوا عن القرية هذا الصباح عندما وصلت اليهم الأنباء. ولكن أسرتي قررت المجازفة

بالبقاء حتى المساء على ان نسير الى (رام الله) في الليل لأن الطريق كانت مزدحمة بألوف المهاجرين بالنهار».

وغمغم أمين قائلا: «ان شاء الله». واستطرد الرجل يقول بمرح: «سنعود جميعا بعد بضعة ايام. عندما يتحرك الجيش العراقي لنجدتنا».

ومرة اخرى قال الغلامان: «ان شاء الله».

وأسرع الرجل بعد ذلك كي يلحق بمرافقيه الذين لم ينتظروه والتفت الى الغلامين قائلا: «مع السلامة».

فقال الغلامان: «مع السلامة».

وشعرا بالارتياح لانصراف الرجل، وقد زاد اعتقادهما بانه هو الشخص الذي سرقا ما كان قد أعده من الأرغفة لزاد أسرته!.. وقال امين وهما يتعثران هابطين الأزقة المنحدرة «حتى ان حرر الجيش العراقي فلسطين فلن نعود بعد بضعة أيام كما يقول هذا الرجل. بل سيستغرق الأمر وقتا أطول من ذلك. ثم لعلنا في النهاية لانعود اطلاقا!».

ولم يعلق انطون على كلام أمين. فقد كان اليهود منظمين

تنظيما فائقا على حد ما سمعه من حديث ابيه عنهم. أما العرب فلم يكونوا منظمين على الاطلاق.

ان كل ما يفكر فيه الآن ـــ أو بعبارة أدق كل ما يسعه الآن ان يفكر فيه ـــ هو العثور على والديه، ثم الوصول بعد ذلك الى النبع. ثم ان يده التي كانت قابضة مدى ساعات طويلة على يد امين، تؤلمه الآن، وهو يشعر انها لن تنبسط عن آخرها كما كانت من قبل.

وعندما عاد الغلامان الى الشارع الكبير، وجدا ان الجمع الحاشد لم يزل يشدد الضغط حول النبع، ولكن مؤخرة ذلك الجمع كانت قد تخلخلت بعض الشي لأن الكثيرين أدركوا عقم محاولة وصول الجميع في وقت واحد الى مصدر الماء، فتفرقوا وجلسوا أو اضطجعوا تحت أشجار الزيتون أو على افاريز الشوارع مسندين ظهورهم الى جدران البيوت على الجانبين، قانعين بالانتظار، شاكرين الله على الأقل انهم لم يعودوا مضطرين للضرب على غير هدى في هجير البرية المستعر، بأقدامهم المتورمة بين الحصى والشوك. فهم الآن في الأردن. في ارض عربية. في ذلك الجزء من الأردن الذي كان يوما ما يسمى فلسطين، شأنه

في ذلك تماما شأن الأرض التي الى الغرب فيما بين ساحل البحر وصفوف التلال القاحلة.

جلس الناس يحملقون في التلال. وكانت الشمس الغاربة قد صبغت صفحة الأفق من فوقهم باللون القرمزي. ومن وراء الأصيل راحوا يحملقون في ظلام المستقبل الذي لم يتشكل بعد. وكان نفر منهم يبكون من الاعياء والقنوط. وفريق اخر كبير العدد جلس يحدق في جمود، هو بداية الجمود المعهود في اللاجئين على نطاق واسع، حيث لا يعرفون لأنفسهم مصيرا!

وراح انطون والغلام الأعمى يشقان طريقهما نحو المقدمة بوصة بوصة. وبعد جهد جهيد وصلا في نهاية الأمر الى الماء، فراحا يغترفان منه في راحتيهما ويضربان به وجهيهما ويمتصانه امتصاصا ليرطبا حلقيهما الجافين، بأصوات عالية كأصوات البهائم عندما تشرب.. والناس من ورائهما ومن حولهما يدفعونهما طول الوقت ويجذبونهما الى الوراء.

وكانت الظلمة قد بدأت تخيم عندما غادرا النبع. وشرع أنطون يشعر بالقلق على مصير والديه، وعثر على مكان لأمين تحت أشجار الزيتون تركه فيه ثم انطلق يبحث متنقلا من شجرة

الى شجرة، متعثرا بين الحين والحين بالأجساد المستلقية على الأرض، متلقيا اللعنات من أصحابها. وأخذ يدقق النظر في كل جماعة من الناس. ومنهم من كان يحسب «انطون» متسولا فينتهره كما لو كان كلبا ضالا!

واستولى عليه فجأة فزع شديد من ان والديه ربما لم يصلا بعد الى (نعلين). ومن يدري؟ لعل أباه قد خارت قواه، وامه الآن جالسة بجواره في مكان ما من الوادي. أو لعل الأسرة كلها لم تزل متخبطة في البرية. ما كان ينبغي له أن يجري بهذا الطيش نحو أشجار الخروب. وان شجرة الخروب لشجرة لعينة منذ القدم، اذ يقال ان الأرواح النجسة تطوف حولها وتسكن قرونها. ولذعته في جلد صدره الدافىء تلك القرون الصلبة الحادة وتلك الأرغفة المستديرة المسروقة.

وشرع الفتى المسكين ينتحب وقد نفذت حيلته، وهو يتخبط على طول خمائل الزيتون، شاقا طريقه في العتمة بين الأجساد المقعية والمستلقية، متنقلا من جماعة الى جماعة، وقد بدأت شجاعته تتخلى عنه مع ازدياد شدة الاعياء وطوفان القلق والجزع.

وعندما قبضت على كتفه فجأة يد قوية، صرخ في ذعر وقد اعتقد ان شخصا شريرا سيلقي به على الأرض وهو يصب عليه اللعنة والسباب !... واذا به يفاجأ على الأثر بصوت مألوف يصيح به:

ــ الى اين تظن انك ذاهب هكذا؟ لقد لبثنا ساعات طويلة نبحث عنك في كل مكان!

... وفي خضم موجة طاغية من الارتياح والسرور رفع عينيه ليملأهما من وجه عمه فريد. ثم هتف وهو يلهث:

ــ أوه!

وتعلق بيد عمه، ولم يستطع ان يزيد على ذلك كلمة واحدة، لأن انفه بدأ ينزف دما مرة أخرى.

○

وكان الليل دافئا هادئا ساكن الريح، لا تسمع فيه الا اصوات الجنادب التي لا تنقطع. وأصوات ذلك العدد الكبير من الناس الذين يغطون في نومهم الثقيل غطيطا مسموعا لأن الأعياء غلبهم على أمرهم. وبين كل مسافة وأخرى كنت تسمع نفرا

قليلا من الساهرين يتحدثون بأصوات خفيضة. أما الأطفال فما أكثر ما ارتفع بكاؤهم في جوف تلك الليلة.

وفي بعض الاحيان كان يسمع من العراء في خارج القرية ومن جوف البرية عواء فظيع قصير يرسله ابن آوى. فتجيبه الكلاب من كل صوب بعواصف هادرة من النباح.

أما النائمون فكان منهم من استغرقوا في الكرى وكأنهم لن يهبوا من سباتهم. ومنهم من راحوا يتقلبون كأنهم ينامون على جمر الغضى. ومن حول هؤلاء وهؤلاء اناس أسلمهم الارهاق الى الأرق، لأن عبء الهم أثقل على نفوسهم من تعب السير الشاق، فهم يحدقون في أجساد النائمين عن كثب منهم فوق مدارج جانب التل، متطلعين في صبر نافذ الى بزوغ الفجر من الأفق الشرقي.

ونامت «ماريان» رقدت مستلقية على ظهرها فوق الأرض الصخرية وقد انهك التعب قواها تمام الانهاك. ونامت «ساجدة» في استغراق الى جوارها وقد تكور الطفلان الى جانبيها. أما نادية فرقدت ساهرة تبكي وتتوجع وتتوجس. واستراح بطرس مستندا بظهره الى شجرة عتيقة عجراء وقد استولى عليه شعور بأنه لن

يعرف للنوم مذاقا بعد الآن . وجلس انطون بجواره وهو يخشى ان يستلقي على الأرض حتى لا ينتابه النزيف الأنفي مرة أخرى . وكان فريد قد حاول أن يظل يقظا كي يؤنس وحشة اخيه ، ولكن النوم غلبه في النهاية على أمره فاستغرق في النعاس وهو جالس .

وحملق بطرس في الخطوط الخارجية القاتمة للتلال البعيدة وقال بصوت مرتفع وان لم يوجه حديثه الى احد على وجه التخصيص :

ــ لم يستطيعوا أن يقتلونا . لم يقتلوا منا الا الطاعنين في السن فقط والصغار جدا . لقد اخرجونا الى البرية لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت . اننا لم نزل هنا . معظمنا على الأقل ! ولكننا أصبحنا شعبا بلا وطن !

فقال انطون : «لعل الجيش العراقي سيسارع الى تحرير وطننا فيتسنى لنا عندئذ ان نعود اليه » .

ونظر بطرس الى التألق الشاحب الذي بدا في محيا ولده الجالس بجواره ، ثم قال برقة : « ربما . ان شاء الله » .. ثم استطرد بعد برهة : «استلق يابني وحاول ان تنام . فان علينا ان نشرع في السير مرة اخرى بمجرد بزوغ النهار » .

فاستلقى انطون بجوار ابيه ، فسحق جسده شيئا من نبات الزعتر البري كان على الأرض التي يرقد فوقها ، ففاح منه عطر. وأحس كأنه لم يزل قابضا بيده على يد امين ، وكأنه يحس بضغط يدي أمين المتشابكتين ، يكاد يحس به فوق عظام كتفه !

وقال بالانجليزية بلهجة تفيض سعادة :

ــ انتصرنا !

.. وبعد ان اطلق زفرة استرخاء صغيرة استغرق في النوم .

○

وكان اليوم التالي اقل فظاعة من اليوم الأول ، مع ان اليوم كان حارا .. ذلك ان اللاجئين لم يسيروا في يومهم هذا في السهل المنخفض ، ثم انهم يتقدمون فوق طريق ممهدة .. اجل انها طريق مترية كثيرة الريح ولا نهاية لها ، الا انها طريق على كل حال . وقد جنبت الأقدام المتورمة المهراة عذاب شق طريق لها بين الاحجار والصخور . يضاف الى هذا تخففهم الآن من الخوف وقد صاروا في أرض يسيطر عليها العرب . أما كم من الوقت ستبقى هذه الأرض في أيدي العرب فهي مسألة تخمين ، ولكن ليست في الحو

طائرات يهودية ولا على الأرض ما يدل على اقتراب كتائب يهودية. وكان مفهوما ان الفيلق العربي موجود في (رام الله).

وكان الناس قد بدأوا يتوجهون الى النبع الصخري قبل ان ينبلج النهار. وما ان اشرقت الشمس فوق الأفق حتى كان الزحام حول النبع كثيفا. وقرر الكثيرون ومنهم آل منصور أن من المستحسن عدم تضييع الوقت في محاولة الوصول الى الماء، بل الأفضل ان يشرعوا في قطع المسافة قبل ان تشتد حرارة النهار.

وسرعان ما تضخم الجمع الحاشد فوق الطريق حتى صار موكبا هائلا.. وبعد مسيرة نحو ساعة ونصف شوهدت سيارتان مقبلتين من جهة (رام الله)، فتفرس بطرس بنظرة حادة وقد ضيق ما بين أجفانه، ثم قال لزوجته ماريان التي تسير الى جواره:

ـــ قد تكون احداهما لنا. فلا بد أن «خليل» بلغته أنباء (اللد) في الليلة الماضية.. فان كان البنزين متوفرا لديه فلا بد ان يكون قد ارسل سيارته لتأتي بنا.

وتراجع الناس على جانبي الطريق عندما اقتربت السيارتان، وكانت احداهما «بويك» سوداء كبيرة والأخرى «شيفروليه» كستنائية اللون. وأخذت السيارتان تشقان طريقهما

ببطء بين الجموع. ومضى بعض الوقت قبل ان تصلا الى جماعة آل منصور. وعندئذ صاح بطرس:

ــ أحمد سائق خليل!

وكان فريد قد عرفه أيضا في اللحظة نفسها فصاح مثل اخيه بسرور بالغ.. ووقف السائق، وتكدست ماريان وماجدة ونادية في المقعد الخلفي، وجلس بطرس وفريد في المقعد الأمامي بجوار السائق، بينما تعلق انطون بالمؤخرة.. وصاحت ماريان تأمر السائق: «بسرعة! والا فان الغوغاء سيحاولون الركوب معنا!».

وصاح انطون محتجا: «لامكان لأمين؟!».

وكان لم يزل قابضا على يد الغلام الأعمى فوق كتفه وقالت ماجدة بحزم: «أمين يجب ان ينضم الى بقية الخدم. فاننا ان أخذناه معنا فلا بد ان نأخذهم جميعا!».

فقال لها انطون: «ولكننا لانعرف أين الآخرون».

وكانت ماجدة قد تكلمت بالعربية، فقال أمين بسرعة: «لابأس. ان كل انسان هنا وجهته (رام الله). وسيقبل أي واحد منهم ان يمشي معي».

وحاول ان يخلص يده من يد انطون .. غير ان انطون زاد بها تشبثا وصاح في اصرار : «ان أنت مشيت فكذلك سأمشي أنا ! » .

وصاحت به ماريان في ضراوة وقد فطنت الى الوجوه التي اخذت بالفعل تتجمع عند نوافذ السيارة : « اركب ! تستطيع ان تحشر نفسك بيننا . ويستطيع أمين أن يجلس على أرض السيارة تحت أقدامنا » .

وركب الغلامان ، وصفق الباب ، واستأنف السائق السير الى الأمام باحثا عن مكان يسمح له بالدوران . وكان عدد من الناس قد اخذوا يلوحون بقبضات ايديهم في اثر السيارة « البويك » اما السيارة « الشيفروليه » فمشت خلفها وهي فارغة لأن الذين ارسلت لتأتي بهم كانوا فيما يبدو على مسافة ميل أو أكثر من مؤخرة الموكب الذي لا ينتهي .

ووجه بطرس الى السائق هذا السؤال :

ــ كيف الحال في (رام الله) ؟

فأجابه السائق قائلا :

ــ حال فظيع ! فقد وصل اليها ألوف من اللاجئين في الليلة

الماضية ولم يكن في المدينة ما يكفي لاطعامهم. وقد وزع عليهم الخبز من مخازن الفيلق العربي هذا الصباح. جلوب باشا هو الذي أمر بذلك فيما يقولون.

فسأله بطرس: «أهو موجود هناك؟».

فأجاب السائق: «لا. إنه في القدس. ولكنهم اتصلوا به تليفونيا هناك. وكان الناس يرجمون العساكر بالحجارة بالأمس عندما جاءتنا أنباء استيلاء اليهود على (اللد) و (الرملة).

وكانت نبرة صوت السائق تدل على الرضى بما فعله الناس بالعساكر. ولكن بطرس لم يعلق. فالمرارة كانت شديدة الى درجة لا يتصورها العقل. لأن كل انسان كان يعتقد أن السيارات المسلحة الثلاث التي ناوشت طليعة الكتائب الاسرائيلية على مشارف مدينة (اللد) كانت طلائع القوة الزاحفة لتخليص المدينة من اليهود. ولكن هذه الآمال لم تتمخض عن شيء، ولم يظهر من كتائب الفيلق العربي طابور واحد، فاقتصرت المناوشات على مشارف المدينة. أما قوات اليهود فكانت متفوقة في العدة والعدد. فماذا تجدي ثلاث سيارات مسلحة في دفع غائلتهم؟

كان بطرس يعتقد انه عندما يكتب تاريخ الحرب العربية الاسرائيلية سيذكر فيها أن جنود الفيلق العربي كان من الممكن ان يقاتلوا ببسالة ضد قوات معادية تفوقهم عددا وعدة. ولذا رجم الأهالي المدنيون المستنكرون العساكر العرب بالحجارة وحصبوهم بالحصى. لقد فعل المدنيون هذا وهم لايعرفون شيئا بالبداهة عن المشكلات الحربية. وأحس بطرس غصة شديدة لأن جرحا جديدا قاسيا قد أصاب الروح الفلسطينية التي اثخنتها الجراح من قبل.

ولما تسنى للسيارتين أن تدورا لتعودا صوب (رام الله) افسحت الحشود الطريق لهما على مضض واستياء.

وقالت ماريان لنفسها في أسى يائس:

ــ إنهم يشعروننا بالاثم لتمتعنا بهذا الامتياز عليهم. ولكن هكذا كانت حالنا دائما، وقد قضت اسرتنا عمرها كله محظوظة منعمة.

وشعرت بارتياح شديد عندما التقوا في الطريق ببضع سيارات اخرى قادمة من (رام الله). وان كان اسطول كامل من السيارات لا يمكن ان يفي الا بنقل حفنة من عشرات الألوف

من اولئك المنهكين المتورمي الاقدام، الجائعين العطاش، المتصببين عرقا والمنزوفين جهدا ودموعا، ممن كان عليهم ان يواصلوا السير بمشقة وبطء فوق طريق تسفيها الرياح بعاصفة من الغبار الكثيف، وهم يقتربون من نهاية سيرهم المنكود الى (رام الله).

ـ ٥ ـ

ومن قبل وصول كتلة المهاجرين الرئيسية من (اللد) و (الرملة) كانت مدينة (رام الله) الجبلية الصغيرة مسرحا لمنظر عجيب، لألوف المشردين الذين لا ديار لهم وهم يتدفقون في شارعها الرئيسي الضيق باحثين عن الطعام والمأوى.

وتحت كل شجرة زيتون فوق مدارج التل كنت ترى أسرة قد عسكرت هناك. وفي كل حديقة وعلى طول كل جدار أو سياج في شوارع الحي السكني التي تظللها أشجار الصنوبر كنت ترى خياما بدائية مصنوعة من الخيش القديم وخرق الثياب المهلهلة لتؤوي تحتها رجالا ونساء وأطفالا فتمنحهم احساسا وهميا بالملاذ.

وكان الهلال الأحمر المصري قد نظم بالتعاون مع الشرطة

والجيش توزيع الطعام والبطاطين والخيام. بيد ان ذلك «الخروج» الكثيف الواسع النطاق لم يكن متوقعا من قبل وبهذه السرعة، ولذا لم تكن الاستعدادات قد اتخذت لمواجهة مثل ذلك الطوفان. اذ كان الاعتقاد السائد على نحو ما أن (اللد) ليس من المعقول أن تسقط في ايدي اليهود. ولذا كانت الموئل الذي لجأ اليه الناس من المناطق المحيطة بها يلتمسون الأمان من عدوان اليهود وبطشهم. وكان بها حرس قومي قوي. وكل رجل من سكانها قادر على حمل السلاح كانت لديه بندقية. وفي الوقت الذي كانت فيه ضجة المعارك تتصاعد قعقعتها من كل مكان حولها كانت (اللد) نفسها آمنة وادعة، والناس فيها يؤمنون بأن النجدات العربية سوف تصل عما قريب فترد الاسرائيليين على اعقابهم الى البحر. بل وتلقي بهم في لجته فينتهي أمرهم الى غير رجعة.

ولكن واسفاه. بدلا من الالقاء بالاسرائيليين الدخلاء الى قاع اليم كان الفلسطينيون هم الذين سيقوا سوق الانعام صوب الشرق والقي بعشرات الألوف منهم في لجة البرية الرملية الصخرية، لجة العطش الذي لا ترويه قطرة ماء واحدة!

وكانت (رام الله) هي التي تلقت الصدمة الأولى لهذه

الكارثة الانسانية الكبرى، فترنحت تحت وقع تلك الصدمة، بيد انها ثابت الى رشدها سريعا وشرعت في تنظيم جهودها لملاقاة هذا الرزء الداهم. وأقبلت سيارات النقل التابعة للجيش من عمان التي تقع على مسافة بعيدة فوق التلال القاحلة في الضفة الأخرى من وادي الأردن الكبير، اقبلت محملة بأكياس الدقيق. وكانت مكبرات الصوت في الشوارع تقوم بتوجيه الناس الى مراكز التوزيع. وسرعان ما تحولت مدرسة الاصدقاء الأمريكيين للبنين ببنيانها الكبير الى مستشفى مؤقت وعيادة لعلاج المرضى والجرحى الذين تمخض عنهم هذا «الخروج» الفظيع، ولرعاية الأطفال الكثيرين الذين جاء امهاتهم المخاض قبل الأوان في تلك المسيرة الرهيبة، فتعرضت حياة اولئك الأمهات المنهكات لحمى النفاس بمضاعفاتها الوبيلة جميعا!

وهاجم الناس خمائل الزيتون والبساتين والكروم للحصول على اخشاب يشعلون بها نيرانهم. ومن الطبيعي ان اصحابها تأذوا الا انهم استنجدوا بكرم الضيافة العربي المأثور ليتجلدوا ويقولوا للناس باسمين:

ـ تفضلوا الدار داركم!

اذ كيف يمكن لأحد ان يرد هؤلاء الجياع المحرومين المشردين خائبين؟ ان امم العالم قد أصدرت قرارا جائرا باعطاء وطنهم لليهود، وها هم اليهود قد وضعوا اياديهم عنوة على ديارهم وأراضيهم. فليكن الله في عون تشردهم وجوعهم وكل من بيده شيء في (رام الله) كان يبيحه اياهم قائلا:

ـــ تفضلوا!

○

وأخذت السيارة الكبيرة البويك السوداء تشق طريقها في الشارع الرئيسي المكتظ بالناس في المنطقة السكنية الراقية حيث تلقي اشجار الصنوبر ظلالها. وتحت كل شجرة منها معسكر مرتجل لايواء حفنة من اللاجئين بصورة أو بأخرى. وكان «خليل داود» قد بعث بهذه السيارة يقودها سائقه الخاص في ساعة مبكرة من هذا الصباح على أمل ان يعثر السائق على أصهاره وهم شقيقا زوجته بطرس وفريد منصور وزوجتيهما وسائر افراد اسرتيهما في المرحلة الأخيرة من تلك المسيرة الطامية.

وعندما وقفت السيارة أمام بوابات فيلا داود القائمة بمنجاة

من الطريق العامة في نهاية حديقة مترامية حافلة بالأشجار المزهرة وبساتين الفاكهة، أخذ الناس المتناثرون تحت مظلات من الخيش القديم مثبتة في قضبان سياج الحديقة ينظرون اليهم بغيظ وحرد. كانت نظراتهم تقول بأجلى بيان:

هؤلاء حقا هم المحظوظون، لأنهم قطعوا جزءا على الأقل من مسيرة الخروج بالسيارة، ولهم هاهنا بيت وأسرة يلجأوون اليهما...

وخليل داود رجل وسيم طويل ذو بشرة شقراء، ارستقراطي المظهر، يتحرى الرسميات في سلوكه حتى أن من لا يعرفونه عن كتب كانوا يعتقدون انه فاتر بارد الطبع، في حين انه كان في الواقع رجلا على جانب كبير من كرم الخلق والسخاء والرقة الفطرية.

وهو من كبار ملاك الأراضي وذو ثروة طائلة. وزوجته «منى» لها محاسن آل منصور وسحرهم. وفيها شيء من سرعة الغضب التي يتصف بها شقيقها الأكبر بطرس. ولما كان خليل مسلما فقد استاء رؤساء الأسرتين في البداية أعمق الاستياء لعقد

ذلك الزواج، فيما عدا بطرس الذي كان في تلك الفترة زوجا مهجورا، لأن زوجته الأولى التي كان متزوجا منها في ذلك الوقت كانت قد فرت مع رجل أصغر منه سنا.. وفيما عدا فريد الذي كان ملحدا متمردا مع أنه متزوج من امرأة متدينة يصل تدينها الى درجة الايمان بالخرافات والخزعبلات، على طريقة ايمان العجائز.. وقد طرب خليل داوود عندما رأى بطرس وقد قارب الخمسين من عمره يصيب شيوخ الأسرة بصدمة عنيفة اخرى عندما تزوج من امرأة انجليزية اصغر منه بعشرين سنة الا انها تعتبر من وجهة نظر اولئك الشيوخ المتزمتين عجوزا، ثم هي فوق هذا وذاك اجنبية.

وكان انطون يشعر بشيء من الخوف من آل داود، أي من زوج عمته خليل ذي المظهر المتعالي، ومن عمته «منى» بابتسامتها ودماثتها التي تشوبها فجأة ثورات غضب، ومن البنات الأربع بنات عمته، وكانت صغراهن تقاربه في السن، أما كبراهن ففتاة كبيرة في السادسة عشرة من عمرها، لها نظارة ذات اطار، ويوحي مظهرها ولهجتها بأنها تعرف كل شي في الدنيا ولا تطيق ان تشغل نفسها بأي انسان ليس في مستواها العلمي!.

وكانت زوجة بطرس الانجليزية ماريان تميل الى زوج أخت زوجها ـــ خليل ـــ ولكنها ترى «منى» متعبة وترى بناتها غير جذابات بصورة واضحة، رغم ما يتمتع به والدهن من جمال الشكل الملحوظ. ومن الممكن ان يظنهن الناس انجليزيات ـــ فيما تعتقد ـــ بسبب لون بشرتهن الأشقر، وأسلوبهن غير المبالي، وعدم لباقتهن في التصرف أمام الناس!

أما بطرس فكان يحب اخته «منى» ويغفر لها ما ينتابها من هياج وغضب، لأنه يعرف فيها النسخة الأنثوية من ذاته. ولم يكلف نفسه عناء محاولة فهم خليل، الا انه كان يتحرى احترامه، لثرائه الطائل وارستقراطيته، فهو من المؤمنين بما للعائلات العريقة من مكانة مرعية. ولا سيما ان هذا الثري الارستقراطي زوج اخته.

وأقبلت «منى» تجري بأسلوبها المندفع لترحب بهم، ومن ورائها أقبل خليل في اناته وتصلب قامته وهيبته وجلاله، الا ان ذلك لم يمنعه من تقبيل صهريه فوق الخدين، ومن تقبيل يدي المرأتين، ومن تربيت خدي انطون باعزاز تربيتا هينا. وتعالت من

الجانبين صيحات الترحيب والتأهيل والتأسي والاستفسارات، ثم سار الجميع في موكب صغير تحت «برجولا» تعرش فوقها أعواد نبات «الجهنمية» صوب الفيلا البيضاء المكللة بالنباتات المتسلقة الخضراء ذات الأوراق التي تشبه أوراق الكرم.

وارتقوا جميعا الدرجات الرخامية البيضاء الى شرفة واسعة تناثرت فوقها المناضد والمقاعد في تنسيق بديع، والقى آل منصور بأجسادهم على تلك المقاعد، وجيء اليهم بالمشروبات المثلجة. وأخذت احدى الخادمات طفلي نادية لتمضي بهما الى مكان آخر، وأرادت أن تأخذ معها أمين ايضا، ولكن انطون اصر على بقائه معهم، وقال في تبرير ذلك الاصرار:

ــ انه صديقي.

فسألته عمته منى: «وأين أسرته؟».

فبادرت ماريان قائلة بسرعة:

ــ سيصلون فيما بعد. وهم يعلمون أين نحن. فهم في خدمتنا. دعيه مع انطون الآن، فقد سارا معا متلازمين طول الطريق.

وعندئذ وضع خليل داود يده على ذراع الغلام الأعمى وقال له بحنان واضح:

ـ مرحبا بك. انت هنا في دارك.

فقالت ماريان:

ـ نحن جميعا في حاجة الى الاستحمام.

ثم انفجرت تبكي بدموع غزيرة فجأة وبلا سبب.

○

ولم ينم نوما عميقا من بين جميع نزلاء بيت داود في تلك الليلة سوى بطرس وحده الذي أنهكت قواه تلك المسيرة الشاقة وسهره طول الليل في العراء في الليلة الماضية على مدارج التل في مشارف قرية (نعلين). وبلغ من عمق نومه أن غطيطه العميق الرنان نفذ الى سمع ماريان التي رقدت مؤرقة العينين في الحجرة المتصلة بحجرته، فزاد ذلك من توتر اعصابها.

اما نادية فرقدت مع طفليها في حجرة اخرى، وراحت تتساءل طول الليل متى عساهم يفرجون عن «نصري» الذي احتجزه الاسرائيليون، ومتى عساه يصل الى (رام الله). وهل تراه

في ثورة العار والغضب حريا ان يقتلها عندما يعلم ما وقع لها ، ام أن الأحرى بها أن تقتل نفسها قبل عودته حتى لا تواجهه بمذلتها ؟!

وكانت هذه الافكار تنتابها طول الليل وتتخللها ومضات من الرجاء تتخيل فيها أن عودة نصري قد تأخرت الى أن يقدم لها مرور الزمن الدليل الحاسم على أنها لاتحمل في احشائها ثمرة ذلك الفعل الفظيع الذي وقعت جريرته عليها ، وأن نصري لاحاجة به الى ان يعلم شيئا عن تلك المصيبة برمتها .

بيد ان الخوف كان يلقي ظلاله القاتمة دائما على تلك الومضات من الرجاء . وقد حاولت امها وحاولت ماريان ان ترفها عنها قائلتين انه اذا تبين انها حامل فان نصري وأباها حريان أن يذهبا معا الى طبيب فلسطيني فيخبراه بما حدث ويطلبان اليه ان يجهضها . وما من طبيب فلسطيني يسعه في هذه الحالة أن يرفض هذا الطلب الانساني والوطني في هذه الظروف .

ولما أغلقت عينيها تراءت لها مرة أخرى صورة وجه ذلك اللبناني الامريكي اليهودي الشاب وهو يضحك مزهوا بانتصاره الوضيع عليها ، فجعلت تقلب رأسها فوق الوسادة من هذا

الجانب الى ذاك الجانب وهي تئن من عذاب نفسي مستعر .

وفي الحجرة الملاصقة لحجرتها رقد والداها . وهما ايضا لم يغمض لهما جفن طول الليل . لأن ماجدة أفضت بالنبأ الفاجع الى فريد بعد أن أويا الى حجرتهما .

وقالت ماجدة تستحث زوجها على السكوت عما اصاب ابنتهما :

ــ ان لم يصل نصري الى هنا في وقت قريب جدا فقد يتضح لنادية ان كل شيء على مايرام . وفي هذه الحالة لا حاجة بنصري الى ان يعرف شيئا عن هذا الموضوع اطلاقا . فلماذا نسبب له عذابا لا ضرورة له ولا مبرر في هذه الحالة ؟ وبعد عشرة ايام تقريبا ستكون نادية قد عرفت كل شيء .

فقال فريد بوجوم :

ــ يحسن اذن أن تصلي لله بحرارة كي لا يعود نصري قبل أن تكون نادية متأهبة لاستقباله وقد ثبت أن كل شيء على مايرام . ولكن اذا عاد قبل ان نعرف على وجه اليقين أهي حامل أم لا فمن الخير في هذه الحالة أن يقوم خليل بابلاغ الأمر اليه !

فقالت له ماجدة بشيء من الدهشة : «ولماذا خليل

بالذات؟ لماذا لا يقوم باخباره بطرس باعتباره رأس الأسرة؟».

فأجابها قائلا: «ان بطرس سيجد هذا الموقف مزعجا له ازعاجا يتجاوز طاقة احتماله. أما خليل فهادىء بارد الأعصاب، على الصورة التي تنبغي لمحام أو طبيب يعالج الأمور معالجة موضوعية. فمن الخير ان يتلقى نصري الخبر منه..».

ورقدا على ظهريهما في الفراش الواسع، وقد مد كل منهما ذراعيه بمحاذاة جنبيه مسترخيين، لاراحة أقدامهما المتورمة وقد وجدا فراشا يرقدان عليه بدلا من جانب التل الصخري الذي أرقهما في الليلة السابقة. فالاستلقاء على الظهر صار في حد ذاته نعمة. وكانت النعمة حرية ان تكتمل لولا ذلك القلق الموجع الذي تثيره نادية. نعم لولا هذا القلق لاستطاعا ان يستغرقا في النوم بكل سهولة بعد طول العناء. ولكن التفكير القاتم أبقى عيونهما مفتوحة تحملق في الظلام. وكان فريد يغفو بين حين وآخر، بصورة متقطعة، أما ماجدة فكانت كلما هومت للنوم انتبهت مذعورة وهي تخال انها سمعت نادية تنتحب في الحجرة المجاورة.

وفي مؤخرة البيت، في حجرة تطل من الطابق الأول على

حديقة بها نافورة وأشجار برتقال صغيرة، استلقى خليل في الفراش وقد عقد يديه تحت رأسه ووجهه صوب ضياء القمر في الخارج. وكانت أشجار الياسمين تحدق بفروعها اللدنة بالنافذة وتفعم هواء الليل الدافىء الساكن بعبيرها الفواح، وأصوات زيزان الحصاد ـــ تلك الحشرات الصغيرة الشفافة ـــ تنساب في الظلام آتية من بعيد.

وكانت منى جالسة بجواره متكئة على عدد من الوسائد وهي تدخن سيجارة، ووجهها ايضا صوب النافذة وضياء القمر. وكانا قد تناقشا بالفعل في كارثة نادية مع بقية الأسرة ثم فيما بينهما، فلم يبق مجال لمزيد من الكلام في هذا الخصوص. لأنه اذا تمخض الموضوع عن أسوأ احتمالاته فلدى خليل صديق حميم من الأطباء الفلسطينيين، وهو واثق انه سيضع حدا لذلك الحمل السفاح. وخليل ايضا سيتحدث الى نصري عندما يصل بعد اطلاق سراحه، ومن المؤكد انه لن يشعر الا بالرثاء لحال زوجته المسكينة.

لقد زلزل كيانهما وانزعجا غاية الانزعاج لذلك الحادث الوخيم، ولكن ثمة مسألة أولى بالنظر والبحث عن حل لها.

فالسؤال الآن هو: هل من المنتظر أن يهجم اليهود على (لطرون) بعد ان احتلوا اللد والرملة؟

ولطرون تقع عند تقاطع طريقين أحدهما يفضي الى رام الله، والآخر يفضي الى القدس. ويقال ان قوات من الفيلق العربي لم تزل في لطرون. ولكن بدأ يتضح للناس ان قوات العرب تواجه في كل مكان قوات من العدو تفوقها عددا بكثير.

وسقوط لطرون معناه أن الطريق صارت مفتوحة الى رام الله. ورام الله قد صارت الآن مكتظة الى اقصى حد باللاجئين. فهل سيقع خروج آخر، وجهته هذه المرة مدينة (أريحا) التي تقع على انخفاض ١٢٠٠ قدما تحت مستوى البحر، والحر فيها لا يتصوره العقل في شهر يوليو؟ «تموز».

هل سيكتب عليهم جميعا ـــ آل داود وآل منصور ـــ أن يبادروا بالخروج من البلد الآن، منتهزين فرصة خلو الطريق في الوقت الحاضر؟

ان بطرس يمتلك بيتا هناك يتسع لهم جميعا. وكانت منى في حالة عصبية سيئة بعد الحكايات المؤلمة التي سمعتها عن الهجرة من اللد، ثم ان القلق ساورها بخصوص بناتها الأربع. وكان من

رأي بطرس انهم ينبغي أن يبادروا الآن بالمسير الى اريحا. ففي عزمه ان يتوجه الى هناك مع ماريان وانطون في الغد اذا وجد ان الجميع قد ظفروا بكفايتهم من الراحة.

وأشار خليل اشارة تدل على نفاذ الصبر وقال:

ـــ بطرس متقدم في السن. وقد نالت من أعصابه تلك التجارب التي مر بها. ان اللد والرملة سقطتا في يد اليهود لأن احدا لم يحاول الدفاع عنهما. أما منطقة لطرون ففيها قوة كبيرة من الفيلق العربي. وسيكون أمامنا متسع من الوقت للنزول الى أريحا في حالة سقوط لطرون. وان كنت لا اعتقد انها ستسقط.

وأشاح برأسه. وكان ضوء القمر يسقط مباشرة على وسائدهما، فاستطاعت «منى» ان تراه يبتسم ابتسامته اليسيرة المستهينة، ثم قال لها:

ـــ لماذا كل هذا القلق؟ انك تؤكدين انك تؤمنين بالله، فلماذا لاتثقين به وتكلين الأمر اليه؟ ان الله رحيم بالعباد لطيف بهم. اليس كذلك؟

ومد اليها يده وأردف قائلا:

ـــ لماذا لا ننام قليلا؟

فأطفأت سيجارتها ورقدت بجواره، ثم عابثته ببضع كلمات ووضعت رأسها على كتفه وأحاطت جسده بذراعها، فلم يتكلم ولم يتحرك.. وسرعان ما استغرقه النعاس.

وكانت منى تحسد زوجها خليل على ما يتمتع به من هدوء في عقله وجسده. وقالت لنفسها:

ـــ نحن آل منصور عصبيون لا يقر لنا قرار. ونعتز باننا مسيحيون كأنما ذلك حجة ناهضة على مزية خاصة فينا، مع ان المسألة كلها لا تعدو ان تكون صدفة ناتجة عن الولادة لأبوين مسيحيين. فالأمران في النهاية سيان. وكلنا عرب، والدين للديان.

ولكن خليل ليس شديد الايمان بالدين. ويؤثر ان يكون ضميره الشخصي هو مرشده والرقيب عليه. ولكنه بحكم تربيته وعاداته عربي مسلم.

وأخذ الكرى يداعب أجفان «منى» بعد التفكير قليلا في تلك الخواطر، وفي العداوة التي ينقم بها اليهود على المسلمين والنصارى على السواء ماداموا عربا.. ولما استيقظت في الصباح وجدت خليل قد نهض منذ بزوغ النهار كالعادة وغادر الحجرة،

فضغطت على الجرس فأتتها الخادم بالقهوة التركية وقبل ان تفرغ من تناولها الفت ماريان واقفة بجوار فراشها يبدو عليها الانتعاش وهدوء الاعصاب بصورة مذهلة. وكان ثوبها قد غسل اثناء الليل. وقالت لها ماريان ان بطرس مصر على الهبوط الى اريحا. وانه قد اتصل بالفعل تليفونيا ببيته هناك. وان خليل قد أمر السائق أحمد أن يقوم بتوصيلهم.

— ٦ —

كان الذهاب من بلد يرتفع فوق مستوى البحر بمقدار الفين من الاقدام الى (اريحا) التي تنخفض عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ قدما، في حرارة أواسط شهر يوليو (تموز)، عملا اعترض عليه الجميع — فيما عدا ماريان — ووصفوه بالجنون، اذ لماذا يهبط اناس مالكون لقواهم العقلية السليمة من جو التلال العالية المنعش الى جوف ذلك الجحيم الصحراوي؟

وراحت ماريان ترد على هذه الحجة باصرار قائلة ان نشدان راحة البال ليس عملا جنونيا، ولا سبيل الى راحة بال بطرس في (رام الله) التي تقع على الطرق الرئيسية المباشرة من (لطرون) المهددة باحتلال اليهود لها، هذا فضلا عن اكتظاظ شوارعها باللاجئين. وزادت ماريان على ذلك ان بطرس قد عانى

من العذاب ما فيه الكفاية. وايدت قولها بالدموع التي جالت في عينيها من فرط ما منيت به شخصيا من الاعياء العصبي والجسدي. فلئن كانت (اريحا) بجوها القائظ هي ما يصبو اليه كي تطمئن نفسه، فمن الواجب ان يذهب الى هناك، ومن الواجب ايضا ان تذهب الى هناك معه زوجته وابنه.

بيد انها كانت تعلم ان ذلك ليس كل ما في الأمر. اجل ان حالة الانهاك التي يعاني منها حقيقة واقعة. وحقيقة واقعة أيضا انه لا يشعر بالأمان في (رام الله)، وانه يجفل أشد الاجفال من مجرد احتمال تعرضه لمحنة اخرى على يد الاسرائيليين.. وحقيقة واقعة ثالثة ان جو (رام الله) بكل من تغص بهم من خليط اللاجئين، بتعاستهم وضياعهم، كل ذلك ثقيل الوطأة على أعصابه.. ولكن ما هو أهم من تلك الدوافع كلها رغبته بل حاجته الماسة الى الهرب من لقاء الناس.

لقد أمضوا الاسابيع الأخيرة في بيتهم باللد وهم يعيشون ليل نهار محوطين بأناس مروعين جزعين قلقين، ما بين اقارب واصدقاء وغرباء عنهم تماما جاؤوا كلهم يلتمسون المأوى في البيت

الكبير، فعاشوا جميعا في جو الخوف، ملتصقين بعضهم ببعض، يسيطر عليهم توتر مستمر.

وكان الاسرائيليون يطبقون على المدينة في فترة الأيام الأخيرة، ولا يفارق اذهان آل منصور الفزع الرهيب مما حدث في (دير ياسين) منذ بضعة اشهر فقط، حينما اعد اليهود مذبحة شائنة شملت القرية كلها على ابشع صورة ممكنة. وظلت هذه الصورة تلح على مخيلة الناس، فما حدث على بعد بضعة اميال من القدس، من الممكن ان يحدث في مدينة (اللد) العزلاء!..

ولقد اوشك العبء العصبي لتلك الأيام الأخيرة في (اللد) ان يتجاوز طاقة الاحتمال البشري، والناس موزعون بين الخوف من المذابح وبين القصف المستمر بالقنابل وبين اصوات الطلقات النارية..

حدث كل هذا والناس في بيتهم متلاصقون، فلا مجال لاختلاء المرء بنفسه كي يبكي أو يصلي أو ينفس عن عواطفه ببثها لمن يحب. وهذا الحرمان من الخلوة أشد وطأة على بعض

الناس مما هو على بعضهم الآخر . وبطرس ممن كانت هذه الحالة بالنسبة لهم عذابا لايحتمل .

ومع ان مجموع الناس في دار خليل اقل من اثني عشر شخصا ، وكلهم من خاصة اهل الأسرة الأقربين ، الا ان بطرس كان يحس مع ذلك ان عددهم اكثر مما ينبغي . وان التوتر اشد مما يطيقه . فلم يسبق قط ان كان الاتصال بينه وبين زوج اخته حميما أو مستمرا على هذا النحو ، والفتيات الأربع ـــ بنات اخته ـــ كن يزعجن اعصابه بكثرة ضحكهن المجلجل .

أجل . كل انسان وكل شيء كان يزعج اعصاب بطرس ، فيما عدا زوجته وابنه . وكان يريد ـــ بل انه بعبارة أدق كان بحاجة الى ـــ ان ينفرد بهما . وكل ما تسببه حرارة (اريحا) من التنغيص لن يكون شيئا مذكورا في نظره : فأريحا بلد يأمن فيه على نفسه وذويه . وهي ليست غاصة بضحايا الارهاب اليهودي الغاصب من اللاجئين المشردين . وفي اريحا سوف يكون في مقدوره ان ينعم بالهدوء والوحدة مع الشخصين الأوحدين اللذين يشعر حقا انهما يعنيانه من كل قلبه .

كانت ماريان مدركة لهذا كله، لأن هذا الحل كان يوافق حالتها العصبية المرهقة. وانها لتعلم ان الحر في اريحا لابد ان يكون قاسيا جدا، ولكنهم في الوقت نفسه سيشعرون بالأمن والطمأنينة، وستسترخي اعصاب بطرس، وسينعمون ببركة العزلة.

اما انطون فانه شعر بارتياح عندما علم انهم سوف لا يبقون في (رام الله). فهو ايضا لم يشعر بالأمان هناك. فهو لم يكن على سجيته قط مع أقاربه من آل داود. ثم ان بيتهم في اريحا يعتبر بمثابة دار ثانية لهم، وفي وسع أمين ووالديه ان يهبطوا معهم الى اريحا ليكونوا بمثابة خدم لهم، وبذلك يظل هو وأمين متلازمين. وسوف لا تبدأ الدراسة بالنسبة لكليهما قبل أواخر سبتمبر. وحتى ذلك الحين من يدري ماذا سيحدث؟ ربما يكونون قد عادوا الى موطنهم في (اللد)، هم وبقية الناس جميعا..

واستقر رأي بطرس على سلوك طريق الوادي في اريحا، وهي طريق من الدرجة الثانية، وعرة ضيقة، صخرية في بعض مواضعها. يضاف الى هذا انها كثيرة المنعطفات، ولذا تستغرق مدة اطول. الا ان الطريق الرئيسية الجيدة تخترق قلب مدينة

القدس، وثمة معارك ناشبة في المدينة القديمة. واليهود يستخدمون في تلك المعارك قذائف المورتار الثقيلة. ومن ثم لم يكن من الممكن لأي شيء في الدنيا أن يغري بطرس باختراق القدس، وان كان فريد ــ الذي قرر البقاء في رام الله ــ يجادله في ذلك قائلا ان وجود الفيلق العربي هناك سيكفل لهم حماية اعظم مما يمكن ان توفره لهم تلك الرحلة في صميم الريف. وكان الطريق الى اريحا لم يزل مفتوحا، اما هناك في الوادي فمن الجائز ان يحدث اي شيء!

ورد عليه بطرس قائلا ان اي شيء يمكن ان يحدث في اي مكان. هذا صحيح، ولكن الأخبار تتواتر بأن القنابل تصب على مدينة القدس بلا انقطاع، وان اليهود متربصون في كنيسة « نوتردام » ومعهم المدافع الرشاشة يطلقونها على الناس من نوافذ الكنيسة. وانها لمصيبة ان يفلتوا من الخروج الكبير المهلك في اللد كي تصرعهم المدافع الرشاشة أو شظايا القنابل في القدس. اما في الوادي فليس من المنتظر ان يلتقوا بأي انسان سوى اللاجئين من البدو.

وتنبأ لهم خليل بأنهم سيعودون بعد اسبوعين أو ثلاثة الى

رام الله في طريقهم آيبين الى بيوتهم في اللد، وقال بلا مبالاة:

ـــ لأننا سنكون قد القينا اليهود الى البحر.

فأفتر فم بطرس عن ابتسامته الهينة التي يمتزج فيها الأسى بالحزن، واجابه قائلا:

ـــ اراك تتحدث كما لو كانت لدنيا جيوش قوية تحت تصرفنا! مع انه لم يكن لدينا من القوات مانبعث به لحماية اللد والرملة!

فقال خليل: «لم يكن لدى الفيلق العربي عدد كاف من القوات، ولكن العراقيين لم يدخلوا هذه المنطقة بعد».

فأجابه بطرس: «اتمنى على الله ان يصلوا في الوقت المناسب».

وغضبت منى، لأن بطرس كان فيما يبدو حريصا على مخالفة خليل في الرأي على الدوام، وقالت بحدة:

ـــ ان هذه الروح الانهزامية لن تساعد على حل الأمور!

فأجابها أخوها باسما:

ـــ من الخير دائما أن يكون المرء واقعيا في نظره الى الأمور..

وصاحت ماريان وهي تحاول يائسة ان تكون على الحياد، كما ينبغي لضيفة مهذبة:

ــــ ومن أين لأي واحد منا ان يدري؟ العسكريون وحدهم هم الذين يعلمون مكان القوات، ومدى استطاعتها!

لقد كان من المجدي حقا لراحة اعصابهم أن يرحلوا بعيدا عن بيت آل داود، وعن (رام الله) الغاصة بالخلق عن آخرها.

○

وبعد الخروج من البلدة درجت الطريق على طول الحافة العليا لخور عميق يقع بين التلال العالية، فصار في وسعهما أن ينعما بشيء من استرخاء الأعصاب.

وكانت التلال والوادي من تحتها مكسوة بالخضرة، وفي الوادي مواضع متناثرة من الحقول المزروعة. والأغنام ترعى نباتات يانعة يطلقون عليها البرسيم الحجازي.. وهنا وهناك مربعات أنيقة بها بساتين التفاح والبرتقال، تجري بينها جداول الماء النمير. وكان الوادي كأنه يشدو طربا بما فيه من خضرة خصبة، ولكن هذا الشدو انتهى بانتهاء الوادي.

وأخذ الطريق بعد ذلك يتلوى هابطا الى ان انداحت الأرض كلها من حوله وغدت صحراء مترامية تحف بها تلال جرداء منخفضة بنية اللون، حيث لاماء ولا زراعة. وبعد أن مروا

بمعسكر صغير منعزل من معسكرات البدو كان كأن خيامه المنخفضة مصوعة من شعر الماعز الأسود تحتضن الرمل، لم تعد ثمة علامة واحدة من علامات الحياة.

وأحس انطون قرقعة في صماخ اذنه بسبب الانحدار الشديد الذي هبطوه، فسأل: «هل وصلنا الى مستوى سطح البحر؟».

فقال له أبوه: «لا. ان الطريق الى اريحا لم تزل طويلة يابني».

وشعر بطرس ايضا بالضغط الناجم عن الهبوط، ولكن روحه المعنوية كانت في صعود. وانزل زجاج نافذة السيارة شوطا آخر، لأن الحرارة كانت قد غدت الآن شديدة الوطأة. وراح يحملق من النافذة في البرية القائظة ذات اللون البني المصفر، ثم التفت الى ماريان باسما وقال لها في سعادة:

ــ لا أثر هنا للناس..

فردت على ابتسامته بابتسامة مثلها، ووضعت يدها برهة فوق يده المتشبثة بمقبض عصاه الفضي وقالت:

ــ لقد أصبنا بالمجيء الى هنا.

فقال لها: «لن يكون الجو هنا أشد حرارة من الحو في (اللد)».

فأجابته مستدركة: «كل ما هناك أن الهواء سيكون أقل، لعدم وجود نسيم البحر».

وعندئذ لاذ كلاهما بالصمت، وشغلا بالتفكير في الشريط الساحلي الطويل الممتد على البحر المتوسط من عكا الى يافا، وهو الساحل الفلسطيني الذي يبدأ منه السهل الكبير بكل ما فيه من بساتين البرتقال حتى التلال التي تتوج هامتها القدس.

أما الآن فلم يعد ثمة فلسطين. وهذا الساحل اضحى ساحل قطر جديد اقتطع من الوطن القديم. وهذا القطر الجديد اطلقوا عليه اسم «اسرائيل». فلا ذهاب بعد اليوم الى الشاطىء في حر الصيف ان كنت فلسطينيا. فليس أمام الفلسطينيين الا الملح الأجاج في البحيرة المعروفة باسم «البحر الميت»، وهو بركة تخلفت عن انحسار البحر عن تلك الأرض منذ زمن سحيق جدا.

وتراءى البحر الميت على البعد وقد استنزفت الحرارة الشديدة كل ما كان له من اللون، مثلما استنزفت لون السماء..

تراءى عبر مشهد من الأرض «سيريالي» يحفل بأشكال غريبة منحوتة في الرمل المتماسك المتصلب.. وانه لمشهد من مشاهد الأحلام! ها هو ذا البحر الميت جاثماً هناك، ساكناً، كأنه البحيرة المتألقة، بين جبال (موآب) الداكنة السمرة وبين طيات التلال من الجانب الآخر.

ورنا بطرس الى البحر الميت في ارتياح، لأن ظهوره دليل على انهم قد صاروا غير بعيدين من أريحا. وأريحا هي المكان الذي يتلهف على الوصول اليه. أما ماريان فرنت الى ذلك البحر باعزاز، لأنه مقترن في ذهنها بالمرحلة الرومانسية القصيرة من حياتها، وانها لذكرى أثيرة لديها جدا. وأما أنطون فنظر الى ذلك البحر الميت بسرور، وهو يفكر في اقامة المعسكرات على شاطئه مع أمين، ونزولهما للطفو فوق مياهه الساجية في الليالي القمراء. ثم انحنى فوق ظهر المقعد ليخبر الغلام الأعمى أين هم الآن، وصاح بعد ذلك في حبور: «سنحظى بأوقات هنيئة مرحة! فالبحر الميت على الأقل ملك لنا لا ينازعنا فيه أحد!».

فقال له أبوه مصححا معلوماته: «بل هذا الجانب منه فقط، والشاطىء الشرقي على امتداده ايضا».

فزمجر والد أمين وقال : «ومن ذا الذي تهفو نفسه الى هذا البحر الراكد العفن؟ كان خيرا لنا لو بقينا في (رام الله)» .

فقالت له ماريان من غير أن تلتفت الى الوراء : «هذا دأبك دائما يا يوسف ، لاتكف عن الزمجرة . ما من أحد أرغمك على المجيء معنا الى اريحا !» .

ولم تكن ماريان تحب ذلك الرجل اطلاقا ، وكانت تتساءل دائما لماذا يطيقه بطرس !؟

وبوقار شديد أجابها يوسف : «انا في خدمة سيدي !» وابتسم بطرس ابتسامة واهنة ، ولكنه لزم الصمت . فهو يبيح ليوسف ان يتذمر ويشكو ، لأنه خادم كفء ، وكل منهما يفهم الآخر . وهو يعلم أن الأمر لو كان بيد ماريان لطردت يوسف منذ وقت طويل ، ولكن ماريان لا تقدر الطهو الجيد كما يقدره زوجها ، ويوسف فضلا عن مهارته في قيادة السيارات فهو طاه بارع جدا . فلا بد أن يكون سلوك مثل ذلك الخادم الثمين منكرا للغاية كي يقدم على طرده ، ويوسف انسان لم يحدث منه اطلاقا ذنب يعاب عليه بتجاوز الزمجرة والتذمر ..

وجذبت زوجة يوسف الطرحة التي تغطي بها رأسها

وللمتها حول وجهها لتنأى بنفسها عن هذا التلاحي . وكانت هي ايضا تؤثر البقاء في (رام الله) ، فأريحا هذه خالية من الحياة . انها ميتة مثل هذا البحر الميت . وكانت حرية ان تبقى هناك في بيت آل داود مع والديها وأطفالها الآخرين الى ان يحين اوان عودتهم جميعا الى (اللد) . ولكن مثلما يدين زوجها بالولاء للسيد ، كذلك هي تدين بالولاء لزوجها .

وكان أمين اصغر اولادها الثمانية . ولها عدة أحفاد . وكان فراقها لأحفادها هو أشد على نفسها من فراق بنيها انفسهم . وأمين أحب أبنائها اليها بسبب عاهته ، ولأنه ايضا مختلف عن الآخرين على نحو غريب ، فهو أحد منهم ذكاء بكثير ، ولذا اهتم به السيد اهتماما خاصا وقرر أن يتلقى تعليما وافيا في معهد مخصص للعميان . ثم أن بينه وبين ابن السيد آصرة أخوة .

ومن أمامهم بدأت كتلة التلال في الظهور ، وقد أحاطتها الحرارة بهالة على البعد ، ومن فوقها أبراج كنائس القدس وكأنها اكليل يتوج هامتها . وفي المقدمة تراءى «جبل التجربة» بقمته المسطحة وسط أرض تنمو بها أشجار السرو العالية . وفي منتصف الطريق الى قمته تراءى دير الروم الأرثوذكس .

وقالت ماريان بينها وبين نفسها: «ان الرهبان في هذا الدير لابد انهم يشعرون الآن بالانتعاش في حجراتهم المنحوتة في الصخر.. وأما الآذريون (الأقحوان الأصفر) الذي ينمو بين الأطلال فوق القمة فلابد انه الآن ذو لون ذهبي محروق من شدة لفح الشمس».

وكانت قد صعدت هذا الجبل ذات مرة مع بطرس. فقد عقد قرانهما في القدس، ثم ذهبا الى اريحا بناء على رغبتها لتمضية شهر العسل، لأنها أرادت أن تمضي أول أسابيع حياتها الزوجية تحت سقف ذلك البيت الذي اطلق عليه اسم «دار السلام». ففي زيارة سابقة لذلك البيت في صحبة أبيها وقع نظر بطرس عليها لأول مرة، فأبصر فيها ما كانت عازمة باصرار على ان يتبينه لديها من انها المرأة التي تحبه وتريد أن تتزوجه وأنها الزوجة التي يستطيع أن يبني بها بعد أن قضى سنوات من التيه العاطفي منذ هجرته «سرية» زوجته الأولى.. ثم هي فوق هذا وذاك ابنة صديقه الانجليزي الحميم «روبرت ملبي».

ولم تكن امها سعيدة بذلك الزواج، لا لأن بطرس منصور رجل فلسطيني، بل لأنه أكبر من ماريان سنا بعشرين عاما،

ولأنه مطلق. ولكن ماريان كانت مستعدة وهي في سن الثلاثين أن تتزوج أباها، ذلك لأنها كانت تحب بطرس منصور لما فيه من صفات تحبها في ابيها. وكان روبرت ملبي في ذلك الحين ــ قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ــ ناظر مدرسة للعميان من جميع الأديان في (يافا). وكانت تشرف على هذه المدرسة جمعية رعاية العميان في فلسطين، ومركز هذه الجمعية الرئيسي في لندن. وكان بطرس ــ بوصفه من أصحاب الأملاك البارزين في المنطقة ــ عضوا في مجلس الادارة، وكان يبدي اهتماما دائبا بادارة هذه المدرسة وتمويلها، فنشأت بين الرجلين ــ بعد فترة من الميل المتبادل والاحترام ــ صداقة وطيدة.

وخيل لماريان ان الرجلين على الرغم من الاختلاف الكلي بين نشأتيهما يتشابهان في أمور كثيرة، أهمها الاتزان النسبي ورقي الشخصية. وكانت ماريان تعمل في تلك المدرسة مدة خمس سنوات قبل زواجها، فشعرت بجاذبية نحو بطرس منصور كان مبعثها في البداية انه صديق ابيها وشبيه به من وجوه كثيرة، ولانها كانت تقدر اتزانه. أما فورات غضبه فكان يغتفرها لديها ما في طبعه من دفء وسحر، وفطنتها الى ما يعانيه من وحشة

الوحدة، ذلك انه مسيحي من اتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وعليه ان ينتظر سبع سنين كي يحصل على الطلاق. وكانت هذه الفترة قد انقضت وحصل على الطلاق فعلا قبل التقائهما بوقت قليل. ثم انه لم يرزق من زواجه الأول بأطفال، فزاد ذلك من وحدته. وقد بدأت العاطفة عند ماريان نوعا من الشفقة عليه وعلى وحدته. ثم لم تلبث فيما بعد ان سرت لتلك الوحدة لأنها أخلت الطريق أمامها كي تستولي عليه بكليته!

وقد تم زواجهما في سنة ١٩٣٤، وعاشا في بداية حياتهما الزوجية في مزرعته بيافا بين حدائق البرتقال، ثم بعد ذلك انتقلا الى (اللد). وقد ولد ابنهما انطون الذي أسمياه على اسم جده لأبيه في السنة التالية.

وكان بطرس وطنيا متحمسا ونصيرا مكافحا للقوى التي تعمل على حصول فلسطين على استقلاله. وكان صديقه روبرت ملبي يعطف على آرائه هذه أشد العطف، الى حد ان رؤساء «ملبي» في مقر الجمعية بلندن كانوا يعتبرونه منغمسا في السياسة أكثر مما ينبغي.

وبعد تبادل المراسلات بين لندن ويافا قررت الجمعية

استدعاء «ملبي». وقد راد عناده الذي لا يلين من حرجهم وضيقهم به. ولم يحنق عليهم لذلك الاجراء بل عذرهم فيه، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن مستطيعا ان يصنع غير ما صنع، وهذا هو شعوره الحقيقي نحو المسألة الفلسطينية.

وكانت ماريان تعلم ايضا على نحو ما ان اباها قد سر بمغادرة فلسطين — رغم حبه العميق لها — ذلك ان أكثر من صديق واحد من أصدقائه العرب شنقوا بسبب نشاطهم السياسي، (وفاقا للسياسة البريطانية في فلسطين يومئذ)، مما جعل الموقف في نظره لا يطاق. وكانت عودته الى انجلترا في سنة ١٩٣٨.

وبقيت ماريان بعد ذلك مع زوجها وطفلها في اللد. ولم تتأثر تأثرا ماديا كبيرا بالحرب العالمية عند اندلاعها، ولكنها كانت شديدة القلق والتوجس بسبب وجود قاعدة حربية انجليزية غير بعيدة من اللد في (صرفند). فكانت طائرات الأعداء تحلق فوقها، فتنطلق صفارات الانذار بالغارات الجوية ويهرع الناس الى المخابىء العامة. ولكن آل منصور وخدمهم كانوا يمكثون في بيتهم معتصمين بلون من الايمان بالقدر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي الصيف كانوا يتوجهون الى رام الله فيقيمون في بيت يستأجرونه لذلك الغرض. أما في الشتاء فكانوا يذهبون احيانا الى اريحا. وذهب انطون الى مدرسة في اللد. وكان المفروض دائما انه عندما يحين الأوان سيذهب الى مدرسة الأصدقاء الأمريكية في رام الله، وهي مشهورة لدى الجميع بأنها خير مدرسة في فلسطين. ولكن عندما جاء ذلك الأوان كان العام هو ١٩٤٨.

وربيع سنة ١٩٤٨ هو ربيع النكبة. وتلت ذلك في شهر «مايو» أيار الحار معركة القدس!

○

وكانت بلدة اريحا الصغيرة خالية من العلامات الدالة على الحرب. فالشارع الرئيسي الضيق الكثير المنحنيات تظلله اشجار صغيرة يجلس تحتها الرجال على كراسي منخفضة فوق الرصيف، أمام مقاه مفتوحة الأبواب على مصاريعها، وأجهزة الراديو يلعلع صوتها من واجهات الدكاكين المفتوحة. والحمير المحملة فوق طاقتها تسير في تكاسل كالمعتاد. وعلى أبواب بعض الحوانيت يقف المسنون من الرجال وفي ايديهم مسابحهم الطويلة يحركونها

وهم يتمتمون. والنساء يتخطرن حاملات فوق رؤوسهن جرار الماء، وصغار الأطفال متعلقون بأذيالهن.

ومضت السيارة البويك السوداء ببطء في الشارع الرئيسي لتشق لها طريقا بين الناس والحمير وعربات اليد الصغيرة وعربات الجر والكلاب الضالة، الى أن وصلت حيث يتشعب الطريق الى حارات ضيقة تمر بين مجموعات من اشجار النخيل ونبات الجهنمية الذي يكسو أسوار الحدائق.

وانعطف الطريق عند احد اركان «جبل التجربة» ثم وقفت السيارة عند بوابة من الحديد المنقوش، وبرز رجل رث الثياب من جوف خص تكاد تخنقه أوراق الموز الكبيرة، فحيى وفتح البوابة.. ومرقت السيارة في ممر ممهد تزدحم على جانبيه اشجار النخيل والسرو والجزورينا، صوب بيت مربع ذي نوافذ بيضاء له شرفة عريضة في طابقه الأول من الجهة المطلة على الجبل. وكانت ثمة غوطة برتقال على أحد جانبي الممر، اما الجانب الآخر فحافل بأشجار الورد والأزاهير.

وصعدوا سلالم قليلة الارتفاع الى شرفة ذات أعمدة، بها باب من الزجاج يفضي الى داخل البيت. وكان رجل داكن البشرة

حافي القدمين يرتدي حلة متكسرة من التيل الأبيض ينسق منضدة على تلك الشرفة، فلما أبصر السيارة اعتدل في وقفته وثبت في مكانه كأنه جندي في حالة انتباه. فلما برز سيده من السيارة رفع يده بالتحية، فحياه بطرس وناداه باسمه، فابتسم وأخذ يرحب بقدوم الأسرة وهو متهلل الأسارير.

وبعد قليل سأل سيده عن الأحوال في اللد ـــ فقد تراءت الى اسماعهم حكايات رهيبة ـــ ثم اعد مقاعد مصنوعة من القش لجلوسهم.. وبعد بضع دقائق جاء بأشربة حلوة وثلج وزجاجة ويسكى فوضعها فوق المنضدة بجوارهم.

ها هم آل منصور قد باتوا أخيرا في دارهم.

وكان الجو حارا جدا، واسرع يوسف فأتى بمروحة وضعها فوق منضدة اخرى بالقرب من الموضع الذي جلسوا فيه، فهبت عليهم منها أنفاس هواء ساخن. ولكن الهواء المتحرك اسهل في التنفس من الهواء الساكن الذي يكاد يزهق الانفاس. ووضعوا كلهم اقدامهم المتورمة والمهرأة فوق مواطىء خشبية، وتركوا الاسترخاء المريح يسري في اطرافهم وأوصالهم.

وكان انطون مشوقا الى اكتشاف الغابة الصغيرة المتروكة

على الفطرة في الحديقة ــ وهذا دأبه دائما بمجرد وصوله الى هنا ــ بيد ان قدميه كانتا تسببان له الما شديدا، فما يتلقى في مقعده المصنوع من القش وهو يتساءل في قلق متى سيكون في مقدوره أن يذهب سائرا على قدميه الى البحر الميت.؟.

وبعد قليل خطر له ان يستعير دراجة من دراجات الخدم. ولكن واجهته مشكلة «أمين». ولم يكن الشوط بعيدا غاية البعد اذا ما سلك المرء طريقا مختصرا عبر الصحراء، الا ان على المرء في هذا الأوان من السنة ان يحذر من التعابين والعقارب ذات اللدعات المسمومة. وكانت هذه الفكرة في حد ذاتها كافية لاضفاء التشويق الكافي على مشروع الرحلة.

وسأل انطون أباه وقد استولت عليه اللهفة فجأة:

ــ هل نعود الى رام الله عندما يصبح ذلك مأمونا؟

فقال له ابوه:

ــ ستذهب الى المدرسة هناك في الخريف اذا غدا كل شيء على مايرام. اما امك وأنا فسنمكث هنا.

ولم يشأ ان يضيف الى ذلك قوله:

ــ الى ان تتسنى لنا العودة الى (اللد)!

ولكن.. أين جيش التحرير الكبير الذي سيرد اليهود على اعقابهم ويلقي بهم في لجة اليم؟.. ان ما مر به من المحنة جعله لا يؤمن بوجوده في الوقت الحاضر على الأقل!

وفجأة ايضا عاد انطون يسأل اباه:

ــ هل في مقدورنا أنا وأمين ان نذهب فنقيم معسكرا عندما تتحسن حالة أقدامنا؟

فأجابه أبوه قائلا:

ــ ينبغي ان ننتظر الى ان نتبين ماذا يحدث في (لطرون) وفي القدس. فان استولى اليهود على القدس فلن يقفهم شيء عن التدفق صوب الجنوب. علينا أولا أو ننتظر ما ستتمخض عنه الأيام القلائل المقبلة.

— ٧ —

طال غياب «نصري دجاني» ــ زوج نادية ــ الى مدى لم يكن يتوقعه احد.. الى ان اطلق سراحه من معسكر الاعتقال مع غيره من الرجال الذين في سن الخدمة العسكرية بمنطقة اللد والرملة وفي وقت واحد تقريبا، وهو أواخر شهر أكتوبر «تشرين ثاني». وفي خلال الاشهر الثلاثة التي انقضت بين الاحاطة بتلك المنطقة وبين اطلاق سراح نصري، حدثت أمور كثيرة جدا بعد مسيرة الخروج الكبرى من اللد:

فما ان انقضت ستة ايام على سقوط اللد حتى أوقف الزحف اليهودي عبر السهل الساحلي الى (لطرون). وقد تمكن من ايقاف هذا الزحف جنود فصيلة واحدة من الفصيلة الثانية

من الفيلق العربي، مستخدمين مدفعا واحدا لاغير ركبوه فوق سقف مبنى الشرطة.

وكان اليهود قد اعدوا العدة لزحفهم، ففضلا عن العدد الضخم الذي كتلوه من المشاة على اتم الاهبة للهجوم، كانت هناك خمس سيارات مدرعة، ومع ذلك قضى المدفع العربي الأوحد على المدرعات الخمس، ولم تستطع قوات المشاة ان تتقدم خطوة واحدة..

وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم المشهود بدأ التطبيق الرسمي للهدنة التي قررها مجلس الأمن، وهي اعلان الهدنة التي عرفت باسم «هدنة اطلاق النار!!» سحرية بنلك الانفجارات التي لم تكف عن الصدور بعد تلك الهدنة وتطبيقها من جانب القوات الاسرائيلية التي تستخدم المدافع الرشاشة، ومن جانب المتسللين ــ افرادا ودوريات وقناصة يتربصون الفرص للغدر ــ حتى فقدت هذه الهدنة حرمتها وانقلب معناها فحق عليها ان ينقلب اسمها ايضا. وتوجه الكونت برنادوت الى القدس للتباحث في الوسائل الكفيلة بتحقيق الفاعلية المطلوبة للهدنة.

وفي ذلك الوقت كان الجيش المصري يدافع عن قطاع غزة . أما الجيش العراقي فكان في شمال الأردن .

وما أن حان شهر اغسطس (آب) حتى كان اربعون الفا من اللاجئين قد ضربوا خيامهم تحت اشراف شرطة شرق الأردن على جوانب التلال المحيطة بأريحا بجوار مجرى ماء .

وفي شهر سبتمبر (ايلول) اغتيل الكونت برنادوت في القدس بيد الارهابيين اليهود من عصابة (شتيرن) .

وفي اكتوبر (تشرين الأول) كان الاسرائيليون قد حصلوا على اسطول جوي جديد كل الجدة هرب اليهم من تشيكوسلوفاكيا ، فاستخدموا هذه الطائرات الجديدة القوية في ضرب القواعد العسكرية المصرية في منطقة غزة بالقنابل . . واخترقت قواتهم البرية الخطوط المصرية فاستولت على (حليقات) من جهة الغرب وعلى (بئر السبع) من جهة الجنوب ، وعلى (بيت حانون) الى الجنوب من حليقات . وحوصرت في (الفالوجا) حامية مصرية يبلغ تعدادها نحو ٢٥٠٠ رجل .

وكان الذي يتولى قيادة احدى فرق المشاة في ذلك القطاع

ـــ قطاع غزة ـــ الذي تعرض للاشتباك مع اليهود، ضابط مصري شاب اسمه جمال عبد الناصر.

وفي ٢٢ اكتوبر (تشرين الاول)، وهو اليوم التالي لسقوط (بئر السبع)، وقف اطلاق النار رسميا. وفي تلك الاثناء كانت الكتائب الاسرائيلية تتحرك هابطة من (عرقوف) جنوبي (لطرون) متجهة صوب (حبرون) جنوبي اريحا. وكذلك وجه الفيلق العربي بعض قواته جنوبا، وتم انقاذ حبرون على يد الفيلق العربي الذي استطاعت دورية استطلاع مكونة من سبع سيارات مسلحة من قواته ايقاع طابور اسرائيلي مكون من ثلاثين سيارة مسلحة في كمين نصبته له.

وعلى اثر ذلك اقام الفيلق العربي مراكز دفاعية اسفل قرية (الظهيرية) جنوبي حبرون بقليل، على الطريق الى بئر السبع.

وفي ٣١ اكتوبر اذاع مراقبو هيئة الأمم المتحدة ان الاسرائيليين قاموا بمذبحة قتلوا فيها ثلاثين امرأة وطفلا من العرب في قرية غربي حبرون اسمها (الدوايمة).

○

وكانت نادية هي التي ابلغت نصري في النهاية نبأ اعتداء ذلك الجندي الاسرائيلي عليها، وكانت حاملا في شهرها الثالث وصحتها معتلة جدا.. بل انها كانت ايضا على شفا الانهيار نتيجة للتوتر العصبي الطويل.

وقبل ذلك كان أبوها قد صحبها الى طبيب فحصها وقرر انها حامل، بيد انه رفض ان يضع حدا لذلك الحمل بغير موافقة الزوج، اذ ليس من المحقق حتما ـ على حد تعبيره ـ أن الحمل حدث لها من ذلك اليهودي. وعبثا حاولت ان تبين له استحالة أن يرغب نصري في استمرار ذلك الحمل الى ان تضع طفلا قد لا يكون من صلبه. فمجرد الشك هنا كاف للكراهية والرفض. ولكن الطبيب اصر بعناد على انه يجب أن يستوثق من الأمر، من نصري نفسه!

وصاحت نادية بضراوة:

ـ ولكن من يدري متى سيعود؟

وتوسل اليه فريد:

ـ نحن لانجرؤ على الانتظار الى أن يعود. لأن الأوان المناسب ربما يكون قد فات للاقدام على أي عمل عندئذ!

بيد ان الطبيب لم يتزعزع عن رأيه . وبعد مزيد من التفهيم والرجاء ، قال اخيرا :

ـــ لم يزل في الوقت متسع . واذا لم يعد زوجها في مدى شهر ، أعدكما بأن أنظر في الأمر مرة أخرى .

وبعد شهر الا قليلا ، عاد نصري !

وكان ذلك الطبيب نفسه قد خلص الخادمة «رندا» من حملها ، كما خلص من الحمل فتاتين لاجئتين فلسطينيتين جاء بهما أبواهما . وكانت احداهما قد افتضت بكارتها واغتصبت أمام عيني أبيها ! .. ولم يكن هذا الطبيب هو الطبيب الفلسطيني الأوحد الذي تحدى القانون على هذه الصورة في تلك الفترة ، مستريح الضمير ، ليمحو بعض آثار الفظاعات الاسرائيلية المقززة .

وكانت نادية طيلة ذلك الوقت تعاني من الغثيان باستمرار ، وتتلهف على عودة زوجها ، وان اشفقت جزعا من تلك العودة ! ... ثم فجأة ، وبغير انذار سابق ، عاد نصري . عاد قذرا أشعث ، رث الثياب ، منهك القوى لأنه مشي معظم الطريق من اللد الى رام الله . وكان شاحب اللون هزيلا بسبب ما فقده

من وزنه ــ وكان لا يقل عن عشرين رطلا ــ وكانت اعصابه غاية في التوتر .

ونصري دجاني شاب كانت الحياة خفيفة العبء عليه جدا ، الى أن حدثت كارثة تقسيم وطنه . فأبوه ثري كريم متساهل ، وله زوجة جميلة شابة وطفلان ، وهو متعلق بثلاثتهم تعلقا شديدا ، وعاش معهم عيشة طيبة راضية هينة في قصر الأسرة بيافا . ولما بدأ القتال في تلك المنطقة في شهر مايو « ايار » هرب بأسرته من يافا الى دار أصهاره آل منصور في اللد .

وكانت هذه الهجرة نهاية شبابه اللاهي غير المكترث . ومع ذلك كان الشاب الذي اعتقله الجنود الاسرائيليون في منتصف يوليو « تموز » يتمتع بشيء من الخفة والمرح في سلوكه ومظهره . أما نصري دجاني الذي دخل رام الله أشعث اغبر أعرج في نهاية اكتوبر «تشرين الاول» ، فكان يبدو أكبر سنا من حقيقته بكثير ، وحول فمه خطوط لم يكن له بها عهد من قبل .

ولكن هذا كله لايمنع من اعتبار نصري احد المحظوظين من حيث انه كان يعرف أين يبحث عن اسرته بعد اجلاء أهالي

غزة عنها ، اذ كان المفهوم دائما انهم سيتوجهون الى بيت داود في رام الله اذا اضطروا لمغادرة (اللد) .

ولم يكن يعذبه في الحقيقة الا عدم معرفته كم منهم لم تقتله محنة الخروج من اللد الى البرية ، وما الذي حدث لزوجته وطفليه ووالديه وسائر أفراد أسرته . فظل طوال الطريق يهذي يتخيل ماقد يجده في انتظاره من أنباء الفواجع عندما يصل الى رام الله . وكلما وقع نظره على حشود اللاجئين المعسكرين في كل مكان شعر بالدم يغلي في عروقه لما هم عليه من التعاسة والضياع .

أما الشارع الذي تظلله اشجار السرو ، وهو الذي كان يطلق عليه البعض احيانا اسم شارع العشاق ــ لما تلقيه ظلال تلك الاشجار من الظلمة على أركانه في المساء ــ فهو الآن قد صار بحق شارع اللاجئين ، وكانت موجات من التعاسة البشرية تفيض عنه فترتطم ببوابات داود ، بل وتتسرب الى حديقته ذاتها .

وعندما انعطف نصري الى الشارع ، تحت رعاية الخادمة رندا ، استطاع أن يبصر طفليه يلعبان قرب البيت ، فأطلق صيحة ، واقبل الطفلان يجريان ويطلقان صيحات الدهشة

والسرور. أما الفتاة الخادمة فأجفلت وولت الأدبار صاعدة السلم، واجتازت البهو مارقة كالسهم الى داخل الدار.

وبعد لحظة عادت مع نادية، يتبعهما والدا نادية. وفطن نصري الى وجود ماجدة وفريد، ولكن عينه لم تبصر حقا سوى زوجته وقد ارتدت ثوبا ابيض له حزام أحمر، وهي تجري هابطة السلالم بصعوبة.

○

وبعد موجة المعانقة والترحيب والاستفسارات والاطمئنان على أبويه اللذين عرف الآن انهما يقيمان في دارهما بالقدس، توجه نصري أولا الى الحمام حيث اغتسل وبدل ثيابه. وكان الحمام قد اعد له على عجل، وأمده خليل بالثياب، بينما انتحت حماته ماجدة جانبا بابنتها نادية، في اضطراب شديد ـ أثناء وجوده داخل الحمام ـ وقالت لها:

ـ عندما يخرج من الحمام سيكون عليك ان تذهبي اليه في حجرة النوم. فماذا انت مزمعة ان تفعلي؟ ماذا ستقولين له؟

فأجابتها نادية:

ــ الحقيقة طبعا. فأنا لا أشعر الآن، وقد عاد، بأدنى خوف، لأنه عانى بنفسه تجربة قاسية على يد اليهود، ولذا سيفهم الموقف. وأنا واثقة أنه سيذهب معي الى الطبيب.

فقالت لها امها في قلق:

ــ وكيف يمكنه أن يقطع برأي؟ قد يداخله عندئذ الخوف من أن يكون ذلك الجنين من صلبه؟!

فردت عليها نادية بثقة:

ــ انه لن يترك شيئا للمصادفة. لن يجرؤ على ذلك. فهزت امها رأسها بارتياب وقالت:

ــ ليس في وسعك ان تجزمي بذلك. فللرجال طبائع غريبة. وقد يثيره النبأ فينقلب عليك. ماذا ستفعلين اذن؟

فقالت نادية بمرارة:

ــ سأنتظر! اليس هذا ما فرض علينا نحن الفلسطينيين ان نجيده؟

وتنهدت ماجدة، ثم نهضت قائلة لها:

كان الله معك. سأصلي من اجلك.

وكان هذا الحديث قد دار خارج البيت في الشرفة.

ونهضت نادية بدورها وتبعت والدتها الى داخل البيت ، فتوجهت ماجدة صوب المطبخ ، بينما صعدت نادية الى الطابق الأول .

ولم يلبث ان خرج نصري من الحمام مرتديا عباءة حريرية من عباءات خليل ، فبدا في عيني زوجته ــ بعد ان حلق لحيته ــ اقل شحوبا وهزالا . ومرة اخرى احست بمبلغ وسامته ، فازداد خفقان قلبها وتوجسها .

وقال لها نصري يطمئنها باسما :

ــ ها قد اصبحت انسانا جديدا .

ودلفا الى حجرة النوم معا ، وادار نصري المفتاح في الباب ، ثم اخذها بين ذراعيه وقال لها ببساطة :

ــ ما أطول واشد ما اشتقت اليك ! لن تصدقي مهما قلت لك ! وعندما ابصرتك تهبطين السلم وتجرين على ارض ممر الحديقة المفروشة بالحصباء الملونة لتستقبليني ، شعرت انك احلى واشهى من أي وقت مضى ! .

وتبادلا قبلات عميقة ، وسمعت قلبه يدق دقا عنيفا . ولما بلغت القبلة الحارة ختامها المحرق شرع يجذبها برفق صوب

الفراش، ولكنها ابتعدت وقد اكفهر لونها اكفهرارا شديدا وقالت له بصوت أجش:

ـ نصري! عندي ما أقوله لك. وانه لرهيب!

وفي هذه المرة كان الخفقان العنيف صادرا من قلبها هي.. وحملق فيها منتظرا. ولما لم تتكلم، سألها وقد اعتراه الخوف فجأة:

ـ ما الخبر؟

عندما اعتقل جميع الرجال في ذلك اليوم المشؤوم، جاء جنديان يهوديان الى البيت وطلبا ماء ليشربا. وقال انهما من (الهاجاناه). ونزلت اليهما «رندا» بالماء، فجرها احدهما قسرا..

وتوقفت عن الكلام. وراح ذهنها ينقب عن الالفاظ المناسبة للتعبير عن بقية المأساة. ووقفا برهة ينظر كل منهما الى الآخر بعمق وفزع، ثم أشاحت نادية بنظرها عنه كي تجد في نفسها القدرة على مواصلة الكلام:

ـ جرها قسرا الى داخل حجرة. وسمعناها تصرخ، فأسرعت أنا وماريان نهبط السلالم لنجدتها. وعندئذ.. عندئذ قبض الجندي الآخر عليّ عنوة!

ونظرت اليه مرة أخرى، في يأس.. وبعد قليل قالت بصوت مرتجف حاد:

ــ لقد قاومت وناضلت، ولكنه كان شابا وكان قوي البنية جدا..

وفجأة استطردت من غير مناسبة أو اتصال بما قالت آنفا:

ــ انه لبناني امريكي.

واستمر يحملق فيها من غير ان يتكلم. وفجأة انفجرت براكينها، وصرخت فيه قائلة:

ــ لاتنظر اليّ هكذا! لم يكن الذنب ذنبي! ألا تصدقني؟ انا الآن حامل في الشهر الثالث، ويكاد الجنون يطبق عليّ من فرط القلق والانزعاج! يجب علينا ان نفعل شيئا لمواجهة هذه النكبة. وثمة طبيب مستعد اذا وافقت أنت.. اذا ذهبت معي اليه أن...

وترنحت ثم هوت على الفراش وهي تبكي بكاء هستيريا.

وظل نصري واقفا يحملق فيها. وفجأة شعر ببرودة شديدة تسري في أوصاله ــ مع ان اليوم كان حارا ــ فارتجف وجمع عباءة

خليل حول جسمه فحرره ذلك التصرف من سباته، واتجه نحو السرير وجلس عليه بجوارها، ولكنه لم يلمسها.

وبعد برهة صمت قال لها:

ــ لقد كان من رأيي دائما انه ما من امرأة يمكن ان يغتصبها رجل بغير ارادتها. فكيف يمكن لرجل ان ينال وطره من امرأة ان هي ثابرت على الرفس والمقاومة؟ أنا شخصيا لم أفلح في ذلك، فلماذا يستطيعه هذا اليهودي؟

فرفعت رأسها عن الفراش وحملقت فيه مدهوشة وقالت له:

ــ ألا تصدقني؟ ايخطر ببالك انني من الممكن ان اسلم نفسي لجندي يهودي على هذا النحو بمحض ارادتي؟ لقد كانت «رندا» في تلك الحجرة ذاتها في ذلك الوقت. وفي وسعك ان تسألها. رن الجرس ارسل في طلبها!

ولما وجدته لا يحرك ساكنا حاولت ان تتحامل على نفسها وتغادر الفراش كي تصل الى زر الجرس بجوار الباب. ولكنه امسك بمعصمها وقال لها:

ـ لا ! أنا اصدقك . طبعا أنا مصدق ما قلت ! لكنه شيء رهيب جدا ! زوجتي أنا يعتدي على عرضها رجل .. ورجل من حثالة اليهود ! يا الهي ! .

ودفن وجهه في راحتيه ، ثم نظر اليها في اشفاق وقال :

ـ في تلك الليلة الأخيرة قبل أن يأخذوني .. كان ما تعلمين بيننا . فمن الجائز أن يكون هذا الحمل مني .

فهتفت في حنق :

ـ ولكننا لا نستطيع أن نعلم . ولا يمكننا ان نقطع برأي على وجه اليقين . يجب ان نذهب الى الطبيب يا رجل ! وبسرعة ! أنا الآن في الشهر الثالث !

ومدت يدها فلمست وجهه الشاحب وقالت :

ـ نصري ! شد ما اشتقت اليك ! شد ما اشتقت الى اجتماع شملنا من جديد ..

فتناول يدها تلك وضغطها على صفحة خده وقال :

ـ أنا ايضا كنت شديد الشوق اليك . ولعل شوقي اليك كان أشد من شوقك أنت اليّ .

وقبل باطن يدها ، ثم فجأة نهض وثارت مراجله :

ـــألم يكف اليهود ما صنعوه بنا، وقد اغتصبوا وطننا وديارنا وأراضينا؟ هل كان لابد لهم ان يغتصبوا نساءنا أيضا؟!.

واتجه عبر الحجرة الى مائدة الزينة ففتح صندوق سجائر استخرج منه سيجارة فأشعلها. ثم قال بعد أن جذب نفسا منها:

ـــوهو كذلك. سنذهب الى الطبيب وسيجهضك. وبعد ان اطمئن على سلامتك سأتوجه الى عمان وانخرط في سلك الفيلق العربي. فهم بحاجة هناك الى الرجال. واذا واتاني الحظ سأقتل بضعة من اليهود قبل ان ينتهي القتال!

وبعد لحظة سألها:

ـــوماذا حدث لرندا؟

فأجابته نادية:

ـــاجهضها الطبيب. ولكن الشاب الذي كان على وشك الزواج منها يقول الآن انه لاسبيل الى ذلك الزواج بعد ان فقدت بكارتها. فأسرته من الفلاحين المتزمتين، ومن تقاليدهم ان يرقصوا ليلة الزفاف بالمنديل المخضب بدم بكارة العروس على

دقات الموسيقى. وحيث انه لا دم هناك لتخضيب المنديل فلا عرس ولا زواج!

فزوى نصري ما بين حاجبيه وقال:

ــ ان التدليس في هذه الأمور مستطاع وميسور. فهناك أكثر من وسيلة لتلطيخ منديل العرس بالدم!

فأجابته نادية:

ــ اعتقد انه زاهد في الزواج منها الآن. لأنه سيتذكر كلما اجتمع بها ذلك اليهودي الذي سبقه اليها فكان اول من عرفها!

وازداد تقطيب نصري ولم يتكلم. وعاوده الشعور بالبرد وارتجف، فقال لها:

ــ الأفضل ان البس ثيابي. فاني أشعر بالبرد بعد الحمام الساخن. ساعديني على اللبس.

فنهضت نادية عن الفراش وتوجهت الى مائدة الزينة حيث مررت المشط في شعرها، ثم قالت بتبلد:

ــ ينبغي ألا تصاب ببرد. ها هي الثياب المعدة لك. وسأمضي أنا الى المطبخ لأرى ماذا يعدون للغذاء..

○

وبمجرد ان استطاعت ماجدة الظفر بابنتها في خلوة بعيدا عن المطبخ المزدحم، سألت نادية بقلق:

ــ هل كل شيء على ما يرام؟

فقالت لها نادية بشرود:

ــ نعم. وسنذهب معا الى الطبيب.

فسكتت امها برهة ثم سألتها:

ــ ولكن من جهة اخرى، الم يخنقه ذلك عليك، الم يحملك وزر ما حدث؟

فبادرت نادية تقول لها:

ــ لا، مطلقا!.

بل واستطاعت نادية، زيادة في طمأنينة أمها، ان تحمل شفتيها على الافترار عن ابتسامة صغيرة. وعندئذ تمتمت ماجدة:

ــ اشكرك اللهم! ما اكرمك يارب!.

ثم التفتت الى ابنتها وقالت لها:

ــ هكذا اقول دائما لأبيك. ولكن أباك يأبى دائما ان يصدقني وان يؤمن برحمة الله!

ـ ٨ ـ

أُعدت مأدبة خاصة في ذلك المساء احتفالا بعودة نصري من المعتقل اليهودي. ولم تكن مأدبة فاخرة كمآدب الأيام الخوالي، لأن النقص في الأقوات بمدينة رام الله كان شديدا جدا بسبب ضغط اللاجئين وحالة الحرب ــ برغم توقف العمليات العسكرية ــ ولكن الحمل المشوي التقليدي قدم صحيحا على المائدة بأكمله، بما في ذلك الرأس، فوق وسادة ضخمة من الأرز المحمر بالمكسرات..

واتصلت «منى» تلفونيا بدار السلام ــ في مدينة اريحا ــ كي تدعو بطرس وماريان لحضور ذلك الحفل، ولكن بطرس لم تكن صحته على ما يرام، فقد عاودته علة قلبه القديمة كما قال لأخته. وركب خليل سيارته الى القدس ليأتي بوالدي نصري وبقية

الأقارب الذين يعيشون في القدس والأماكن المحيطة بها ، ولم يكن يشارك اصهاره في تخوفهم من دخول المدينة المقدسة .

وكان رجال الفيلق العربي بعقالهم الأبيض والأحمر يقفون أمام تحصينات أسوار المدينة القديمة التي ترجع الى القرن السادس عشر . وكان من الضروري ان يتجنب خليل الدخول من بوابة دمشق ، لأن كنيسة النوتردام التي تقع تجاهها ــ والتي دمرتها المعارك ــ لم تزل في أيدي القوات الاسرائيلية التي تسلط المدافع الرشاشة على تلك البوابة من نوافذ الكنيسة . وهي منطقة مشهورة ايضا بكمون القناصة فيها . واولئك القناصة يشكون السأم ، ولذا يسلون انفسهم بتذكير المدنيين العرب بأنهم مازالوا هناك ، بتوجيه القذائف اليهم عندما يمرون في الر- ة "ي امام البوابة ، ضاربين بالهدنة عرض الحائط !

وسلك خليل الطريق المار أمام المتحف الى حي الشيخ جراح شمالا ، ثم ادار راديو السيارة على محطة اسرائيل التي كان يصغي لاذاعتها ــ في اهتمام ممزوج بالألم ــ بضع مرات في كل يوم . واذا صوت رجل ، وان كان صوتا ناعما ، يتكلم العربية الفصحى معلنا ضرورة الاستيلاء على (العقبة) ، الميناء الواقع على

الخليج المعروف باسمها عند رأس البحر الأحمر، وفي الجنوب الاقصى من (النقب)، وهي المنطقة التي منحها لليهود مشروع التقسيم الذي اقرته هيئة الأمم المتحدة.

وما ان سمع خليل ذلك حتى اغلق الراديو حانقا. فالعقبة آخر منفذ لشرق الأردن على البحر الأحمر بعد أن اغلقت في وجهها موانىء فلسطين المسلوبة على البحر الأبيض. واستمر خليل في طريقه بسيارته الى ان وقف على طريق رام الله عند فيلا حديثة مزخرفة يقيم بها والدا نصري مع نفر من ذوي قرابتهم الأدنين. وكانت الشمس قد جنحت للغروب في بهاء اخاذ القى اشعته القرمزية المذهبة على القباب والمآذن وابراج الكنائس الضاربة في سماء القدس..

○

ساء منى من أخيها الأكبر بطرس ان يعتذر من عدم القدوم الى رام الله تلبية لدعوتها، كما ساءها منه قبل شهور ان يرحل الى اريحا غداة وصوله من اللد. وكانت واثقة انه رفض الحضور لأنه لا يريد ذلك، لا بسبب توعك صحته كما قال.

والحق انه لم يحبب «خليل» في أي يوم من الأيام. وهو الآن حانق عليه لأنه لم يمسسه اذى أو خسارة من تلك المأساة الوطنية الفلسطينية.

ولم يخفف من حدة غضبها ما اكده لها اخوها فريد أشد التأكيد من أن بطرس تأذت صحته كثيرا جدا منذ تلك المسيرة الوحشية من اللد عبر البرية. وقالت له ردا على ذلك:

ــ من عادة بطرس ان يدعي المرض او التوعك كلما وجد في ذلك ما يوافق هواه. ان حالة قلبه ليست من السوء كما يدعي، فقد مكنته من تحمل تلك المسيرة بكل مشاقها، حيث هلك فيها كثيرون لايدعون مثل علته. انه يريد دائما ان يفعل ما يحلو له، ويأبى ان يفعل ما لارغبة له فيه!.

والواقع انها كانت شديدة الغضب عليه لأنها تحبه أشد الحب، ولأنه آذى شعورها.. ولكن «فريد» كان على عكسها شديد القلق على صحة اخيه بطرس، وقرر ان يذهب لزيارته والاطمئنان عليه بمجرد الفراغ من مشكلة نادية والاطمئنان على صحتها ومصيرها. ولعله يتمكن من الذهاب الى هناك في عطلة

آخر الأسبوع مع انطون الذي دخل مدرسة الأصدقاء الامريكية منذ سبتمبر «ايلول»، ولذا فهو يعيش معهم في رام الله.

أما نصري فقد اسعده كثيرا ان يرى ابويه. ولكن فيما عدا ذلك لم يأبه كثيرا سواء حضر بطرس منصور أو غير بطرس منصور أم لم يحضروا. بل انه في الظروف الدقيقة التي يجتازها كان يفضل الا تقام حفلة على الاطلاق بمناسبة قدومه.

اجل انه عاد الى اهله بعد غيبة طال امدها وساوره وساورهم فيها القلق، ولكن رجوعه الى زوجته وطفليه لم يتمخض عنه تحقيق حلمه الذي عاش فيه تلك الشهور الثلاثة، بل الفى نفسه يعيش في دوامة كابوس مروع صار يتمنى الخلاص من عذابه لينطلق بعيدا مرة اخرى.. بعيدا الى عمان، حيث يتدرب في صفوف الفيلق العربي، ثم ينطلق الى أي مكان يوجهونه اليه، بشرط ان يتمكن من مقاتلة العدو.. فيقتل ويقتل!

وكانت نادية فاتنة جدا بشعرها الفاحم الغزير ووجهها الشاحب البيضاوي وعينيها الواسعتين. كانت جميلة في عذوبة. ومع ذلك فانه كلما نظر اليها الآن تذكر على الفور ذلك الجندي اليهودي الشاب وهو يتحسس بدنها البض، ويلقي بجسده فوق

جسدها، وينالها، ويقضي لبانته القذرة منها. يتذكر هذا فتغلي دماؤه ولا يفكر في شيء سوى الانطلاق. الانطلاق ليقتل ويشفي غليله بسفك دماء السفاحين!

ولكم قال لنفسه انها تعذبت اكثر مما تعذب بتلك التجربة الرهيبة، وان من واجبه ان يرحمها ويرثي لها، وان يمتلىء قلبه ويفيض حبا لها وحنوا عليها. ولكن سائر هذه المشاعر كانت قد ماتت لديه، ولم يعد في مقدوره أن يشعر بشيء اللهم الا هذه الغيرة الوحشية، والا الجمود القطيع في جوانحه وعواطفه الرقيقة.

انه يتمنى الآن ان تنتهي هذه المأدبة، لأن قلبه عاجز عن المشاركة فيها. ومع هذا فهو مشفق من الليل، ومن رقاده هامد الجسد عاجزا عن التجاوب مع زوجته والاقتراب منها.. وهي الحلوة الجميلة الرقيقة المحبة. انها زوجته وحبيبته وأم أولاده. انها تحبه ويحبها، ولا ذنب لها بل هي مجني عليها. ولكنه لا يستطيع ان ينسى انها عرفت رجلا آخر، وان هذا الرجل ينتمي الى العدو!.

أما انطون فكان مستثار النفس لمرأى نصري مرة اخرى. فزوج نادية ابنة عمه شخصية رومانسية بطولية في نظره. أليس

قد أخذه اليهود الى معسكر للاعتقال وثبت للمحنة وخرج حيا منها وعاد اليهم ليقص عليهم قصته؟!.. ثم انه يعتزم الرحيل لينضم الى الفيلق العربي ويعاون في القاء اليهود في البحر!.. ان انطون لم يزل مؤمنا ــ شأنه في ذلك شأن معظم الفلسطينيين ــ ان القاء اليهود الى البحر أمر محتوم الوقوع. لقد كان طول حياته يحب نصري، ونصري يحبه ايضا. بيد ان نصري الذي عاد اليوم الى رام الله يختلف كثيرا عن نصري الذي يعرفه. انه لم يعد يرسل ضحكاته المرحة أو نكاته ومزاحه وتهريجه. بل انه لم يعد يبتسم ولا يتكلم الا اذا وجه اليه الكلام احد.. وعندئذ يغمغم ببضع كلمات ثم يسكت. لقد اصبح يبدو اكبر سنا من حقيقته بكثير جدا.

واستقر رأي انطون على ان السبب في ذلك ماعاناه نصري على يد الاسرائيليين. ولعلهم عذبوه. وسيكون على مايرام عندما يقضي في البيت فترة من الوقت مع نادية والطفلين.

وبنت عمه نادية ايضا لاحظ عليها اختلافا شديدا منذ جاؤوا الى رام الله. فهي كذلك لا تضحك ولا تمزح، بل ولا تلاعب الطفلين. انها على قول زوجة عمه ماجدة ليست على ما

يرام صحيا، وقد تجرى لها جراحة، وهم ينتظرون عودة نصري كي يذهبوا الى الجراح ليشفيها مما بها.

وفجأة عاد نصري، وشرعت عمته وزوجة عمه في العمل بنشاط، توجهان الخادمات والخدم وتصدران اليهم الأوامر، بل انهما اشتركتا شخصيا في أعمال المطبخ انجازا للوليمة الكبرى. وطار الخبر السار الى جميع الأقارب والأصدقاء، ودعوا للحفلة. الا ما اشبه ذلك بجو الاحتفال بعيد الميلاد.

لقد خيب آمال انطون كثيرا ان والديه لم يتمكنا من الحضور، وانتابه القلق على ابيه الذي لم تكن صحته على ما يرام منذ غادروا اللد. ولكنه عندما قال ذلك لعمته «منى» اجابته متسائلة فيما يشبه الغضب:

ــ وماذا تتوقع ان يكون حاله وقد أصرّ على البقاء هناك في (أريحا) طول الصيف..؟

ثم لم تلبث ان اردفت:

ــ لابد انهما مجنونان.. كلاهما!

ولكنهما لم يكونا مجنونين ــ في نظر الصبي المحزون ــ بل هما شقيان فقط، محطما الفؤاد. وعندما يكون هذا حالك فانك

تحب ان تعتكف في دارك. ودار السلام هي دارهما الحقيقية. فمهما ألح زوج عمته خليل على ابيه قائلا: «ان داري هي دارك!»، في كرم عربي اصيل صادق، فالحقيقة الواقعة ان هذه الدار هي دار آل داود وليست دار آل منصور. وبطرس منصور ـــ كما يعلم ابنه تمام العلم ـــ رجل متعود على الأمر والنهي في داره، وعلى توجيه خدمه وتصريف شؤون بيته على طريقته الخاصة. ولا سبيل الى ان يشعر الا بأنه «ضيف» فحسب في أي دار غير داره، ولو كانت هذه الدار دار زوج شقيقته!

لهذا كله كان انطون يدرك انه من الأيسر والأجدى على والديه ان يظلا في اريحا رغم انخفاضها الشديد ورغم حرارتها الرهيبة في فصل الصيف.

أما هو شخصيا فيفضل الاقامة في رام الله في الوقت الحاضر، بعد ان تغلب على شعوره بالخوف من هجوم اليهود عليها، فهو يحب مدرسة الأصدقاء الامريكية ويزهيه ما يقال عنها من انها خير مدرسة في فلسطين بأسرها.

والحق يقال انه سرعان ما أخلد الى الاستقرار في رام الله، بيد انه شعر بالوحدة والافتقار الى الاصدقاء منذ رحل امين

ليدخل مدرسة العميان في بيت لحم. وكان بطرس قد رتب له هذا المسير. وبعد ذلك صفت علاقته ببنات عمته بمجرد زوال غشاوة الحياء الأولى لدى الطرفين. ولكنه لم يستطع ان يشعر بحرارة الصداقة حتى بالنسبة لمن كانت منهن في مثل سنه. اذ لا يسعه ان يذهب مع فتاة لاقامة معسكر في الخلاء او للسباحة، ولا ان تشاركه في الاهتمام بلعبة كرة القدم. فقصارى الأمر بينه وبين بنات خليل داود علاقة تقوم على التسامح المتبادل، فهن لا يبالينه وهو لا يباليهن. أما موضوع الصداقة فلا محل له فيما بينهم، فلهن دنيا البنات الخاصة بهن، وما ابعد هذه الدنيا عنه وعن تفكيره. فيما يختص بسائر الأمور العملية كان التباعد بينهم تاما على نحو ما يجري به العرف من التفريق بين الجنسين في كنائس فلسطين في ايام الاحد تماما..

وفي وليمة العشاء جلست الفتيات مع زوجة عمه ماجدة ونفر آخر من الفتيات والنساء الى مائدة صغيرة في حجرة ملحقة بحجرة الطعام، لأنه لم يكن هناك متسع للجميع على المائدة الكبيرة، وهكذا بدت الوليمة وكأنها قد قسمت قسمة طبيعية الى فريقي الرجال والنساء. وان كان رأي خليل ــ فيما بينه وبين

نفسه ــ ان هذا من تأثير العرف الشرقي العتيق الذي يأبى الا ان يثبت وجوده..

وجلست نادية بجوار نصري على المائدة الكبيرة، وجلست منى وخليل معا في الوسط. وكان انطون سعيدا بجلوسه الى جوار نصري من أحد جانبيه، والى حوار عمه فريد من الجانب الآخر، وعمه هو أقرب الناس وأحبهم اليه بعد ابيه. وقال الجميع انها لخسارة ان لم يتمكن بطرس وماريان من الحضور.

وقبل ان يدعى الجميع للجلوس الى المائدتين اقبلت على انطون بنت عمته الكبرى ومعها فتاة تمسك بها من يدها، وقالت له:

ــ هذه هي صديقتي «ثريا»، وهي زميلتي في المدرسة. ووالدها هو الدكتور سابا الذي يعرف والدك معرفة وثيقة.

وكان انطون يعتبر تقديمه الى أي انسان، ولا سيما من الجنس الآخر، بمثابة محنة له، بيد انه ارغم نفسه على النظر الى الفتاة وغمغم بعبارة من العبارات المهذبة المتعارف عليها. وبدت له

الفتاة من النوع العادي جدا، ولا تثير اهتماما خاصا، فيما عدا ان اباها يعرف اباه. وسألها انطون على سبيل التأدب:

ــ هل انت من (اللد)؟

فأجابته ثريا قائلة:

ــ لقد ولدت هناك. ولكن اسرتي انتقلت الى هنا بعد ذلك بقليل. وقد حضر والدي ليرى بطرس بك بمجرد ان سمعنا بوجودكم هنا، ولكنكم كنتم قد رحلتم الى اريحا.

فسألها أنطون:

ــ وهل والدك موجود هنا الليلة؟

فقالت ثريا:

ــ لا. فهو الآن موجود في امريكا لحضور مؤتمر طبي.

وعندئذ قالت له بنت عمته في افتخار:

ــ ثريا سوف تدرس الطب.

وضحكت الفتاة في خجل فبدت اسنانها الكبيرة غير المتناسقة، واحس انطون على الفور انها اقرب الى القبح. وسمعها تقول:

ـــ أتمنى ذلك، ولكني لا أدري هل أفلح أم لا..

فقالت صديقتها في ولاء وحماسة:

ـــ طبعا ستفلحين! يجب ان تؤمني بقدرتك وتثقي بنفسك.. قل لها هذا يا انطون!

فقال لها انطون بارتباك:

ـــ نعم. هذا صحيح.

وعندئذ أحس ارتياحا كبيرا اذ اعلن ان العشاء قد اعد، وان على الجميع ان يجلسوا الى المائدة. واثناء تناول الطعام نظرت الفتاة صوب انطون عدة مرات، ولكنها لم تفلح في التقاء عينيها بعينيه!.

وقدم خليل لضيوفه شراب العرق، وشيئا فشيئا حلت عقدة لسان الرجال وانطلقوا في الأحاديث، ما عدا نصري الذي لم يشرب من العرق الا مقدارا قليلا جدا وظل صامتا، وهو الذي كان مجرد وقوع نظره على كأس من العرق كافيا لأن تتألق عيناه ويبدو عليه ان مجرد مداعبة رائحة ذلك الشراب لأنفه تبهج قلبه وتثمله!.

وشرب الرجال نخبه، متمنين له استعادة العافية

والانشراح ، مرحبين بعودته ، راجين له التوفيق في القتال مع الفيلق العربي ، وان يعود سريعا الى بيته في يافا . وكان في كل مرة يقول لهم : « شكرا » ثم ينحني لهم انحناءة يسيرة ، وهو مجفل بعض الشيء ، كمن كان في سبات ثم لكزه احد فأيقظه فجأة ! .

واخيرا بلغت الوليمة ختامها . وكانت الوان الطعام الكثيرة موضوعة كلها على المائدة في وقت واحد . وانتقل الجميع على الأثر الى حجرة فسيحة صفت فيها المقاعد والأرائك حول الجدران ، فجلسوا من تلقاء انفسهم في فريقين ، كل جنس في ناحية ، وقدمت القهوة التركية الفواحة بما خالطها من بذور « الهال » في فناجين صغيرة ، ووضعت النرجيلات الى جوار من يدخنها من الرجال ، فجعل ماؤها يرسل فقاقيعه في قرقرة لطيفة ، ودارت الأحاديث هينة لينة تتخللها عواصف من القهقهة كلما القى احدهم طرفة أو نكتة مستملحة .

ولكن بعد فترة وجيزة كثرت فترات الصمت في تلك الجلسة الساهرة ، لأن وجوم الشاب الذي اجتمعوا لتكريمه والاحتفال بسلامة عودته ، وانصرافه عن سمرهم ومرحهم ، جعلهم يشعرون بعدم الارتياح ! .

وكان هؤلاء الرجال لا همّ لهم الا التباحث في موضوع واحد يعنيهم جميعا في الوقت الحاضر، الا وهو الموقف الحربي، واحتمالات تخليص القوة المصرية المحاصرة في الفالوجا منذ اقتحم الاسرائيليون تلك المنطقة، وما حدث للجيش السوري وما كان ينبغي عمله فيما مضى، وما ينبغي عمله الآن، وعلى من يقع اللوم، وما المنتظر حدوثه بعد ذلك..

— ٩ —

كان الحديث في جملته هو الحديث المألوف كلما اجتمع فلسطينيان أو ثلاثة معا.. وكانت المناقشات تدور من غير ان يصل المتناقشون الى نتائج، لسبب بسيط جدا وهو ان لا احد منهم يدري شيئا على وجه التحقيق عن تلك الأمور جميعا. وانما المسألة كلها لون من الوان التنفيس يحدث راحة في النفس المكروبة بما يلقي من ظلال اللوم على هذا الفريق أو ذلك. فمن قائل لو فعل العراقيون كذا، وقائل لو فعل الفيلق العربي كذا، وقائل لو فعل فاروق كذا.. وعلى هذا النحو مضى مؤتمر هؤلاء الجالسين في المقاعد الوثيرة يدخنون النرجيلة بوضع الخطط العسكرية التي لاتعرف الفشل!.

وكانوا بين الحين والحين ينظرون الى نصري ــ وهو احدثهم

سنا، فيما عدا انطون ــ وقد جرب بطريق مباشر الاحتكاك بالعدو، ثم هو على وشك المضي للاشتراك في مقاتلتهم ــ (اذا احتاج الأمر مستقبلا لقتال، أو سمحت بذلك ظروف السياسة الدولية) ــ ويتوقعون منه أن يدلي برأيه ويشترك في المناقشة. ولكنه كان لا يدلي بشيء لأنه لا يجد لديه ما يقوله، فيثقل عليهم صمته.. واذا ما نظروا اليه ينتظرون الالهام والحماسة، الفوه صورة مجسمة للتخاذل وضعف الهمة.

وجاءتهم «رندا» بصينية مثقلة بأكواب صغيرة بها شاي بلا لبن، وانتهز نصري فرصة انشغال الحاضرين بهذا الشراب وتوزيعه عليهم ففر من الحجرة. وقالت نادية للقلائل الذين فطنوا لمغادرته الجماعة ــ ممن كانوا عن كثب منه ــ ان حالته العصبية سيئة للغاية بسبب ما عاناه في المعتقل. وابدى كل واحد منهم عطفه عليه ومشاركته الوجدانية له، ثم استأنف الجميع ماكانوا بصدده من المناقشات. بدأت النساء الكلام، ثم تبعهن الرجال، وكأنما اوحى اليهم الرثاء لحال نصري ان يتباحثوا في موضوع تلك الهدنة التي يعبث الاسرائيليون بها غاية العبث، وتطرقوا بعد ذلك الى الحديث عن المواقف بصفة عامة.

أما بالنسبة لنادية فان قلقها على حالة زوجها ، فضلا عما تفيض بها جوانحها من التوتر الذي أوجده لديها مسلكه ــ بالاضافة الى حالتها الأصلية ــ كل ذلك جعل المساء يبدو لها وكأنه لا يؤذن بانتهاء.

وانتهزت حماتها الفرصة فتشبثت بها وراحت تصب عليها الحاحها أن تثني نصري عما اعتزمه من الانخراط في سلك الفيلق العربي ، فهو بحاجة ماسة الى الراحة واسترداد عافيته المنهكة .

وردت عليها نادية بأن نصري سيصنع مايريد ، وانه كان دائما مطلق التصرف في أمور نفسه ، لايصغي لتوجيهات أحد ، ثم استأذنت في القيام لتطمئن على الطفلين زاعمة انهما يستيقظان عادة في نحو هذا الوقت من الليل.

وذهبت بالفعل الى حجرة الطفلين والقت عليهما نظرة سريعة فوجدتهما يغطان في نومهما كما توقعت ، ثم ذهبت الى حجرة نومها وقلبها يدق دقا متلاحقا خوفا من ان لا تجد نصري هناك ، وهي في الوقت نفسه تخشى ان تجده هناك ! .. وفتحت الباب في خوف ، وفي ضوء المصباح الخافت المظلل بغلالة حمراء بجوار الفراش ، استطاعت ان تتبين هيئة نصري مستلقيا بكامل

ملابسه على السرير، وقد عقد يديه تحت رأسه، وفي الحجرة رائحة سجائر نفاذة.. فقالت له بعصبية:

ــ لقد تساءلت أين انت، وحسبتك أويت الى فراشك.

فقال لها:

ــ كان لابد لي ان انفرد بنفسي. لقد عجزت عن تحمل البقاء بينهم اكثر من هذا..

ــ ولكنهم جاؤوا جميعا ليروك، وفيهم والداك وسائر الأقارب!؟

فأجابها وهو راقد:

ــ اعلم هذا. ولكن لست مستعدا لمقابلة الناس الآن، وذهني مثقل بالافكار كما تعلمين.

فوقفت تنظر اليه مترددة، وبعد برهة قالت:

ــ لقد اتفقت على موعد نذهب فيه غدا في الساعة العاشرة معا الى الطبيب.. انه صديقك القديم «هريد»[1]، وقد سره ان يعلم نبأ عودتك الينا، وهو يبعث اليك بأطيب تمنياته.

ولم يعلق نصري على كلامها، فأردفت:

---

(١) هكذا كتبته المؤلفة (Harid)، ولعله تحريف «هريدي».

ــ وهو يرغب في ابقائي بعيادته اربعا وعشرين ساعة . وعندئذ سألها :

ــ هل ينوي أن يقوم باجراء الجراحة غدا ؟

فأجابته :

ــ نعم . اذا طلبت اليه ذلك .

فقال بمرارة :ـ

ــ سأطلب ذلك اليه . فليس لي في الأمر خيار . اليس كذلك ؟

فقالت له بصوت غير ثابت كل الثبات :

ــ لا خيار لكلينا فيه ..

وشعرت بأنها لو استطاعت ان تلقي بنفسها الى جواره وتطلق لنحيبها العنان فسوف يخف كل ما تعانيه من توتر اعصابها ، بيد ان نبرة صوته اشعرتها بأنه لن يطيق منها هذا .

وتحولت مبتعدة عن الفراش قائلة :

ــ لابد لي ان امضي لتحية كل هؤلاء الناس تحية المساء ، وسأبدي لهم عذرك ، وسوف يدركون ويقدرون . أما والداك فستراهما في الصباح ، لأنهما سيقضيان هذه الليلة هنا .

وعادت الى القاعة التي بها المحتفلون. وعندما لحقت به بعد ذلك ألفته قد خلع ملابسه واندس في الفراش وأطفأ النور. ولم يكلمها حين دخلت الحجرة، فسألته بصوت خافت:

ــ هل نمت؟

فأجابها على الفور:

ــ لا. أكنت تتوقعين ان تجديني نائما؟

فقالت له:

ــ لا. لا. طبعا لا.

ــ وأرادت أن تطلب اليه ايقاد المصباح، ولكنها خافت ان تقول له هذا، فخلعت ثيابها في الظلام، وارتدت قميص النوم، ومشطت شعرها على عجل، ثم رقدت بجواره.

ولم يتحرك. كان مستلقيا على ظهره فلم يحول اليها رأسه. وبعد بضع لحظات مدت يدها ولمست خده بلطف وتوسلت اليه:

نصري. كيف يمكن أن يشوب ما بيننا شيء وكل منا يحب الآخر؟

فأمسك بيدها وابقاها في يده. ثم قال:

ــ لأننا بشر.

فقالت له:

ــ ان احساسي نحوك لم يتغير منذ يوم زواجنا. ولم تهف نفسي الى احد سواك، ولو للحظة واحدة. صدقني، أرجوك!

فأجابها:

ــ اني اصدقك. ولكني على الدوام ارى.. اوه انت تعرفين ما الذي اراه. وليس في وسعي ان اخرج هذا الذي اراه من ذهني. لا استطيع ان افكر في الحب بعد الآن. كل ما استطيع الآن التفكير فيه هو المضي من هنا.. للقتال.. لأقتل كل من استطيع أن اقتله!

وتقلصت راحة يده على يدها بعنف، وكانت حرية ان تصرخ من فرط الألم. ولكنها لم تصرخ. وألح عليها قائلا:

ــ حاولي أن تفهمي.

فقالت له:

ــ اني احاول حقا..

ثم اردفت بضعف:

أنت تؤلمني .

فخفف قبضته قائلا :

ــ آسف .

وانقلب على جنبه فصار وجهه اليها ، وقال :

أفلا نحاول ان ننام؟

فقالت له :

ــ ألا تريد حتى ان تقبلني ؟

فقبلها فوق جبينها ، فقالت :

ــ هذه لاتحسب !

فأجابها :

ــ اعرف هذا . ولذا لم افكر في الاقدام عليها . .

فسألته بحزنٍ :

ــ أهي افضل ما تستطيعه ؟

فقال لها :

ــ في الوقت الحاضر : نعم .

فسألته :

ـــ وهل تظن الحال سيكون افضل من هذا فيما بعد ..؟
فأجابها:
ـــ أرجو هذا. اؤكد لك اني اتمنى هذا!.
وجذبها الى جانبه والتصق بها، ودفن وجهه في كتفيها ويكى..

○

وبعد أن هدأ نشيجه، قال لها وهو يضمها اليه:
ـــ لم أكن ادري قبل وقوعي في يد اليهود ان في استطاعة المرء تعذيب الناس من غير ان يلمسهم بأصابعه. انهم لم يضربوا احدا منا، ولم ينتزعوا اظافرنا. لقد سمعنا حكايات كثيرة من هذا القبيل ففزعنا، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا شخصيا، أعني لأحد ممن كانوا معي في حجرة واحدة على الأقل، وكان عددنا نحو عشرين. وكان المبنى الذي اعتقلونا فيه كبيرا، فظننا في البداية انها مدرسة، ولكننا لم نستطع ان نجزم بشيء، لأنه لم تكن لدينا في الواقع ادنى فكرة عن مكان وجودنا، فعندما ذهبوا بنا الى ذلك المبنى لم نجد ما يدل اطلاقا على الغرض الاصلي من

تشييده، وكل ما لاحظناه أن به فناء واسعا يحيط به سور مرتفع من الحجارة، مما قد يصلح ملعبا لمدرسة. والحجرة نفسها كانت خالية من كل انواع الاثاث، فيما عدا دلوا موضوعا في كل ركن من اركانها الأربعة، ليس له غطاء. وقد تم نقلنا الى ذلك المبنى في سيارة نقل مقفلة من النوع الذي يستخدم في نقل الاغنام!.. وكل ما هناك انهم ما كانوا ليكدسوا في السيارة كل هذا العدد من الغنم، لأنها كانت حرية ألا تصل وهي على قيد الحياة!.. وظلت السيارة تدرج بنا عدة ساعات، وانت تعرفين كم كانت الحرارة شديدة في ذلك الحين، فاشتدت علينا وطأة العطش. وبمرور الوقت اشتدت حاجتنا ايضا الى قضاء ضروراتنا العضوية. وقد توقفت سيارة النقل عن المسير عدة مرات ولكن لم يسمح لأي فرد منا بمغادرتها. وكان بجوار السائق في المقدمة جنديان آخران منهم، ولكن ما من احد من الثلاثة ــ أي الجنديين والجندي السائق ــ يعرف العربية. ولكن احدهم كان يعرف الانجليزية فلجأنا الى مخاطبته بها، وأخبرناه ان فريقا منا توشك مثاناتهم ان تنفجر، وطلبنا اليه ان يسمحوا لنا بالنزول قليلا لهذا الغرض القهري، فضحك وأوصانا الا نضيع هذا البول كله سدى، لأن في وسعنا ان نتجرعه اذا الح علينا الظمأ!.

فسألته نادية عندئذ :

ــ وهل تكرر هذا ايضا في طريق العودة ؟

فأجاب نصري :

ــ لا . فالرحلة لم تكن بمثل ذلك الطول . فنقلونا الى أحد مراكز المراقبة ثم تولى الحراس الاسرائيليون حراستنا حتى الجانب الأردني من الحدود . أما في ذلك المبنى ــ كائنا ما كانت حقيقته ــ فقد كان الحراس الاسرائيليون يشعرون بالسأم الشديد ، مثلنا تماما ، لأنهم لا يجدون ما يصنعونه . ولذا كانوا يتلهون بنا ، فما نحن الا شرذمة من العرب ، أي من الحثالة ، ولسنا بشرا ! .. ففي جوف الليل كنا نسمع صرخات يجمد الدم من هولها ، فينصرف تفكيرنا على الفور الى كل تلك الاقاصيص التي سمعناها تتردد من قبل عن انتزاع الأظافر . ثم يقوم أحد الحراس الليليين بفتح باب حجرتنا ويقف به باسما ليقول : « من الذي عليه الدور ؟ » ، ثم يتلو بضعة اسماء . ثم يأخذ من تكون اسماؤهم من فريقنا الى الممر الخارجي ، حيث يقوم زملاؤه المنتظرون هناك ببنادقهم بربط أيدينا وراء ظهورنا ، ثم نساق فنهبط السلالم الى الفناء الكبير ، وهناك يوقفوننا ووجوهنا الى الجدار . وعندئذ يقول

أحد اولئك الحراس: «ان كان منكم احد يريد ان يتلو صلاته الأخيرة فليسرع بأدائها»، أو يقول شيئا من هذا القبيل. ويشرع الجميع ــ مسلمين ومسيحيين معا ــ في تلاوة الصلوات..

فسألته نادية:

ــ وأنت هل كنت تتلو صلاتك ايضا؟

فأجابها:

ــ بل كنت اصلي ولكن في قلبي. أما لساني فلم يكن ليتحرك.

فسألته:

ــ وماذا كنت تقول في صلاتك؟ هل كنت تذكرني فيها؟

فأجابها جادا:

ــ كنت اطلب من الله أن يعيش ابني حتى ينتقم لأبيه.

وكانوا يتركوننا في هذه الحالة ساعتين، والحراس يسيرون بلا انقطاع من وراء ظهورنا انتظارا لفرقة اطلاق النار التي لم تصل مطلقا، وانتظارا لموت لم يحدث فعلا ــ وان حدث معنويا في كل دقيقة بل كل ثانية من ذلك الوقت الطويل الرهيب! ــ وفي

النهاية يعيدوننا الى حجرتنا.. وبعد بضع ليال اخرى يأخذون مجموعة اخرى من حجرة مجاورة. وننظر نحن من النوافذ والغثيان والجزع مستوليان علينا، ونحن نتساءل واجفين هل سيفعلونها حقا في هذه المرة أم هو اللهو الماجن. وكنا ندرك ان المساكين المصطفين من تحتنا في الفناء يعتقدون ان ساعتهم الأخيرة قد دنت، مثلما كنا نحن نعتقد ذلك في حينه.. كلا! انهم لم يلمسونا كما قلت لك، ولكنهم فقط كانوا يعذبوننا بالارهاب والرعب والاذلال.. وكانوا ايضا يجيعوننا.

فسألته نادية:

ـ وماذا كانوا يقدمون لكم لتأكلوا؟

فأجابها:

خبزا اسود وشيئا سائلا كالماء القذر يسمونه حساء. ولست اعتقد انهم كانوا يبدون لنا كراهية. حتى هذا كانوا لايعتبروننا أهلا له. فهم المنتصرون.. وكل ما هناك انهم يحتقروننا ويزدروننا!.

وظل نصري راقدا بجوار زوجته ملتصقا بها، متشبثا بأعطافها بين ذراعيه، وهو يحدق في الظلام..

ورفت شفتاها على جبينه المبلل بالعرق. وناشدته بحنان قائلة :

ـ حاول ان تنام ..

فقال لها :

ـ لا أستطيع. فاني متى أغمضت عيني خيل اليّ اني عدت الى تلك الحجرة اللعينة، واني بعد لحظة واحدة سأسمع صرخة، ثم وقع خطوات عسكرية ثقيلة في الممر الخارجي، ويفتح باب الحجرة ليبرز جندي اسرائيلي يبتسم ابتسامة عريضة ويقول: «من الذين عليهم الدور الآن؟».. ثم يتلو اسماء من قائمة بيده، واسمي من بين هذه الأسماء..!.

فقالت له :

ـ أنت الآن في امان. لقد انتهى كل هذا الآن. انت هنا في (رام الله)، في بيت خليل، وقد صرنا معا مرة اخرى!

فاشتدت قبضة ذراعيه تعصرانها بكل ما فيه من توتر عصبي، حتى انها لم تكد تطيق هذا الضغط الذي لايدري به، وقال :

ـــ انه شيء أشبه بالكابوس. وأنا اقاومه ولكني لا استطيع أن اتحرر منه، فهو يلازمني باستمرار.

فهدأت من روعه قائلة:

ـــ سيذهب هذا كله عنك. غدا سأسأل الطبيب أن يكتب لك حبوبا منومة. ومتى نعمت ببعض ليال من النوم العميق شعرت بتحسن كبير.. تأكد ان هذا كله سيذهب عنك.

وقالت في نفسها بمرارة:

ـــ ما الذي فعلناه كلانا في أي يوم من الأيام بأي يهودي حتى ينزلوا بنا كل هذا العذاب؟ بل ما الذي فعله أي عربي في أي يوم من الأيام حتى يفعلوا بنا جميعا كل هذا الشر والبلاء المقيم؟

— ١٠ —

قضى بطرس وماريان طيلة ذلك الصيف المحرق في اريحا ، ولم يحظيا باستقبال زوار فيما عدا بضع زيارات رسمية قام بها الأعيان المحليون في الأيام القلائل الأولى بعد وصولهما للترحيب بعودة بطرس الى دار السلام ولابداء اسفهم ومواساتهم له على ما ضاع له من امواله واراضيه وداره في (اللد) .

والحقيقة ان الزوجين لم ينعما على الاطلاق بأي نوع من من الحياة الاجتماعية ، الى أن بدأ العام الدراسي فذهب انطون الى مدرسة الأمريكان في (رام الله) ابتداء من أواخر « سبتمبر » ايلول ، وبعدئذ صارا يريان « فريد » كل بضعة اسابيع عندما يأتي معه بالغلام لقضاء عطلة الاسبوع مستقلين سيارة خليل .

وكان البنزين قد بدأ يوزع بالبطاقات بطبيعة الحال ، فكان

من المستحيل على فريد وانطون القيام بهذه الرحلة ما بين رام الله واريحا في فترات اقرب من ذلك. وكانا كلما قدما الى اريحا يرحلان عنها عائدين الى رام الله في صباح الاثنين عند شروق الشمس أو بعده بوقت وجيز جدا.

وفي فترة عطلة عيد الميلاد جاء فريد ومعه ماجدة ونادية والطفلان فبقوا جميعا الى ان حان موعد أوبة انطون الى مدرسته في آخر يناير «كانون الثاني».

وكانت نادية تفتقد نصري كثيرا، وكان قد رحل الى عمان ليتلقى تدريبا عسكريا في صفوف الفيلق العربي، ولكنها كانت تشعر بالسعادة في دخيلة نفسها لأنها استطاعت ان تنسى ذلك الحادث الفظيع الذي وقع لها في اللد، بعد ان أصبحت حبلى مرة أخرى، ولكن من نصري هذه المرة.

لقد حدث ما لم يكن يعتقد نصري انه سيحدث. فما ان تمت لها جراحة الاجهاض وبرئت منها بفضل شبابها القوي بسرعة، حتى وجد نفسه وقد تخلص من الصدمة التي خالها ستحول بينه وبين زوجته الحسناء الى الأبد. وقبل ان يدرك ما حدث ألفى نفسه قد استعاد علاقته الحميمة بين أحضانها.

وأعقب ذلك التحطيم المادي لآثار الصدمة تخلصه تدريجيا من آثارها المعنوية، وتغير حاله من الشرود شبه المرضي الى الأقبال السوي على الحياة ومتاعها المبذول له كسابق عهده.

وقبل رحيله الى عمان بيوم واحد اقيمت له حفلة اخرى. ولكن ما ابعد الفرق بينها وبين حفلة استقباله الأولى. فقد اجمع الكل على ان هذه الحفلة الثانية كانت اشبه في جوها المرح البهيج بحفلات الأعراس.

وعن هذه الحفلة ايضا تخلف آل منصور لأن بطرس كان متوعكا. الا ان فريد الذي تولى توصيل نصري بالسيارة الى عمان في صباح اليوم التالي حرص اثناء الرحلة على ان يمر على اريحا ليحظى الشاب الذاهب للقتال بدعوات وبركات عم زوجته ورأس اسرتها.

ولم يكن نصري قد رأى بطرس منذ اربعة اشهر. فصدم بمنظره. وخيل الى نصري ان الرجل بدت عليه الشيخوخة والعلة فجأة، كأنما يد الموت قد شرعت تلمسه بالفعل. وكانت صحة بطرس قد تدهورت كثيرا في الواقع منذ المسيرة المشؤومة من اللد الى رام الله. وساءت حالة قلبه الذي كان يعاني منه منذ

سنوات ، وأخذ يشكو مر الشكوى من نقرس في الفخذ ، حتى ان اهون الحركات التي كان يضطر الى القيام بها كانت تؤلمه ولا يقدر عليها الا وهو يظلع ظلعا[1] شديدا .

ولم تكن آلامه الجسدية كل ما ينوء به بطرس ، فحزنه وأساه ويأسه ومرارته لم تكن اخف وطأة عليه من امراضه ، فتمخض اجتماع علة البدن وعلة النفس عن تحطيم ما بقي سليما من قلبه . كان قد اعتزل الدنيا في هذا المكان متحملا حرارته القائظة أملا في ألا يجد ما يذكره بداره واراضيه وثروته التي تركها في (اللد) بين يدي معتدين غاشمين يسمون انفسهم بالاسرائيليين ، بيد انه ظل يفكر في ذلك كله كل يوم . بل لا تكاد ساعة من ساعات اليوم تخلو من استغراقه في ذلك التفكير ، فالتهم هذا الهم روحه كما يلتهم السرطان خلايا البدن .

لم تكن في رأسه فكرة سوى ان فلسطين لن تتحرر وهو على قيد الحياة .. فان كتب لأنطون ان يعيش ليشهد يوم ذلك التحرير ـــ الذي قد لا يحين الا بعد خمسين سنة ـــ فسيكون انطون يومئذ في مثل سن ابيه الآن . وفي ذلك الوقت ستكون

(١) ظلع : غمز في مشيه وعرج (الناشر)

الدولة الاسرائيلية التي فرضت عنوة وغدرا على قلب الوطن العربي قد آذنت بالزوال بفعل تيار التاريخ الطبيعي. لأن الظلم لابد في النهاية ان تدول دولته كي يسود الحق والعدل.

وبهذا كان يؤمن بطرس فعلا، ولكنه لم يكن يأمل ان تأتي نهاية تلك الشرذمة الظالمة في يوم قريب جدا، وبصورة درامية خارقة، على يد جيش التحرير.. وان الدول ستفرض على الطرفين هدنة في الوقت الحاضر. هدنة ترسم فيها حدود جبرية تحكمية. وسينتهز اليهود هذه الفرصة المواتية لهم كي يعززوا مكاسبهم ويحولوا ما احرزوه من نجاح خاطف غادر الى نصر موطد الأركان.

○

وبمجرد ان بدأ البرد يشتد في منطقة التلال اخذت جموع اخرى من اللاجئين تتدفق من رام الله عبر الوادي وعلى الطريق المفضي الى اريحا، متوجهين الى القاع الدافىء لبرية تلك المنطقة المنخفضة. واقاموا في الكهوف أو على جوانب التلال القاحلة. ومنهم من نصبوا خيامهم مرتجلة. وكان عددهم بضعة آلاف ما بين رجال ونساء واطفال قادمين من اللد ومن الرملة ومن القرى

والكفور المنتشرة في تلك البقعة من الريف . وكلهم مهلهلو الثياب مشردون معدومون جياع . وما هم في ذلك الواقع الا حانب يسير ــ على ضحامتهم ــ من ذلك «الخروج» الفلسطيني الواسع الفاجع الذي يعتمد في اقامة أوده وستر عريه على معونة غير مستقرة التنظيم كل هدفها ان تكفل لهؤلاء مجرد البقاء على قيد الحياة ولو فيما هو ادنى من المستوى المفروض لمعيشة البشر ! .

ومن شرفة الطابق الأول في دار منصور بأريحا يستطيع الناظر ان يرى فيما وراء جبل التجربة عند سفوح التلال مدينة كاملة من الخيام الممزقة والأكشاك الخشبية والاحصاص هي النواة الاساسية لما كان مزمعا ان يغدو اكبر معسكر للاجئين في الأردن .

وكان بطرس وماريان يجلسان معا في تلك الشرفة وينظران اليها من خلال اشجار السرو الطويلة في حديقتهما . ولكنهما في كثير من الأحيان كانا يحدقان فلا يريان شيئا لأن نظرتهما تكون قد امتدت الى بعيد فيتراءى لهما بيتهما في اللد والممر الكبير في الحديقة وعلى جانبيه اشجار الجزورينا واشجار النخيل الباسقة . وفي ذلك الاطار تتمثل امام ناظر بطرس سحنة تلك المرأة

الاسرائيلية المجندة التي بصقت عليه وأنذرته بأنه ما لم يسرع بالرحيل فلن تساوي حياته فلسا واحدا!.

وكانت ماريان حين تنظر الى وجهه تقرأ ما يدور في ذهنه في تلك اللحظات، وتدرك انه لا يتألم لفقدان داره وأراضيه ونقوده وممتلكاته المادية فحسب، بل انه فوق آلامه الجسدية المضنية التي حاقت به نتيجة لتلك الهجرة الشاقة يشعر بألم اقسى وادهى لما اصاب كبرياءه من جرح، ولما يشهده من اذلال جماعي للشعب الفلسطيني بأسره. فحياتهم جميعا ــ وعددهم يقدر بمئات الالوف ــ لم تعد تساوي فلسا واحدا.

وفي اول ديسمبر (كانون الاول) قررت حكومة الأردن ضم الضفة الغربية لنهر الأردن الى اراضيها. وكانت هذه الضفة هي كل ما تبقى من فلسطين العربية فيما عدا قطاع غزة. وهكذا انتهى وجود شرق الأردن كما انتهى وجود فلسطين في العرف الدولي، وحلت المملكة الأردنية الهاشمية الجديدة محل دولة شرق الأردن على تخوم فلسطين السليبة. وهكذا تلاشى آخر ملاذ لحلم الوطنيين الفلسطينيين في بقاء شخصية وطنهم المستقلة تلاشيا تاما في هذا

الجانب . ولم يبق لذلك الحلم العزيز من موئل الا البقعة الصغيرة في الجنوب حيث تحمي القوات المصرية غزة .

وفكرت ماريان في ابيها . ولم تكن بحاجة الى خطاباته التي ينتقي الفاظه بحيطة وحذر ومداراة كي تعرف ما يجول بخاطره وما يعتمل في مشاعره .

وكان قد كتب اليها يقول :

ـ لماذا لا تأتيان كلاكما الى انجلترا ومعكما انطون؟ ان في الوسع ادخال انطون احدى المدارس الجيدة هنا في انجلترا .

وقد ادركت المعنى الذي يرمي اليه بهذه العبارات .

وأحست ان مايعرضه لا يمكن قبوله ، لما فيه من معنى التخلي عن الوطن الفلسطيني نهائيا .

وكتبت اليه تقول :

ـ بطرس لن يغادر اريحا الا كي يعود الى (اللد) . وذلك يعني بطبيعة الحال انه لن يغادر اريحا ! .

ثم حل بعد ذلك عيد الميلاد ، واعلن بطرس انه ينوي حضور صلاة قداس العيد في كنيسة الروم الارثوذكس بأريحا لأنه لايجد في نفسه ميلا للتوجه في هذه المناسبة الى القدس . وذهب

انطون معه الى تلك الكنيسة بطبيعة الحال. وكذلك ذهبت ماريان لأنها تريد في ذلك اليوم ان تلازمهما.

كان يوما دافئا مشمسا برزت فيه صفحة السماء بهية الزرقة خالية من الغيوم، وكانت الازهار اليانعة تبرز في كل مكان مطلة في تزاحم حافل بالألوان والعبير فوق الأسوار القديمة والعريشات المخرمة، ما بين خمرية اللون، وقرمزية وحمراء قانية، وبيضاء، وذهبية. فكأن الدنيا في عرس اخذت له الطبيعة زخرفها وازينت.

وشعرت ماريان وهي تدخل البلدة الصغيرة بما كانت تشعر به دائما من فتنة هذا الاقليم ذي المياه الراكدة. الا ان ما كانت تتسم به البلدة من الهدوء الذي يشبه التهويم للكرى قد انجاب عنها، فاذا الشارع الرئيسي الآن ــ بأشجاره الصغيرة الملتوية المعروقة ــ قد غص باناس غرباء يجوبونه على غير هدى. والنساء منهن مكتسيات بالأثواب المطرزة المعهودة في القرى الفلسطينية. اما الرجال فعليهم سترات أوربية رثة فوق جلابيب بيضاء أو مخططة تتهرول على اعقابهم. والرجال والنساء على السواء يسحب كل منهم وراءه سربا من الاطفال الصغار، في

تجوالهم الذي لا يقر له قرار. فكل مرادهم ازجاء الوقت: وقت اللاجئين الذي لانهاية له لأنه لا مشغلة لهم، وبطونهم خاوية من الجوع. ولكن قلوبهم اجوع من بطونهم واشد منها افتقارا الى ما يبعث فيها الحرارة والدفء.

وتطلعت ماريان الى محيا زوجها المتجهم وهم في السيارة ـــ هي وبطرس وانطون ـــ وكان يوسف يتولى القيادة، وهي على يقين من ان ما يجول بخاطر بطرس مطابق لما يدور في ذهنها: فهاهم الناس الذين عانينا معهم مشاق تلك المسيرة الوحشية. وكل ما هناك اننا اسعد منهم حظا، لأنه كان لنا مكان معد لاستقبالنا اتجهنا اليه. كان لنا بيت آخر، أما هم.. فلم تكن أمامهم الا البرية!.

وأحست ان الغضب والشفقة والالم تموج في خليط مضطرم داخل صدر زوجها. وكذلك كان حالها ايضا. ولكن احساسه هو كان اشد ضراوة، بما في نفسه من نخوة الرجولة وبواعث الوطنية الجريحة.

وبعد ذلك شملتهما الكنيسة الصغيرة الرطبة الانفاس، التي تملأ العتمة جنباتها ويفغم الأنف عبير بخورها، ومن فوق

رؤوسهم شمعدان ضخم به سبع شموع تضيء كأنها النجوم الدراري في تلك الظلمة، رمزا للنور الذي افاضه على الدنيا مولد المسيح بما جاء به من هداية الروح ورسالة الحب والسلام ونقاء الضمير .

ولم يقدر بطرس في الجانب الأكبر من وقت الصلاة على تلك الوقفات الطويلة، فجلس منتصب القامة الى الأمام في مقعده ويداه متشبثتان بمقبض عصاه. وبين الحين والحين يشير بيده راسما على صدره علامة الصليب، مؤديا بذلك الحد الأدنى من شعائر الصلاة، بيد انه كان يتابع الطقوس التي يؤديها الكاهن بأقصى ما يمكن من الانتباه والاهتمام .

انه لم يكن من غلاة المؤمنين الاتقياء بطبيعة الحال، ولكن الذهاب الى الكنيسة في يوم عيد الميلاد أمر يقدم عليه المرء بحكم تربيته وتعوده، مثلما يعطي الصدقات للفقراء، أو مثلما يصيح بخدمه آمرا أو ناهيا، أو مثلما يقدم لضيوفه ونداماه شراب «العرق» وطعام «التبولة» ! .. فبطرس ــ في الجانب الاكبر من السنة ــ ضعيف الايمان، حتى اذا حل عيد الميلاد، ومن بعده عيد الفصح، جنح من عدم التصديق الى التصديق، بحكم

الرواسب التي في نفسه من ميراث الجدود وتربية الأبوين، فيدخل عندئذ الكنيسة، غير متخل عن سمته واعتداده كأنه في داره، ولكنه يظل حاضر الذهن في ضرب من الركوع المعنوي المجامل.

وكانت ماريان قد سألته ذات مرة في فجر زواجهما:

ــ لماذا اذن تذهب الى الكنيسة مادمت لا تؤمن ايمانا عميقا؟.

فافتر فمه عن ابتسامته الأسيفة وقال لها:

ــ لأنني في هذين الأوانين من العام لا أكون واثقا تمام الثقة من مدى عدم ايماني!

أما انطون فلم تكن في نفسه ادنى ريبة، وإيمانه عميق. فوقف بجواره وراح يتابع كل ما يجري عند المذبح، بتركيز ذهني نشوان. وامتلأت نفسه خشوعا وخشية لتلك الطقوس المقدسة التي يجري امام عينه تمثيلها. وعندما حان وقت رفع القربان المقدس أمام انظار الناس احنى رأسه في صلاته العميقة وهو موقن من ان هذه اللحظة بالذات هي اللحظة التي تكون فيها الصلوات أقدر على الصعود الى ساحة الله واستجلاب رضاه.

وكان من عادته دائما ان يصلي طالبا من الله ان يعينه كي

يحيا حياة صالحة، وان يحمي ابويه من كل شر مادي ومعنوي.
ولكنه في هذا العيد ـــ وهو أول عيد للميلاد في فترة التشتت
الفلسطيني ـــ رفع الى الله صلاته كلها من أجل شعب ابيه،
لأنه شعر بعد تلك التجربة الوحشية في التيه انه قد صار هو
وذلك الشعب شيئا واحدا في الحال والمصير.

تضرع انطون في صلاته الحارة الى الله ان تشاء مراحمه
التي لا نهاية لها عودة شعب فلسطين المشتت الى وطنه السليب،
لأنه لا يليق بعدل الله ورحمته الا ان ينتصر الخير على الشر، وان
يسود الحق والعدل كما وعد المؤمنين.

— ١١ —

كان اهم ما يشغل ذهن انطون هو الضراعة الى الله ان يمنحه صديقا يشغل الفراغ الذي تركه «امين». ولم يكن اعزازه للصبي الأعمى قد تغير، ولكنه لم يعد ملازما له. ولم تتحسن الحال عندما قام بزيارته في مدرسة العميان ببيت لحم. وكان يحلم بأن يقضي أمين العطلة معه في اريحا، ولكن والدة أمين أصرت على التئام شمل الاسرة في تلك العطلة. ثم ان قضاء العطلة مع أمين ما كان ليشفي غليله لأنه يشعر بالحاجة الماسة الى صديق يملأ حياته كل يوم، في المدرسة وفي خارج المدرسة.

انه لا ينكر ميله الى بعض زملائه في مدرسته الجديدة. ولكنه ميل لا يصل الى درجة الجاذبية القوية والألفة الحميمة. فما

من واحد منهم يمكن ان يقول عنه في اعتداد وثقة «هذا صديقي».

وكأنما استجابت السماء لدعائه الصامت فالتقى بعد عودته الى المدرسة اثر عيد الميلاد بزميل يدعى «وليد حسين»، طويل القامة، اسمر اللون، جميل القسمات، ولكن لا يبدو عليه أنه يشعر بجماله. وهو أكبر سنا من انطون شيئا ما ولا يجمعهما صف واحد. وكان اول التقاء بينهما اثناء اشتراكهما في مشاهدة مباراة لكرة القدم. واول ما لفت نظر انطون الى وليد ان وليدا ابتعد عن الزحام في فترة الاستراحة (الهاف تايم) وأوغل بين اشجار السرو حيث جلس على الأرض تحت شجرة كبيرة منها، مما دل على شعوره بالوحدة في هذا الحشد من الطلاب، فاتجه انطون اليه وبادأه الحديث حول المباراة واحتمالات الكسب. ثم تطرق الكلام الى موضوعات شخصية:

ــ من أي بلد أنت يا وليد؟

ــ من (بئر السبع). كان ابي مدرسا هناك ولكننا هاجرنا من قبل دخول اليهود اليها وانتقلنا الى (الظهيرية) حيث اهل ابي. وهي من قرى الحدود. هل تعرفها؟

ـــ لا . فأنا من (اللد) . جئت الى هنا مع اسرتي في الصيف الماضي واسمي انطون منصور .

ـــ مسيحي انت ؟

ـــ نعم . وأمي انجليزية ، ولكنها تعتبر نفسها فلسطينية .

وضحك الفتى الأسمر وقال له :

ـــ وانت ماذا تعتبر نفسك ؟

ـــ عربيا بالطبع ، مثل ابي ..

ـــ حسبك هذا عروبة ، بالاضافة الى مشاعر والدتك الشخصية .. اما جنسيتها الانجليزية فأمر ثانوي ..

ثم جلس انطون بجواره واسند ظهره مثله الى الشجرة وقال :

ـــ ان عمتي متزوجة من مسلم .

ـــ وما الفرق بين المسيحي والمسلم ؟ كلنا نؤمن باله واحد .

ـــ كان أبي من كبار الملاك في اللد . من أكبرهم في الواقع . ولنا بيت في اريحا وبعض بساتين برتقال . ولكننا لم نعد اغنياء كذي قبل .

وضحك وليد وقال :

ـــ ولكنكم لستم فقراء! اما اهلي ففقراء. فقراء جدا، وابي يشتغل الآن بالتدريس في (المالحة)، وعدد اسرتنا كبير جدا وأنا أكبرهم. وعمي مدير البنك قد تبناني لأنه معجب بي، وان كان يكره ابي ويزدريه، لأنه اولا اذكى اعضاء الأسرة وثانيا لأنه اقلهم مالا فلا اهتمام له بشيء سوى العلم والتعليم. ولكن عمي يغيظه مني انني لا اعرب له عن عرفاني بجميله اذ ادخلني هذه المدرسة على حسابه. فهو في الواقع لم يزد على ان قام بواجبه باعتباره اغنى رجل في الاسرة، ولأن الحظ قد خدمه فلم يصبح لاجئا مشردا. وستزداد خيبة امله عندما يعلم انني لا انوي الاشتغال بالتجارة والاعمال المالية مثله بل أريد ان اكون معلما كأبي. ولكن ماذا تريد أنت ان تكون؟

ـــ لا أدري. فعندما كنا في اللد قبل اغتصاب املاكنا كان المفروض انني سأساعد ابي في ادارة مزارعه. ولكني لا اريد على كل حال ان اشتغل بالتجارة. وفي الوقت نفسه لا احسبني مستطيعا ان اشتغل بالتعليم اذ تنقصني براعتك.

ـــ ومن ذا الذي قال اني بارع؟

ــ هذا هو اعتقادي فيك. وقد قضيت الشهور الماضية هنا بغير صديق، واتمنى ان تغدو انت صديقي.

ــ ولم لا؟

ولم يهتم انطون بزيارة وليد في بيت عمه ــ حيث يقيم ــ ولا بدعوته لزيارته في بيت عمه هو «داود»، حيث اولئك الفتيات السخيفات بنات عمته. ولكنه اهتم غاية الاهتمام بدعوته الى اريحا، لا ليقدمه لوالديه فحسب، بل ليجعل منه جزءا من حياته هناك على الخصوص. وهو يعتبر اريحا وطنه الحقيقي الآن كما كانت اللد من قبل.

ولم تكن لدى وليد معرفة سابقة بأريحا سوى انه مر بها وهو في سيارة عمه المسرعة. وقد سر بذهابه الى هناك مع انطون في سيارة زوج عمته خليل وان كان الذي تولى القيادة هو عمه فريد. واعجب وليد بجمال بيت آل منصور هناك بين اشجار النخيل وبساتين البرتقال.. ولكن اهتمامه الأكبر كان موجها الى تسلق الجبل مع انطون في اقرب فرصة. وقد ترك أبوا انطون في نفسه تأثيرا طيبا جدا واعجب بطلاقة لسان والده انطون

الانجليزية وهي تتكلم العربية، حتى لقد صارحها بأنه ما كان ليدرك انها انجليزية لولا ان انطون اخبره بذلك.

اما بطرس وماريان فأعجبهما تهذيبه وغفلته عن محاسن شكله وقوامه، وسرهما ان يجد فيه انطون صديقا مخلصا، وان كانت ماريان احست ان هذه الصداقة اعز لدى انطون منها لدى وليد، وادركت ايضا ان وليدا اذكى من انطون واشد منه حيوية.. وتنبأت بأن القيادة ستكون دائما لوليد وان انطون سيقنع بدور التابع الأمين. وخشيت في الوقت نفسه ان يسأم وليد يوما ما من ولاء صاحبه الصغير واعجابه الذي هو من قبيل عبادة البطولة، فيتخلص من صحبته.

ولكن انطون لم يشعر الا بالسعادة في صحبة هذا الصديق الجديد الذي زادت مكانته على مكانة امين الأعمى، لأنه في صحبة أمين كان ملزما بأن يجعل امينا يرى الدنيا من خلال عينيه. أما وهو في صحبة وليد يرى الدنيا من خلال عيني وليد. كل ما يستملحه وليد فهو مليح وكل ما يستقبحه فهو قبيح!

وبدأ وليد يفكر في مشروع لعطلة عيد الفصح. ولكن

هذا المشروع يحتاج الى استحراج تصريحين رسميين سيتكفل بهما عمه مدير البنك، على ان يذهبا اولا لقضاء ايام عند اقارب وليد في (الخليل)، وهم قوم فقراء يمتلكون حانوتا صغيرا لبيع مصنوعات الخليل الزجاجية المشهورة. وبعد الحصول على التصريحين يتوجهان الى (الظهيرية) حيث اهل ابيه الذين يفلحون قطعة صغيرة من الأرض بأيديهم. وهناك يستطيع الصبيان ان ينظرا على طول الطريق الى بئر السبع وان يتطلعا عبر الوادي الى الأرض المحتلة. وقد يستطيعان التسلل الى هناك!

ــ ولكن هذا التسلل خطر يا وليد قد يقتلنا اليهود!

ــ خطر ولكنه ممكن. بئر سبع بلدي ومن حقي أن اعود اليها!

وفي هذا الحلم قضى انطون ايامه انتظارا لمقدم الربيع.

— ١٢ —

وفي يوم ٢٤ فبراير «شباط» حددت خطوط للهدنة بين القوات الاسرائيلية والقوات المصرية. وفي اليوم الثالث من ابريل «نيسان» وقعت الأردن في (رودس) اتفاقا بشأن خطوط الهدنة بينها وبين الجيوش الاسرائيلية ايضا. ولكن خط الهدنة الأردنية الاسرائيلية قسم في طريقه كثيرا من البلدان والقرى والأراضى الزراعية بحيث فصلت قرى كثيرة عن اراضيها، وقسمت بيوت كثيرة في منتصفها بحيث كانت الحجرات الأمامية في الأراضي الأردنية والحجرات الخلفية تحت سيطرة اليهود!.. وبلغت عدد القرى التي مزقت شذرا على هذا النحو ١١١ قرية حرم سكانها من مصدر رزقهم وهي الأرض التي يفلحونها. ولقد اشرف على هذه المباحثات الوسيط الامريكي الدكتور بانش الذي كوفىء بإهداء جائزة نوبل للسلام اليه..!.

وكانت القوات الاسرائيلية قد زحفت على (العقبة) في الجنوب في اثناء هذه المباحثات في شهر مارس «اذار»، كما تقدمت قوات اسرائيلية اخرى وتغلغلت بين مواقع الفيلق العربي في منطقة (الخليل).

وكان بطرس يصغي الى أنباء الراديو ويطالع الصحف التي تصل اليه ولا يكاد يعلق بشيء على ذلك كله، لأن احساسه بالكارثة كان تاما بعد ان تمزقت وحدة فلسطين، وبعد ان ضم الى الأردن ما تبقى من وطنه الجريح. فلا أهمية في نظره لشيء بعد ذلك. وهيهات أن يضير الشاة سلخها بعد ذبحها!.

لهذا كان بطرس يأبى الخوض في حديث السياسة مع اخيه فريد حين يزوره، ويعجب لتحمس فريد واهتمامه البالغ بما يحدث، واصراره على ان فلسطين سيسترد حريته واستقلاله، ويجيبه باسما:

ـــ لنواجه الواقع! لقد قضي على شعبنا بالتشتت. وان كنت احسدك على ايمانك الذي لايتزعزع. اشرب كأسا من الويسكي فاني احسبه اجدى عليك من ايمانك كله!.

والحق ان بطرس كان يفرط في الشراب. وكانت ماريان

تبدي قلقها لسوء تأثير ذلك في صحته. وشاركها فريد ذلك القلق. وكان بطرس يرد على ذلك دائما بأن الويسكي يريحه من الهم والكآبة وهما أضر بصحته من الأفراط في الشراب، ويؤكد ان مشروبه المفضل هو الشيء الوحيد الباقي في حياته مما يراه جديرا بالمناقشة!.

ولم يكن بطرس صادقا كل الصدق في ذلك. لأنه حين يخلو الى زوجته ماريان كان يناقشها في امور جدية كثيرة، منها مستقبل ابنهما. ولم يكن تظاهره بعدم الاكتراث بالسياسة الا قناعا زائفا. وهو في الواقع كان يتجنب المناقشة، لا لأنه غير مكترث بل لأن الموضوع يؤلمه الما يجعل الخوض فيه فوق طاقته!

○

وكان انطون قد حصل من والديه على اذن بقضاء بضعة ايام من عطلة الفصح بالخليل. بيد ان وليد جعله يتعهد له بألا يبوح لوالديه بشيء عن ذهابهما بعد ذلك الى الظهيرية، خيفة ان يمانعا في ذلك لقربها الشديد من خط الهدنة. وفي حالة الممانعة سيشعر انطون بتأنيب الضمير اذا خالف والديه.

وكان وليد يضيق بسلطان الابوين ويعتبره فضولا مرهقا. ولذا اقترح على انطون ان يخبر ابويه بذهابهما الى الظهيرية بعد عودتهما من هناك. وما من شيء ادل على وقوع انطون تحت سيطرة صديقه الجديد من قبوله ذلك الوضع، خارجا بذلك على ولائه لوالديه لأول مرة في حياته!.

والحقيقة ان وليدا كان ينظر الى الأمور نظرة تختلف عن نظرة انطون اليها. فهو لا يتردد في الخديعة والكذب اذا كان ذلك كفيلا بوصوله الى هدفه. اما انطون فهو على العكس من ذلك. والاختلاف بينهما ناجم عن اختلاف الطبائع والمزاج لا عن اختلاف العقيدة بطبيعة الحال. فالكذب في الدينين حرام، وعدم اطاعة الوالدين في الدينين حرام. ولكن التكوين النفسي لا يتقيد دائما بنواهي الدين وأوامره.

وكان قد تقرر ان يتولى يوسف، خادم بطرس في اريحا، توصيلهما الى الخليل في السيارة على ان يعود لاحضارهما في اليوم المحدد. وفي ساعة مبكرة من الصباح بدأت الرحلة بين التلال الصخرية والرملية الجرداء الى القدس القائمة فوق تلالها الشهيرة مشرفة على الوادي العميق. وكان وليد مشوقا الى مشاهدة المدينة

المقدسة التي لم يرها منذ اكتوبر «تشرين الاول» الماضي، اما يوسف فكان في حالة عصبية سيئة لخوفه من القناصة اليهود وهو يقود السيارة على طول المنطقة الحرام بما فيها من بيوت قوضتها القنابل وحدائق وغياض من اشجار الزيتون العتيقة وقد اهملت وتكاثرت فروعها على غير نظام. فكان همه كله في الوصول الى بر الأمان واجتياز القدس بسرعة للتوجه جنوبا الى الخليل.

ولما صارت القدس وراء ظهورهم شرع وليد يكلم صديقه بالانجليزية للتعمية على يوسف، فقال انهما سيذهبان في الغد الى الظهيرية حيث يقيم جداه. وسيكون ذهابهما على دراجتين يقترضانهما في الخليل. والمسافة لاتزيد على عشرة كيلو مترات. وهناك عند نقطة للمراقبة تمر الطريق المتعرجة بين التلال الى بئر السبع. ولكنك لا تستطيع بطبيعة الحال ان تسلك تلك الطريق لأنك ستصادف بعد بضعة اميال لافتة بالعبرية تشير الى خط الهدنة. وستجد الحراس الاسرائيليين على قمم التلال من الجانبين يأكلهم الضجر متلهفين على تسلية انفسهم باطلاق الرصاص على اي انسان. وهكذا تعجز عن الوصول الى مسقط رأسك وانت على قيد كيلو مترات قليلة منها!

وفتن انطون بالثقة ولهجة الجد اللتين يتحدث بهما وليد ، وازدادت مكانته في نظره وهو يسمعه يقول :

ـــ ان اهل ابي في الظهيرية فلاحون فقراء كما قلت لك . ويقيم معهم الآن عمي منير الذي هاجر معنا من بئر السبع وكانت له في ضواحيها أرض واسعة تغل عليه رزقا طيبا ، وكانت له غيضة برتقال وحديقة خضر ودواجن يبيع ثمراتها في سوق المدينة كل اسبوع . وقد صارت كل هذه الأراضي الآن وراء خط الهدنة . ولكننا نستطيع ان نراها عبر الوادي ونميزها بأجمة الزيتون . وعمي يقول ان من واجب الفلسطينيين التسلل عبر خط الهدنة لا لالتقاط شيء من ثمار بساتينهم المغتصبة أو لزراعة جانب من الأرض التي تسمى الآن بالشقة الحرام ـــ فذلك لا يستحق العناء والمجازفة ـــ بل للاتصال ببقية الفلسطينيين العرب المقيمين في الأرض المحتلة لتنظيم حركة جدية بالتعاون معهم . بيد انه يقول ان الأوان لم يحن بعد لتنظيم المقاومة . فلا بد لها من استعداد . ولكن يومها آت لا ريب . فليس أمامنا سبيل آخر لتحرير بلادنا بأيدينا كما هو واجبنا . ولا اكتمك اني كنت احلم اثناء زيارتي لوالدي في المالحة بأن القوات العراقية التي كنت ابصر معسكراتها خارج

البلدة سوف تتحرك يوما للانقضاض على حدود الأرض المحتلة والقضاء على اليهود وتحرير الوطن. ولكن هذا الحلم تبخر مع الزمن بعد ان اسعدني فترة من الوقت. وأنا الآن واثق ان فلسطين يجب ان يتحرر بيد ابنائه قبل كل شيء. وان الآخرين لا يمكن ان يساعدونا من غير ان نساعد نحن انفسنا. ولهذا السبب يا أنطون قررت ان اصبح معلما. فالمعلم له تأثير هائل على تلاميذه ويستطيع ان يحفزهم للنضال والتضحية. والنضال والتضحية في سبيل حرية فلسطين هما أحوج ما نحتاج اليه. وأتمنى بعد سنوات قلائل أن يتاح لي التعليم في مدرسة (الظهيرية).

— ١٣ —

وكان يوسف ينظر في اشمئزاز الى الحارة الضيقة الطافحة بالنفايات التي أمر بالدخول فيها عند وصولهم الى مدينة الخليل العتيقة . وازداد استياؤه وتوجسه عندما أمر بالوقوف بالسيارة قبالة بيت قديم متصدع يحتل واجهته حانوت لبيع المصنوعات الزجاجية الملونة والخرز والحلي الرخيصة ، كي ينزل السيد الصغير وصديقه .

ويوسف ينتمي الى بيئة كهذه تماما في اللد . ولو خير لاختار البقاء هناك قانعا بحياته ، ولكن امانته لعمله تجعله لا يرضى لابن سيده ما يرتضيه لنفسه . وقال قبل انصرافه انه سيعود انشاء الله بعد غد . وكرر ذلك لسيده الصغير في حزم . ولكن استياءه من نزول ابن بطرس منصور في هذا البيت لم يمنعه من

قبول الدعوة بكل سرور لاحتساء كوب من الشاي في ذلك الحانوت المتواضع قبل ان يتجشم مشاق الرحلة المضنية عائدا الى اريحا .

وصعد وليد مع صاحبه سلما معتما داخل البيت ليقدمه الى خالته وأبنائها وبناتها . وكان وليد يحب خالته لشدة شبهها بأمه التي كان يحبها اعظم الحب .. وخالته هذه سوداء العينين ، في منتصف العمر ، تتموج خصلات شعرها الأشيب فوق جبينها من تحت طرحة بيضاء ، وقوامها النحيل مختف تماما تحت ثوب طويل من الصوف الرمادي . وهي ذات ابتسامة عذبة وبشاشة استطاعت ان تمحو بهما خجل انطون المعهود امام الغرباء .

وكان واضحا جدا ان وليدا سعيد غاية السعادة بلقاء خالته وأولادها ، اذ قبل يدها ولاعب اولادها الصغار وبدا عليه الانطلاق على سجيته بصورة لم يعهدها فيه انطون من قبل ، وهو الذي يعرفه في المدينة متعاليا منطويا شديد الاعتداد بتفوقه الذهني . اما في اريحا فوليد على الدوام أبعد ما يكون عن الانبهار بالبيت الفخم والمكانة الاجتماعية الرفيعة التي يتمتع بها بطرس

بك . أما هنا في الخليل بين أهل امه فهو شيء آخر . انه فرد في أسرة .

وغبطه انطون على هذه الطلاقة التي لم يشعر بمثلها شخصيا وهو في بيت داود مع بنات عمته وزوجها ، فيما عدا بعض اللحظات القلائل التي يقضيها منفردا بابنة عمته « ثريا » .

وزوج خالة وليد صاحب ذلك الحانوت المتواضع رجل جم النشاط ، ذو شارب صغير انيق وابتسامة ودية لا تفارق شفتيه . ولديه قدرة على اجتذاب قلوب زبائنه واقناعهم بسهولة انه يكرم كلا منهم في الأسعار اكراما خاصا . وكان ابنه الأكبر فؤاد يساعده في أعماله ، وهو شاب وسيم رقيق الحاشية بارع في الاقناع براعة ابيه الذي اعفاه من العمل في ذلك اليوم ليصحب ابن خالته وضيفه في تجوالهما هنا وهناك داخل البلدة وضواحيها .

وتعجب فؤاد عندما عرف من انطون انه رغم بلوغه الثالثة عشرة لم يزر انجلترا مرة واحدة ، حيث يقيم جده لأمه . وسأله :

ــ الم تذهب والدتك الى وطنها مرة واحدة ؟

فابتسم انطون وقال :

ــ انها تقول دائما ان فلسطين وطنها .

ــ لم يعد لهذا الوطن وجود!

وعندئذ تدخل وليد في الحديث بسرعة قائلا:

ــ بل سيعود الى الوجود اذا جاهد الفلسطينيون لاستعادته!

ــ على أيام احفادنا أو ابناء احفادنا!

ــ بل قد يحدث ذلك في ايامنا. كل شيء يتوقف علينا!

ــ وما رأيك انت يا انطون؟

ــ وليد على حق يا فؤاد. فلو استطعنا تنظيم حركة للمقاومة في الأراضي المحتلة..

ــ فكرة جميلة. ولكنها مجرد حلم!

وعندئذ ثار وليد وقال لابن خالته:

ــ واسرِائيل؟ لم تبدأ فكرتها بحلم اشد من هذا الحلم امعانا في الخيال؟ لو سيطر هذا الحلم على قلوب مليون فلسطيني شاب فلا بد ان يحفزهم على تحويل الحلم الى حقيقة، بالاصرار والكفاح!.

○

ولم يصحب فؤاد وليدا وانطون الى الظهيرية في اليوم التالي

لأن اباه كان بحاجة اليه كي يعاونه في الحانوت. ولكن وليدا استعار منه دراجته للذهاب الى الظهيرية، وحصل لأنطون على دراجة اخرى، وانطلق الاثنان في الطريق الابيض المترب ــ طريق بئر السبع ــ صوب الحدود. وهي طريق كثيرة المنحنيات تحف بها التلال الجرداء البركانية والصخور وكتل الحصى والجلاميد، وبين الحين والحين كانت تطالعهما حقول صغيرة يحرثها رجال ونساء مستعينين بالجمال والبغال.

وقال وليد لأنطون وهما على الطريق:

ــ عندما كنا نقيم في بئر سبع كان من عادتنا ان نذهب بالسيارة العامة من هذا الطريق نفسه لزيارة خالتي في الخليل. وفي بعض الاحيان كنت اذهب الى هناك مع بعض اخوتي بالدراجة ونستريح في منتصف الطريق بالظهيرية. أما الآن فلا نستطيع ان نتجاوز الظهيرية بأكثر من تسعة كيلو مترات بسبب خط الهدنة. ولذا اصبح طريق بئر سبع مهجورا، وهو الطريق الذي كان يسلكه الناس من قبل الى القاهرة بغير عائق!.

وبعد ان قطعا في الطريق نحو ساعة انفسح الافق امامهما

وأبصرا قرية صغيرة على جانب تل يبعد عن الطريق قليلا فصاح وليد:

ــ الظهيرية! ولكني أحذرك من خيبة الأمل عندما ترى بيت جدي. فهم فقراء جدا. ولكنهم سيرحبون بنا أحر ترحيب.

وبين صفوف من البيوت المبنية بالطين وقد تصدعت جدرانها، وخرجت منها كلاب هزيلة نابحة يزيد عددها على عدد اشجار التين ويكاد يتساوى مع عدد الاطفال الحفاة في اسمالهم البالية، شق الرحالتان طريقهما. وفجأة ظهر غلام في جلباب رث مخطط ورحب بوليد وعانقه وقبل وجنتيه، وقدمه وليد لأنطون:

ــ ابن عمي سعيد.

وقال سعيد ان اباه وجده في الحقل ولكن امه والأطفال و «جدته» في البيت. وانه سيصحبهما الى الحقل بعد ان ينالا قسطا من الراحة ويشربا الشاي ويغتسلا.

ودخلا فناء تغمره الشمس ويلعب فيه عدد من الأطفال الصغار تحت نظر امرأتين احداهما بدينة عجوز والأخرى نحيفة شابة مليحة الوجه تعجن جانبا من الدقيق في وعاء امامها على

الأرض. ونهضت هذه الشابة ورحبت بوليد وضيفه. وعرف انطون انها عمة وليد وان العجوز جدته. وقام وليد بتقديم انطون وأوجز تارخ حياته في كلمات قلائل للمرأتين. وكان اهم ما اوضحه لهما ان اسرته من اللد وانهم من بين من اخرجهم اليهود من ديارهم. واظهرت المرأتان عطفا بالغا على انطون وما منيت به اسرته من الشدائد.

ثم خرجت زوجة عمه منير من البيت حاملة خوانا نحاسيا تعلوه اكواب الشاي، مرتدية ثوبا فضفاضا اسود اللون مزركشا من الجانبين بنقوش حمراء. وخيل لأنطون من فرط رقتها انها تطير في الهواء ولا تمشي على الأرض، وذكرته عذوبة ملامحها بأيقونة قديمة للسيدة العذراء.

وبعد احتساء الشاي وتبادل كثير من الاسئلة عن احوال الأقارب والمعارف نهضوا جميعا وتولى سعيد قيادة الغلامين وسط تيه من الأزقة الى الأرض المكشوفة التي تحف بها التلال.

ووسط الحقول التي يعمل بها الرجال والنساء في فلاحتها مستعينين بالجمال والبغال أبصرا دربا غير ممهد يسلكه الناس

ويؤدي في النهاية الى أرض عراء تحت سفوح التلال الصغيرة تشغلها عشرات من خيام البدو السوداء.

ولاحظ وليد ان انطون يرمق تلك الخيام السوداء باهتمام فقال له:

ــ هؤلاء ايضا لاجئون. لامورد لهم هنا الا عطف اهالي المنطقة الفقراء.

وعبر الثلاثة دربا آخر وساروا قليلا فوق التربة الحمراء الى ان بلغوا قطعة من الأرض يقوم بعزقها رغم وعورتها وكثرة الصخور فيها شيخ متقدم في السن، وشاب وسيم في نحو الخامسة والثلاثين.

وانتصب الرجلان عندما أبصرا الغلمان الثلاثة يقتربون منهما. ثم لم يلبثا ان اطلقا صيحات الدهشة والترحيب. ومرة اخرى كان على وليد ان يدلي لعمه «منير» وجده بالبيانات الكافية عن زميله وصديقه انطون. وما ان عرف منير بغرضهما من هذه الرحلة وهي مشاهدة (بئر سبع) عبر الوادي حتى تأججت حماسته واظهرا اهتماما بالغا، وتطوع من تلقاء نفسه بأخذهما الى ذلك الموضع من التلال الذي يستطيع الواقف فيه

ان يرى ــ عبر الوادي ــ ارض منير ، وبساتين البرتقال ، ومزرعة الدواجن ، وأجمة الزيتون التي استولى عليها اليهود ويستغلونها الآن اسوأ استغلال ! .

ـ ١٤ ـ

سار اربعتهم في درب وعر مسافة لاتزيد عن بضع ياردات الى ان بلغوا جانب التل فارتقوه، ليجدوا امامهم منظرا فسيحا لواد متماوج الأديم، تحده من الجانب الآخر سفوح جبال صغيرة قائمة الارتفاع كأنها الجدار الأصم، وقد بدت الأرض في أشعة الشمس اللطيفة في تلك الظهيرة من شهر ابريل «نيسان» جميلة وادعة.. فوقف السائرون برهة صامتين ينظرون في جنبات ذلك الوادي، وقد استولت عليهم مشاعر المفارقة المذهلة: بين الجمال الآمن والوحشية الغاصبة التي تتمثل في التفريق بين هذه الأرض الموروثة وبين ابنائها الذين امتزجت اجساد اجدادهم بترابها، ورووا اديمها بعرق جباههم سنين عديدة..

وقطع الصمت الحزين المتوتر قول الرجل المسن مهمهما:

«يا لارضنا الجميلة السليبة!».. وكأنما كانت هذه الكلمات ايذانا لكل منهم بأن يقول ما يجول في خاطره، فلمس منير ذراع انطون وقال له:

ــ أترى شجرة الزيتون تلك التي تترأى هناك عن يسارك، فوق مستوى الارض بقليل، عند اولى بداري هذا التل؟

ــ نعم. تلك التي هناك قرب النخلات الثلاث.

ــ تلك زيتوناتي. ومن تحتها حديقة خضرواتي. كيف لا يدري كل من ينعم بهذه الثمار انه انما يشتري سلعا مسروقة. سلعا مغصوبة من أصحابها الشرعيين؟

وتأثر انطون تأثرا شديدا، ولكنه غالب تأثره وقال: «يوما ما ستزرع هذه الأرض بنفسك مرة اخرى!».. فقال الشيخ المسن في همهمته الخفيضة: «ان شاء الله يا بني. ان شاء الله.».. ولكن منير اجاب بحدة: «سواء زرعتها أو لم ازرعها بنفسي، فيوما ما سأعود!»

ثم استداروا بوجوههم ومشوا بصمت عائدين الى الطريق الرئيسي، وقد اصبح طريق (بئر سبع) باديا للعيان بوضوح تحت

أقدامهم .. ذلك الطريق العتيق الذي يتلوى ويتعرج بين التلال الجرداء التي تطبق عليه من الجانبين .

واستوقف « وليد » « انطون » ليشير له الى الطريق ، وقال : «ليس في وسعك ان ترى (بئر سبع) من هنا ، لأنها تقبع متوارية هناك خلف تلك التلال . والحراس الاسرائيليون جاثمون على رأس التلال على جانبي الطريق » .

وقال منير : «اننا كثيرا ما نراهم ونحن نعمل هنا في الحقول ، ينظرون الينا من فوق ونحن نعمل . ونحن نعلم انهم هناك يرقبوننا ، وهم يعلمون اننا نعلم ذلك » .

فاستطرد وليد : «وعلى هذا الجانب نقطة مراقبة بها جنود من الحرس الوطني الأردني يستطيعون من موقعهم العالي ان يروا الطريق الى مسافة بعيدة بوضوح . وبتصريح منهم تستطيع أن تمضي حتى الاحجار البيضاء الدالة على خط الهدنة . فاذا تجاوزت ذلك الموضع وجدت الطلقات الاسرائيلية في انتظارك من جانبي الطريق . و (بئر سبع) لاتبعد اكثر من خمسة عشر كيلو مترا ، للسائر من هذا الطريق . تصور هذا ! انها مسافة لاتزيد على المسافة التي قطعناها من الخليل الى هنا ! ولكن الطريق لا يصلح

الا وسيلة للهداية المؤقتة، لأنك متى أوغلت في الوادي غاب الطريق عن نظرك وراء التلال. فاذا درت حول التلال صرت في محاذاة الطريق مرة اخرى.. !».

وكان «سعيد» قد لحق بهم، فقال ضاحكا: جميع التفاصيل واضحة في ذهن وليد. حتى لتحسبه وهو يتكلم قد اعد خطة مفصلة للتسلل!».

فأجاب وليد، جادا: «هذا صحيح. ولكن الأوان لم يؤن بعد. فلا بد لي من قضاء عطلات كثيرة اخرى هنا ادرس فيها كل صخرة وكل مسلك، الى ان يمسي في استطاعتي التعرف على طريقي في ليلة ظلماء لاقمر فيها. بل ينبغي ان آتي وأعيش وأعمل هنا حتى يألف جنود الحرس الوطني والبدو منظري ويصير في مقدوري ان اغدو واروح من غير ان اثير ريبتهم أو فضولهم!».

فرمق منير ابن اخيه بنظرة اعزاز وسرور وهم عائدون فوق الأرض المحروثة في اتجاه القرية، ثم قال بعد برهة:

ــ يبدو انك رتبت كل شيء سلفا!

ــ ليس كل شيء. ولكن كل شيء سيكون معدا بجميع تفاصيله عندما يحين وقت استعدادي للانطلاق..

وفي البيت جلسوا مرة اخرى في الفناء المشمس فوق عدد من الوسائد والحشايا، وانعشوا انفسهم باحتساء اكواب الشاي الصغيرة، في حين انصرفت النساء وبصحبتهن نساء الجيران اللواتي جئن كعادة العرب للمساعدة في المناسبات، كي يصنعن عدة الوان من الطعام فوق مواقد مكشوفة صنعنها من قوالب الآجر.

وفي خلال الانتظار الطويل لنضج الطعام، وجه منير الى انطون اسئلة حول المسيرة المشهورة من (اللد)، وحول الأحوال في (رام الله) عندما تدفق عليها المهاجرون من اللد وغيرها، وعن اريحا وما صارت اليه الآن.. وحدثه من جانبه عن بئر سبع.. وشعر انطون بحداثة سنه وعدم كفاءته لهذا الحديث، وتمنى لو ان اباه كان حاضرا لينهض بادارة دفة الحديث على خير وجه. بيد أن «منير» اعجب بالغلام كثيرا وناشده ان يقنع اباه بابقائه هنا فلا يرسله الى الجامعة في انجلترا بعد اتمام علومه الثانوية:

ــ ابق هنا واعمل مع «وليد» كي تكون واحدا منا!

واجاب انطون انه كان يود ذلك ولكن والده مصمم.

وأردف:

ــ في وسعي دائما ان اعود.

ــ ان شاء الله. ولكن المرء لا يستطيع ان يكون على يقينٍ من أمر العودة. فما ان تغادر مكانا ما حتى تجد من الصعب جدا في بعض الاحيان ان تعود اليه. هذه تجربتي وتجربة كثيرين.

وغدا الحديث عموميا. ونهض وليد بجانب كبير منه في براعة، ففاضت نفس انطون بالاعجاب به. فما أروع ان يكون للمرء صديق لامع كهذا. وتمنى من اعماق قلبه ان تمر السنون سراعا كي يقارب وليدا في المستوى الثقافي والذهني. وخطر بذهنه انه حينْ يغدو في السادسة عشرة ووليد في الثامنة عشرة لن تكون الهوة بينهما بهذا العمق.

وبعد أكثر من ساعة اقبلت زوجة منير فدعتهم الى الطعام، فنهضوا أولا الى ركن من الفناء حيث قام سعيد يصب الماء على ايديهم من ابريق نحاسي له ميزان طويل. وجففوا ايديهم بقطعة من القماش الابيض النظيف، ثم دخلوا الدار.

وبدا داخل الدار في البداية شديد العتمة. ولكن عندما

تعودت العيون على تلك العتمة رأوا أمامهم مائدة مستديرة منخفضة جدا ـــ «طبلية» ـــ موضوعة على الأرض في وسط الحجرة وعليها أطباق كثيرة، تتوسطها قصعة بها تل ضخم من الأرز باللوز، وقد دست فيه ارباع من الدجاج المحمر. وكانت النساء قد انتهزن فرصة انشغال الرجال بغسل ايديهم فأتين بالوسائد والحشايا من الفناء ووضعنها حول «الطبلية».

وجلس منير وابن اخيه وضيف ابن اخيه. ولما كان انطون ضيف الشرف في تلك الوليمة فقد دس منير يده في جبل الأرز واستخرج قطعة ممتازة من الدجاج المحمر قدمها اليه.

ولم يكن انطون قد جرب الاكل على هذه الطريقة من قبل. وقد وجدها طريقة طريفة، لولا انها صعبة على من لم يتعودها. وبطبيعة الحال كان اكل الدجاج باليدين اسهل من أكل الأرز بلقم كبيرة من الخبز.

ولم تأكل النساء مع الرجال بل انصرفن لخدمتهم. وعندما قارب الطعام نهايته ذهبت زوجة منير لتصنع القهوة، وعاد الرجال الى الفناء حيث غسلوا ايديهم واسترخوا فترة قصيرة فوق الحشايا وهم يحتسون القهوة العربية المرة السوداء.

وبعد قليل اعلن وليد انه لابد ان يشرع وصديقه انطون في رحلة العودة الى الخليل، فخرجت الاسرة عن بكرة ابيها الى الطريق الرئيسية لوداعهما، والحوا عليهما بتكرار هذه الزيارة في وقت قريب، ثم شيعوهما بالكثير من صيحات «مع السلامة» ودعوات الرعاية والتوفيق.

وقال وليد بحرارة، وهما يدرجان بين التلال الجرداء: «انهم قوم طيبون. وأنا أشعر دائما بالأسى عند فراقهم. ولكني سآتي يوما ما واعيش بينهم، وسأحضر معي والدي.» .. ثم ضحك ضحكة سعادة صافية، واستطرد: «سنكون عندئذ معا مرة اخرى، على طريق (بئر سبع)! واني لآمل ان تأتي عندئذ وتستقر معنا هنا. وسنعد العدة للتسلل الى (بئر سبع) معا يا عزيزي انطون!».

فأجابه انطون بحماسة:

ـــ ان شاء الله؟

ـ ١٥ ـ

تركت زيارة (الظهيرية) في نفس انطون اثرا عميقا، وظل يفكر فيها باستمرار عند عودته، ويدير في رأسه الأمور التي حدثه عنها «وليد» وعمه حول طريق (بئر السبع) القديم الذي لا يجسر الآن الانسان على السير فيه، بسبب قناصة اليهود المتربصين في إلتلال على جانبيه وعند منعطفاته الكثيرة.

وكان رد الفعل لديه لأحاديث وليد ـــ عن التسلل وانشاء حركة مقاومة داخل اسرائيل ـــ لايعدو ان يكون ضربا من خيالات صبيان المدارس في ذلك الحين، ولكن كانت في تلافيف هذه الخيالات بذور مختمرة لأفكار غرسها «وليد» في ذهنه الغض.

واستطاعت الحياة العادية في المدرسة ان تستأثر بعد حين بمعظم اهتمام انطون، ولم تعد القضية الفلسطينية ذات شأن كبير

في نظره. ووليد نفسه شغله الاستعداد للامتحانات عن الخوض في موضوع القضية الكبرى وتحرير الوطن السليب من ايدي الغاصبين.

وطغت حرارة الصيف المخيفة مرة أخرى على (اريحا)، فظل انطون مقيما في (رام الله). وارهقت هذه الحرارة أعصاب ماريان الى حد الاعياء، فراح بطرس يحثها باستمرار على الصعود الى التلال الرطبة. ولئن كانت غير ميالة للاقامة في رام الله مع منى وخليل، ففي وسعها على كل حال ان تقيم مع والدي نصري في بيتهم بضواحي القدس. وان كانت كارهة للذهاب الى هناك وحدها فهو مستعد ان يذهب معها وان يبقى بجوارها بضعة اسابيع.

وكان ردها على مثل هذا الكلام ابتسامة اعزاز، ثم كانت تعيد عليه قولها الذي تكرره دائما: «ان البقاء حيث نحن يتقاضانا مجهودا اقل من الانتقال الى اي مكان آخر، بحيث تبدو الحرارة في ظل الراحة امرا محتملا.».. فقد كانت تعلم ان بطرس لا رغبة لديه في مبارحة بيته بأريحا. وانه يفضل تحمل الحر المحرق على الاضطرار لمجاذبة اطراف الحديث مع من يلتقي بهم

من الناس متى غادر ذلك البيت ، فان (دار السلام) بأريحا هي واحة الأمان الوحيدة له في هذا العالم المنقسم.

.. وكذلك كانت زوجته ماريان ، تؤثر عذاب الحر على ضجة الحياة العائلية الصاخبة في بيوت اصهارها. وكانت تذهب الى سوق اريحا احيانا مع الطاهي يوسف أو زوجته لشراء لوازم البيت أو احضار البريد. وكان والدها يرسل اليها الطبعة الاسبوعية من «التايمز» بالبريد الاسبوعي ، كما ترسل اليها امها بطريق البحر احدى المجلات النسائية الحافلة بوصفات للطهو بعيدة عن التوفيق ، ونماذج للازياء أشد بعدا عنه ، وقصص غرامية لا يمكن ان تدخل في عقل انسان راشد. وكانت امها تصر على موافاتها بتلك المجلة كي تبقى على اتصال بما يجري من حياة عائلية للطبقة الوسطى في انجلترا. ومن حين لآخر كان والدها يرسل اليها ملحق «التايمز» الأدبي لتظل على اتصال بالثقافة الانجليزية والعالمية.. وهكذا كانت ماريان تجلس في الشرفة بجوار المروحة عندما يشتد الحر ، وتأخذ في تقليب صفحات هذه المطبوعات وفي ذهنها من الهمود ما يمنعها حتى من قراءة العناوين بطريقة مجدية !

اما في المساء فالحرارة تهبط بضع درجات ولكنها لا تصل الى الحد المنعش، فتتعشى ماريان مع بطرس في الشرفة التي تطوقها الاسلاك الرفيعة بشبكة تمنع عنها الهوام ولاسيما الناموس. ومن جوف الظلام الحالك تترامى اليهما اصوات الجنادب في الحديقة. وبين الحين والحين يأتيهما عن بعد صراخ ابن آوى، فترتعد فرائص ماريان خوفا.. وبمجرد الانتهاء من تناول العشاء وانسحاب الخدم، يضطجع الاثنان في كراسي القش المنخفضة ويصغيان للاذاعات.. ففي بعض الليالي تذيع محطة بيروت برنامجا جيدا عن الموسيقى الغربية. ولكنهما يهتمان في الغالب بالاصغاء للانباء وللاغاني الشرقية الغرامية التي تفيض اسى وشجنا.. ثم يأويان في النهاية الى فراشهما، لا ليخلدا للنوم ــ لأن الحرارة الخانقة لا تسمح بذلك ــ بل لمجرد الاستلقاء تحت المروحة الكبيرة المعلقة في السقف والاسترسال في احاديث متقطعة، تفصلها فترات صمت طويلة.

وفي بعض هذه الاحاديث قد تثير ماريان ذكر الحياة السابقة في (اللد) وحين تصمت تفكر بينها وبين نفسها في زوجة بطرس الأولى، ويخامرها الفضول بصددها، رغم ازدرائها

لها . أما بطرس فيطرق في شرود ويفكر فيما عساها كانت تكون عليه حياة ماريان لو انها لم تسمح لنفسها بالتورط في زواجه . انها كانت حرية الآن ان تكون في انجلترا مع ابويها متزوجة من رجل انجليزي يقاربها في السن، بدلا من الاضطجاع فوق هذا الفراش مع رجل مسن عليل، تصطلي حرارة اريحا المحرقة تحت مستوى سطح البحر ! .

وعندما تلح عليه هذه الافكار الحالكة ، كان يتحسس في الظلام باحثا عن يدها ، كي ترتد اليه الطمأنينة عندما يتلقى على يده ضغطة الاستجابة من يدها .

وفي احدى تلك الليالي ، قال : لماذا تزوجتني ياعزيزتي المسكينة ماريان؟ ماذا كسبت من وراء ذلك ؟» .

ــ شيئين : انت وانطون ! .

ــ زوج مسن وولد وحيد . وحتى البيت المناسب ضاع من يدك . ولم تبق لك الا (اريحا) على مدار السنة ! .

ــ لطالما احببت (دار السلام) واحببت اريحا .

ــ انك لم تذوقي عذابها في اغسطس «آب» من قبل ! .

ــ اعترفي على الأقل انك تتوقين لانجلترا منذ حللنا هنا ! .

ـــ لماذا تقول هذا؟ اني لم اتشوق الى انجلترا! بل تشوقت للد ولـ (دارة الخير)! ولكن كان من الجائز ان نهلك في البرية كما هلك كثيرون غيرنا. فالحمد لله اننا وصلنا سالمين الى هنا واجتمع شملنا! ان الحر شديد فلا تجعلني ابكي لكلامك هذا!.

ثم تنفجر باكية فيخفف ذلك من توترها العصبي.

○

وفي أول ذكرى للخروج من اللد استولت على بطرس رغبة محمومة في السفر الى الحدود والنظر عبر السهل الساحلي الى البحر. وربما استطاع ان يقف في موضع ما يبصر منه اللد نفسها. وفي هذه الحالة لا بد من تصريح مر السلطات العسكرية. ولكن مثله لن يجد عناء شديدا في الحصول على ذلك التصريح.

واستولى الأسى على ماريان عندما أخبرها برغبته في طلب ذلك التصريح وقالت:

ـــ كيف يمكن ان تتحمل منظر اللد من بعيد وانت عاجز عن دخولها؟ سيكون وقع ذلك سيئا عليك.

ـــ بالعكس. ان السجين يجد سلوى في مشاهدة زوجته عندما تزوره من وراء القضبان، مع انه عاجز عن معانقتها!

ـــ ولكن الانفعال سيكون قاسيا عليك!

ـــ لن آخذك. سآخذ معي انطون وسيتولى يوسف القيادة.

ـــ لا أستطيع البقاء هنا وتركك تمضي مع انطون. وما دمت مصمما فسنذهب كلنا كما قطعنا كلنا تلك المسيرة عند الخروج. وأنا واثقة ان المسألة كلها خاطئة من اساسها!

ـــ ليس بالنسبة لي ياعزيزتي. ان هذه الرحلة لاغنى لي عنها. وانها اشبه بالذهاب الى الكنيسة في عيد الميلاد أو عيد الفصح! انها قرار مقدس. بل حج!.

- ١٦ -

أعدت الترتيبات للقيام بهذه الرحلة في صباح السبت كي يتسنى لأنطون الاشتراك فيها. وانطلقوا بمجرد شروق الشمس مخترقين الوادي الى (رام الله). وكان يوسف كارها للقيادة في البرية فاقترح الذهاب عن طريق القدس، على اعتبار ان الحالة الآن هادئة.. ولكن بطرس اعترض بشدة، لا خوفا من القناصة بل لأنه كان لا يطيق ان يرى المدينة المقدسة مقسومة، وان تكون بعض معالمها الحبيبة في أيدي اليهود!.

وتذكرت ماريان في تلك الرحلة اسفارها القديمة. وتذكرت على الخصوص رحلة القدوم الى اريحا منذ سنة، في أول عهدهما بالهجرة. ووقع نظرها على مخيمات اللاجئين من البدو، وحول خيامهم السوداء قطعان الماعز، وبضعة جمال ترعى الشوك في

البرية ، وعجبت كيف يستطيع الناس ان يعيشوا في ارض خالية من الماء .

ووصلوا الى (رام الله) في نحو الثامنة صباحا ، فاذا بالهواء المنعش محمل بعبير اشجار الصنوبر ، فراحا يملآن صدريهما في سرور وكل منهما يرمق الآخر باسما . ولا شك ان يوسف لم يكن اقل منهما سرورا وهو يستنشق ذلك الهواء المنعش أمام عجلة القيادة . وكانت رام الله قد خلت تقريبا من اللاجئين الذين كانوا يبيتون على أرصفة شوارعها وفي ظلال زيتونها ، بعد ان قامت السلطات بترحيلهم الى معسكرات اقيمت على سفوح التلال .

وكان فريد وماجدة ونادية وانطون ووليد وبنات داود يتناولون جميعا الافطار في الشرفة الكبيرة بالطابق الأول ، عندما وقفت سيارة بطرس منصور امام بوابة الحديقة ، ونفخ يوسف في بوقها ، فنظر الجميع صوبها واسرع انطون يهبط السلالم لاستقبال أبويه .

وكان وليد موجودا لأن انطون الح على ابيه في اصطحابه الى (بدرس) وهي قرية على الحدود تواجه (اللد) . وكان سرور وليد عظيما عندما سمح بطرس بك بذهابه معهم . والحقيقة انه استبشر بقيام آل منصور بتلك الرحلة لأنها ستقوي من شعور

انطون بمأساة الاحتلال والتقسيم حين يقف على الحدود ويرى مسقط رأسه على مرمى البصر وهو عاجز من الوصول اليه لأن الغاصبين يحتلونه ! .

ومكث آل بطرس منصور ساعة لتناول القهوة وتبادل الأخبار ومنها أن نصري عين في الفيلق العربي ، وان نادية ستضع طفلها الجديد ــ من زوجها ــ في نهاية الشهر ، وسيحضر نصري يومئذ في اجازة . أما « منى » وخليل فكانا غائبين عن الدار في زيارة لوالدي خليل في « جنين » الواقعة في الشمال . واعتذر فريد عن عدم قبول الدعوة للانضمام الى المسافرين صوب (بدرس) لأنه بدأ مشروعا جديدا هو ادارة « جاراج » مع لاجىء فلسطيني آخر ، وعليه ان يعنى بأشياء كثيرة منها انه سينتقل مع ماجدة ونادية الى « شقة » في وسط المدينة بالقرب من « الجاراج » بعد ولادة الطفل مباشرة .

واتفقت كلمة الجميع على ان بطرس يبدو منحرف الصحة ، وان ماريان يبدو عليها الاعياء ، وانهما يخطئان خطأ فادحا بالبقاء في اريحا طوال الصيف ولهما بيت مفتوح

لاستقبالهما في رام الله. ولم يجب بطرس وماريان على ذلك كله بغير الابتسام والاعتذار.

وفي النهاية انطلق الركب صوب (نعلين)، وانطون يشرح لصديقه «وليد» معالم المسيرة التي قطعاها في البرية مع عشرات الألوف من المهاجرين من (اللد). وكيف ان الحظ واتاهم فوصلوا سالمين لأن سيارة زوج عمته خليل داوود حضرت لتقلهم من مسافة بعيدة. ولكن ألوفا غيرهم هلكوا في البرية!.

وعند قرية (نعلين) طلب انطون من أبيه أن ينتظروا قليلا كي يرى صديقه «وليد» معالم المغامرات التعسة التي حدثت فيها منذ عام، وكيف كان عشرات الألوف يتكالبون على نبع الماء الوحيد!.. أما بطرس وماريان فكانا ينظران الى هذه المواضع المثيرة للشجن ولا يتكلمان.

وبعد قليل استأنفت السيارة مسيرها الى نقطة للمراقبة يحف بها نبات التين الشوكي، فأبرز بطرس التصريح الذي يحمله، وركب في مؤخرة السيارة رجل من الحرس الوطني

ليصاحبهم حتى قرية (بدرس)[1]، وبطرس جالس بجوار السائق قابضا بيديه على عصاه ومنحنيا الى الامام مطبق الشفتين، يحدق في السهل الساحلي المترامي من تحته، ذلك السهل الذي يفضي الى البحر. انه سهل فلسطين المحرم على الفلسطينيين!.

وعلى جانبي الطريق كان الأطفال الحفاة العجاف يخرجون بعيون لامعة ليلوحوا بأيديهم للسيارة وليجروا وراءها. وعندما انتهى الطريق الوعر الى موضع لا يصلح لمسير السيارة، توقف يوسف ونظر الى سيده متسائلا. فقال له بطرس: «انتظروا».

ثم نزل، تتبعه ماريان والصبيان وجندي الحرس الوطني الذي قادهم الى مرتفع من الأرض على سفح التل، وراء آخر بيت من بيوت القرية. وهناك وقفوا جميعا ينظرون الى السهل من تحتهم. وعلى مسافة قريبة، وسط الضباب الذي تصعده الحرارة الشديدة، قال لهم الجندي ان مدينة (اللد) تقبع هناك. ثم خلع نظارة الميدان من عنقه وسلمها لبطرس الذي شكره ووضعها

(١) دمر اليهود بالقنابل تلك القرية الصغيرة بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ، وفي سنة ١٩٥٣، عندما هاجموا في نفس الوقت قرية (قبية) القريبة منها ونسفوا بالديناميت ٤٢ بيتا على سكانها!.. ومن فر منهم حصدوه بالرصاص، فكانت مذبحة أشبه بمذبحة (دير ياسين)!.

على عينيه وراح يضبطها، ثم جمد في مكانه وركز حواسه كلها في عينيه: ها هي مآذن المساجد وأبراج الكنائس وصهريج الماء. ها هي المعالم المألوفة في المدينة الحبيبة. وبعد دقيقتين التفت الى ماريان ومد اليها يده بالمنظار وهو صامت، ولكنها هزت رأسها.. فقال انطون في لهفة بالغة: «انا من فضلك يا ابي».

فقدم اليه ابوه المنظار، ولم يلبث ان صاح الفتى: «كل شيء يبدو في غاية الوضوح!».

فقال بطرس بألم: «ما عدا بيتنا!».

ــ ولكني أرى بيوتا كثيرة غيره. واشجار النخيل في الحدائق. انظر ياوليد! هاهي اللد! وبيتنا هناك وفيه كل مقتنياتنا. تصور!.

وتناول وليد المنظار من أنطون. واعتمدت ماريان على ذراع زوجها وقد اشتد اضطرابها، فربت على يدها بحنان، وتراجعا صوب السيارة تاركين انطون يشرح لصاحبه «وليد» معالم بلده. أما هما فلم يتكلما وانما جلسا في السيارة صامتين اذ لم يكن لديهما ما يقولان في تلك اللحظة التي تفيض مرارة وألما تعجز الألفاظ عن سبر غورها..

ـ ١٧ ـ

وبعد هذه الرحلة ساءت حالة قلب بطرس، الذي عارض ماريان في استدعاء الطبيب من رام الله ــ فهو لا يؤمن بالاطباء وحسبه ما لديه من عقاقير ــ وأبى أن يصغي لما تكرره زوجته عن الأدوية المبتكرة لعلاج القلب. وهو على الخصوص لا يريد أن يعلم احد من أقاربه بمرضه حتى لا يحتشدوا حوله ويحملوه قسرا الى المستشفى الأمريكي. انه يأبى أن يبارح (دار السلام) في اريحا الا ليرقد في منازل السلام رقدته الأبدية في القدس.

وخلال شهري يوليو «تموز» واغسطس «آب» القائظين كان يمضي سحابة النهار في شرفة الطابق الأرضي وأمامه بساتين البرتقال التي توهمه اوراقها الخضراء المتشابكة بأنها تلطف الحرارة بعض الشيء. ولم يصعد الى الطابق العلوي مرة واحدة بعد

عودته من زيارة الحدود لأنه أصيب بنوبة قلبية عقب وصوله الى اريحا مباشرة.. وكانت أسوأ نوبة أصابته حتى الآن.

ولم يكن يستطيع ــ وهو جالس في الطابق الأرضي، في ظلال اشجار السرو ــ ان يرى معسكر اللاجئين، على سفح التل الأجرد، ولكنه ليس بحاجة الى رؤية المعسكر كي يتذكر ألوف الرجال والنساء من المسنين والأطفال الذين ينتظرون هناك يوم العودة الى ديارهم وأراضيهم، وهم في أسوأ حال، يقتاتون بالنزر اليسير من الصدقات!.

وكانت أنباء الأذاعة والصحف تتحدث عن «لجنة في الأمم المتحدة لرعاية أحوال اللاجئين الاقتصادية».. ولكنه لا يثق باللجان الا بمقدار ما يثق بالاطباء! وهو واثق ان اللجنة ستقترح مشروعات للعمل في البلاد التي تستضيف اللاجئين، متجاهلة ان الفلسطينيين لا يريدون الا شيئا واحدا. وهذا الشي الواحد هو: العودة!

وبالفعل تكونت في ديسمبر «كانون الاول» وكالة للاغاثة والتشغيل لرعاية اللاجئين الفلسطينيين. ولكن بطرس منصور لم يبلغه هذا النبأ، لأنه كان قد مات منذ ثلاثة شهور!

لقد وافاه الأجل فجأة في أوائل اكتوبر «تشرين الأول» بعد عيد: ميلاد انطون الثالث عشر، في ساعة مبكرة من الصباح. وكانت ماريان قد غادرت الحجرة التي ينامان فيها لتستنشق الهواء في الشرفة، عقب استيقاظها كعادتها كل يوم. وصافحت انفها رائحة القهوة منبعثة من المطبخ. وفجأة سمعت صرخة متحشرجة من ورائها، فالتفتت لترى بطرس جالسا على حافة الفراش يحملق فيها ولا يستطيع ان يتكلم.. وقبل ان تصل الى المنضدة لتأتيه بالحبوب المسكنة كان قد سقط بثقله كله بين ذراعيها، فصاحت:

ـــ انطون! انطون!.

وأسرع الصبي اليها، ورأى وجه أبيه، وادرك كل شيء!

○

وفي الليل رقد الفتى وأمه في الظلام جنبا الى جنب وتذكرت ماريان كيف كان بطرس يرقد هكذا ويمسك بيدها ويقول لها:

ـ عندما ينقضي أجلي لا تبقي هنا. اذهبي الى ابويك في انجلترا. ولابد لأنطون من الذهاب الى هناك عما قريب على كل حال. وسيتولى خليل ادارة هذه الضيعة، وسيكون لديك من المال ما يكفي لارسال انطون الى المدرسة. لن تكون لك حياة هنا من بعدي. أما أنا فقد انتهت حياتي منذ غادرت اللد..

لقد كان هذا حديثه أيضا اليها عشية الصباح الذي وافته فيه المنية فجأة.. وكانت هذه مشيئته.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكتاب الثاني





— ١ —

توجه «روبرت ملبي» الى مطار لندن لاستقبال ابنته «ماريان» وحفيده «أنطون» .. وكان قد غادر — منذ أحد عشر عاما — هو وزوجته «الزبيت» البلاد التي كانت تسمى (فلسطين) من مطار كهذا المطار في طريقهما الى الوطن، أو ما كان الناس يسمونه الوطن، أما هو والزبيت فكانا يعتقدان أنهما انما يغادران وطنهما الحقيقي، لأن (يافا) هي وطنهما وليست لندن! .. يافا أو فلسطين بأسرها. ولكم ذرفت الزبيت الدمع وهي تلوح بيدها من نافذة الطائرة في ذلك اليوم، مع ان ابنتها ماريان وطفلها كانا قد غابا عن الانظار منذ وقت طويل.. وراحت تنهنه متمتمة لنفسها والطائرة تشق طريقها صاعدة:

— ترى متى نراهما مرة أخرى يارب؟

وها قد جاء جواب السماء. فهذا المساء القارس من أمسيات نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٤٩ ــ بعد احد عشر عاما ــ هو الموعد الذي حدده القدر لذلك اللقاء المنشود. ومع ذلك لم تأت الزبيت الى المطار، وجاء روبرت بمفرده، لأن زوجته مشغولة باحدى حفلات تلك الجمعيات العديدة ــ بين خيرية ونسوية ــ التي تسهم في نشاطها وتكاد تأكل حياتها أكلا. ولم يكن في وسعها الاعتذار وهي من خطباء الحفل!.

لقد قيل لروبرت ان صديقه «بطرس منصور» مات بعلة في القلب، لأنهم في علم الطلب لايعرفون شيئا اسمه «تحطيم القلب» على اثر صدمة مزلزلة. ولكن روبرت ملبي يعرف عن يقين ان فلسطينيين كثيرين عدا بطرس منصور لابد انهم ماتوا بتلك العلة ذاتها بعد «النكبة»!.

ان هذه النكبة هي التي تأكل اليوم قلب ماريان ايضا ولا شك. ماريان التي غدت وحيدة في الدنيا. اجل ان لديها ابنها، ولكن المرأة بحاجة قطعا الى «شيء ما» أكثر من الابن لمواجهة الحياة. ولكن كان هذا الابن فخورا بأبيه في طفولته. وان جده لأمه ليرجو اليوم ان يجد فيه حفيده مدعاة للفخر أو الثقة على

الأقل. أن يجد فيه رجلا متزنا ذا همة، يعتز كثيرا بأنه كان فيما مضى صديقا حميما لأبيه الراحل.

لقد كتبت ماريان الى أبيها قائلة: «ان الصبي يشعر بأنه ينتمي الى آل منصور أكثر من انتمائه الى آل ملبي. وذلك بشير خير على كل حال. فلا بد للفتى أن يشعر بعروبته. بأنه عربي. وبأنه فلسطيني. وأنه من سلالة شعب مظلوم مضطهد.. شعب أبيه المنكود».

وفجأة أبصر بهما «روبرت ملبي» من باب بهو الجمرك المفتوح واقفين الى جوار حاجز مثقل بالحقائب، وماريان بدون قبعة كعادتها، وقوامها رشيق أنيق كالعهد به، والى جانبها فتى نحيل يضارعها في الطول: فتى وسيم ذو بشرة زيتونية.. فتى عربي!.

وفرح قلبه بمرأى حفيده، وتطلعت ماريان الى أعلى ورأته، فلوحت له بيدها، وقالت للفتى شيئا ما، فنظر حيث اشارت له أمه، ثم لم يلبث بعد لحظة أن ابتسم على استحياء ولوح بيده لجده.

واشتد تزاحم الناس وتدافعهم بعد ذلك فابتلعهما ذلك

المد، وانقضت فترة طويلة قبل أن يبرزا الى البهو الرئيسي للمطار. وخيل الى ماريان وهي تملأ عينيها من أبيها أنه لم يزل على نحافته وانتصاب قامته المعهودين في أبناء انجلترا، ولم يطرأ عليه تغير يذكر سوى اشتعال رأسه شيبا وزحف السن الى محياه. ولكنها قالت له في حماسة وهي تعانقه في غمرة السعادة باللقاء:

ـــ أنت كما أنت.. لم تتغير قيد انملة!.

وضحك، وان لم تخدعه كلماتها. فهي ايضا قد تغيرت. ولم يفته ادراك ذلك رغم نحافتها ورشاقتها. فها هو الشيب قد دب الى شعرها الداكن، وهذه خطوط قد ارتسمت هنا وهناك على محياها، فهي لم تعد تلك المرأة الفينانة في باكورة الثلاثين، بل امرأة في أواسط الأربعين. ولا عجب! فاحدى عشرة سنة ليست بالفترة القصيرة في عمر المرأة.. ولا سيما اذا كانت تلك المرأة قد عانت ألوان الويل والعذاب.

وابتسم روبرت ملبي لأنطون، وخاطبه بالعربية قائلا:

ـــ اذن انت ابن صديقي بطرس منصور!.

فابتسم الفتى بارتباك، وقال باستحياء:

ـــ اني أعرف الانجليزية أيضا. وفي وسعك ان تكلمني بها.

ــ أعرف هذا. ولكني أحب أن نتكلم العربية بين الحين والحين، فاني أحب وقع حروفها على أذني. ولي أمد طويل لم أسمع أحد يتحدث بها...

وسألت ماريان أباها أين أمها، فقال لها انها لم تستطع التحلل من ارتباطها باحدى لجانها وجمعياتها الكثيرة، وانها ستكون في البيت عندما يصلون الى هناك. وسألهما بعد ذلك عن رحلتهما، فقالت ماريان: لقد كان الجو دافئا جدا في اريحا عندما غادرناها. وكان الطيران مملا».

ــ وهل راقت الرحلة انطون؟

ونظر كلاهما صوب أنطون الذي قال: «كانت لا بأس بها»، فقالت ماريان وهي تحاول عبثا أن تخفي تقطيبها بابتسامتها:

ــ لم يكن راغبا في المجيء.

فقال ملبي: «لست ألومه على هذا»، ثم وضع الرجل يده برفق على كتف الصبي وقال:

ـــ لا تكترث كثيرا لهذا النفي، فانه لن يطول الا أعواما معدودة. أما أنا فالنفي بالنسبة لي سيدوم الى الأبد!.

فقالت ماريان بلهجة الشكوى:

ـــ انه لا يرى سببا يدعو لمجيئه الى هنا على الاطلاق.

ولم يحاول أنطون أن يدلي بأي تعليق. وعندئذ قال ملبي أنه استأجر سيارة تحملهم الى البيت. وخرج ثلاثتهم من مبنى المطار ووقفوا على الرصيف في انتظار حضور سيارتهم من الموقف. وكانت الريح باردة ومحملة بالمطر، فارتجف أنطون كارتجافه عندما برز من باب الطائرة لأول وهلة ففاجأه الجو البارد بعد دفء الطائرة.

أجل، كان الجو يتسم بالبرودة في (رام الله) شتاء، ولكن ليس لهذا الحد. فما أشبه البرد هنا في لندن بضرب خفي من الرطوبة، يتسرب تحت سطح الجلد ويتغلغل حتى العظام. ومن العجيب أن الجو في صباح هذا اليوم نفسه كان حارا في اريحا. أما في عمان عند الظهر فكان شديد الدفء.

واستقلوا سيارتهم أخيرا، وراح أنطون يتطلع من النافذة الى امتداد الحظائر الواسعة القبيحة الشكل في أرجاء المطار، ثم الى

المصانع السابحة في الأضواء على طول الطريق الى الضواحي التي تحفل بالفيلات الصغيرة التي تتراجع كل منها عن الطريق العام وراء حاجز صغير من الخضرة!

وكان جده الانكليزي ينظر اليه ويقول في نفسه مسرورا:

ــ ياله من فتى أسمر... تلك السمرة العربية الفاتنة!

وشاعت البهجة في محيا الصبي بعض الشيء عندما وقع نظره على أول لمحة من مياه نهر التيمز، وهم يجتازون احدى قناطره، وبدا له النهر اللندني واسعا جدا بالقياس الى نهر الأردن. وازداد تهلل وجهه عندما تجلت امام ناظريه الغابات والمروج في ضوء مقدم السيارة بضاحية (ومبلدن). فها هنا فراغ ووحشة وخضرة، وهي أشياء يعرفها جيدا ويأنس اليها.

وسمع صوت جده يقول له:

ــ لولا الظلام لاستطعت ان ترى عند حافة هذا المنتزه العام بناء المدرسة التي ستدخلها.

وأرسل أنطون بصره يحاول أن يخترق الظلام في الاتجاه

الذي أوما اليه جده، وأردف ملبي قائلا: «وإنها لمدرسة جيدة. وستحبها كثيرا».

وصمت أنطون برهة ثم سأل جده:

ــ أهي المدرسة التي كان أبي يريد أن يلحقني بها؟

ــ نعم. وقد طلب اليّ منذ سنوات أن اسجل اسمك فيها كي أحجز لك مكانا. وكان مسرورا جدا لذهابك يوما ما الى المدرسة التي درست فيها أنا..

وأسرعت ماريان تقول: «وأنا أيضا راقتني الفكرة كثيرا».

واستطرد ملبي:

ــ وهي مدرسة نهارية. وسيكون في مقدورك أن تعيش في البيت معنا. فها نحن أولاء. وهذا الباب الأزرق باب بيتنا.

ودهش أنطون لصغر حجم بيت جديه. فهو لايكاد يزيد شيئا عن حجم الأكواخ التي كان يقيم بها الفلاحون في ضيعة والده باللد! ورأى على مدخل البيت من الخارج مصباحا معلقا وظلة يعرش فوقها نوع من الكرم. واستطاعت عينه أن تميز في ظلام الحديقة الصغيرة أشجار الورد.

أما أمه فصاحت بحبور وهي تترجل من السيارة:

ــ ياله من بيت صغير عزيز! لا عجب أن تفتنا به أنت وأمي! وهو يطل ايضا على المنتزه العام مباشرة. فكأنكما فعلا وسط الريف! وها هي ماما!

وأقبلت سيدة أنيقة شهباء الشعر تخترق الممر بخطوات سريعة، وتكرر العناق والتقبيل والترحيب على نحو ما حدث في المطار، وقبلت الجدة أنطون وضمته الى صدرها ضما شديدا، وأخذت تصيح به:

ــ لكم غدوت فارع الطول، ولم تكن سوى طفل يدرج على الأرض عندما رأيتك في آخر مرة!.

وظلت تحملق فيه بانتشاء أورثه ارتباكا. وذكره منظرها بمنظر طائر يعرفه، فعيناها ثاقبتان كعيني الطائر وحركاتها سريعة كحركات الطيور، وفيها شيء يذكره بالمنقار وحركته. وعقدت أخيرا ذراعها بذراعه ودخلا البيت، فداخله احساس بعدم الارتياح، لأنه شعر بها وكأنها ــ على هذه الوتيرة ــ قد وضعت يدها واستولت عليه!.

والواقع أن وجود حفيدها تحت سقفها كان يعني الشيء الكثير في نظر الزبيت ملبي. وكانت نعتقد في قرارة نفسها أن

ماريان لو كانت غلاما لتغير نهج حياتها كثيرا . ولقد كان وليدها الأول غلاما ، بيد أنه مات في باكورة طفولته . والطفل الذي تمنت أن يملأ الفراغ الذي خلفه الغلام الراحل جاء أنثى ... وصارت الأنثى ـــ ماريان ـــ ابنة أبيها . ولم يكن في ذلك ضير ، لأن روبرت ملبي رجل متزن ، ولكنه جعل حياتها خاوية . وما أكثر ما منيت به من خيبة الأمل . ولكم حاولت أن تتحمل تلك الصدمات بقلب مؤمن ، ولكن ضعفها كان يغلب عليها ، ويرين عليها من ذلك ألم وشعور بالضياع والغبن .

لقد خيل اليها في وقت ما أنها أقدمت على حياة كلها رومانسية ومغامرة ، حين تزوجت من روبرت ملبي ومضت معه الى الأراضي المقدسة كي تكون عونا له في ادارة مدرسة للغلمان العرب المكفوفين ... ولقد أحبت كثيرا البيت الذي سكناه في يافا ، ولكنها لم تحب يافا نفسها . وكانت ذروة أملها في الحياة بفلسطين أن تنتقل يوما ما الى القدس .. وكان شعورها الديني المتحمس يجعلها تنظر بوله وهيام الى كل شجرة زيتون تراها على جانب التل ، على أمل أن تكون عين السيد المسيح قد وقعت على تلك الشجرة ذاتها في مدة حياته هناك . ولكن روبرت ملبي كان

يهدم لها آمالها تلك بقوله ان ذلك غير مرجح، لأن أشجار الزيتون لا تعمر كل تلك القرون العشرين!.

وكانت تقول في نفسها أن روبرت ملبي رقيق الحاشية جدا، طيب القلب بمعنى الكلمة، ومع هذا ففي مقدوره أحيانا أن يكون قاسيا جارحا. بل انه كان في الواقع أول صدمة وأول خيبة أمل منيت بها. فهو ابن رجل من رجال الدين، وفي اسرته كثير من رجال الارساليات المنتشرين في العالم، ولكنه لم يكن صادق الايمان بالمسيحية. لأن اطلاعه العلمي جعله ينظر نظرة شك الى كثير من المواقع التي يسميها الناس أماكن مقدسة في فلسطين، وقد بلغ به شكه أنه نعت الكثير من تلك المعتقدات بأنها «هراء». أما هي فكانت على العكس منه، تواقة للانتقال الى القدس أو بيت لحم، حيث المزارات التي يقدسها المسيحيون المخلصون. أما روبرت، فكان يحب (يافا) ويفضلها على كل مدينة أخرى في فلسطين، لا لشيء الا لأنها مدينة اسلامية خالصة. أو على حد تعبيره هو لأنها مدينة عربية خالصة.

وانها لتعتقد في قرارة نفسها أنه لولا اقامتهما في مدينة يافا لما انغمس روبرت على هذا النحو في الحركة الوطنية العربية

بحماسة بالغة سافرة، ولما ترتب على دلك استدعاؤهما الى لندن. وكذلك لولا اقامتهما في يافا لما اتيح لابنتهما الوحيدة أن تلتقي لبطرس منصور!

وليس معنى هذا أن الزبيت كانت تضمر شعورا عدائيا نحو بطرس منصور، فهو في نظرها رجل ظريف ومسيحي لا غبار عليه سوى أنه ارثوذكسي، في حين أن آل ملبي من غلاة الانجليكان. ثم أن بطرس منصور في سن والد ماريان. وانه لمن المحرج بلا شك أن يكون زوج البنت في سن حماه! وقد أصر هذا الزوج العربي المسيحي على أن يتم عقد القران في الكنيسة الارثوذكسية. وكذلك تمت معمودية انطون في تلك الكنيسة ايضا، وهذه كلها صدمات أورثت الزبيت خيبة الأمل.

وجاءت بعد ذلك خيبة أمل لا شك فيها أيضا، وهي العودة الاضطرارية، والاقامة في انجلترا مرة اخرى، ومعاناة برودة الشتاء القاسية هناك. هذا بالاضافة الى معركة بريطانيا المحطمة للاعصاب، ليل نهار. وازداد شعور الزبيت بخيبة الأمل حينما رفض روبرت أن يصحبها الى الكنيسة يوم الأحد، كما رفض في ايام الاسبوع أن يبدي اهتماما بنشاطها الخيري والاجتماعي.

ولم يكن من عادة الزبيت أن تشكو أو تنتقد، لأنها ربيت على تقبل الأمر الواقع في صبر وجلد. ثم ان روبرت رجل طيب في أعماق سريرته، وابنتهما الوحيدة ماريان شبت ذكية كأبيها وطيبة القلب مثله. وكانت مثله ايضا في محبتها للعرب. ولئن كانت أقرب بعواطفها الى ابيها منها الى امها فتلك هي سنة الطبيعة التي لا حيلة فيها. كما ان ارادة الله هي التي شاءت ان تحرم الزبيت من الولد الذي كان حريا ان يتعلق قلبه بها. وليس لامرأة مؤمنة مثلها ان تناقش ارادة الله. ولذا حاولت على الدوام الا تسمح للمرارة بالتسرب الى أغوار سريرتها، وأن تجعل حياتها نافعة لنفسها وللناس، وأن تنظر دائما بعين الرضى والشكر الى النعم الكثيرة التي أفاضها الله عليها.

ولم تتمالك الزبيت نفسها ـــ عندما وصلت انباء وفاة بطرس منصور فجأة ـــ من الشعور شعورا مختلطا مزدوجا متناقضا: بالرثاء لماريان، وبالأمل المشبوب في أن تسعد هي أخيرا بعودة وحيدتها الى انجلترا مع الغلام، فيتسنى لها أن تعرف حفيدها وأن تجد فيه بديلا من ابنها الذي حرمت منه قبل الأوان.

وأبرق روبرت ثم كتب تفصيلا بالبريد يستحث ابنته على

الحضور الى انجلترا . وردت عليه ماريان بأن ذلك هو رأيها أيضا ، وأنها ستأتي ومعها انطون بمجرد الفراغ من اجراءات نقل ملكية ضيعة اريحا الى خليل داود ، وتسوية جميع التفصيلات المترتبة على حصر التركة . ولم تكن الزبيت تعلق أملا كبيرا على جو التقارب الحميم بينها وبين ماريان . بل كانت تتوقع أن يكون التقاؤهما أشبه بالتقاء الغرباء . أما تعويلها كله فكان على ذلك الحفيد الصغير أنطون ، وعلى أن تنشأ بينها وبينه صلة مودة تتجاوز كل ما كان بينها وبين ابنتها . وانها لترى فيما حولها من البيوت اطفالا كثيرين يرتبطون بأجدادهم أكثر من ارتباطهم بآبائهم وأمهاتهم . ولذا كان شوق الزبيت الى حفيدها العربي أشبه بحنين الاحشاء . وهي لاتجد غضاضة في أن يكون حفيدها عربيا . وان كانت تؤمل في قرارة نفسها أن يأتي اليوم الذي تختفي فيه تلك اللمحات العربية لتحل محلها لمحات مكتسبة من الاقامة المستمرة في جو انجلترا . سيما بعد ان ينخرط انطون في سلك المدرسة العامة . وسيساعده على ذلك بلا شك ما ورثه عن امه من عينين زرقاوين . وحاولت ان تغالط نفسها في لون بشرته الزيتوني ، وامتلاء شفتيه ، وقوة انفه ، ذلك الأنف الذي ورثه عن آل منصور .

انه الحب من أول نظرة. فقد كان تأثير الغلام على جدته صاعقا، بوسامته وقامته. وانه لحفيد تفخر به أي جدة. وقد صار غاية أملها الآن أن يشعر الغلام لها بشيء ولو قليل من المعزة والمودة، فيعوضها هذا القليل عن كثير جدا مما تشعر أنها حرمت منه!.

○

أما ماريان فقد وجدت ـ بعد تلك الغيبة الطويلة جدا عن انجلترا ـ أن من العسير عليها أن تتأقلم بالحياة الانجليزية والمناخ الانجليزي، فجعلت ترتجف ارتجافا غير قليل في أيام الخريف الرطبة، مع أن والديها ظلا يؤكدان لها ان الجو في خريف تلك السنة معتدل جدا. وكانت امها تقول عاتبة:

ـ لندن ليست بطبيعة الحال مثل اريحا! ولكنها ليست أشد برودة من رام الله أو القدس في مثل هذا الأوان من العام.

ولم تكن هناك جدوى من تذكيرها بأن البرد في رام الله أو القدس برد جبلي جاف يبعث العافية في البدن، أما هذا البرد اللندني فرطب يتسلل الى النخاع. وكانت تنصح ابنتها على الدوام

بالخروج للسير السريع الناشط في المنتزه العام، باعتبار ذلك السير هو الوسيلة الفعالة لتنشيط الدورة الدموية والتغلب على آثار البرد القارس.

ولم تكن الزبيت تجهل ان صدمة ماريان بوفاة بطرس من أشد العوامل تأثيرا في هبوط روحها المعنوية وضعف مقاومتها للحالة الجوية، فكانت تردف: « ولكنك لن تلبثي أن تتغلبي على هذه الصدمة. فمن رحمة الله بنا جميعا أننا نحن البشر نتغلب على كل متاعبنا بفعل الزمن».

وكانت لهجة الأم رقيقة وصادرة عن احساس صادق بمصيبة ابنتها، ولكن التعبير لم يكن يواتي الزبيت بسهولة، لأنها فقدت منذ زمن طويل القدرة على التعبير عن عواطفها وعطفها واعزازها، لأن روبرت كان قد قتل ذلك كله لديها منذ سنوات طوال!

وكانت ماريان تعرف ما تضمره لها أمها من العطف، ولكنها في الوقت نفسه تدرك أنه من المستحيل على تلك الأم أن تفهم احساسها، لأنها لم تجرب قط في حياتها الحب المشبوب، ولم ينزل بساحتها ذلك الحرمان الموجع الذي لا يستطيع احداثه

في حياة المرء الا الموت. أجل ان فقدان ذلك الطفل ــ الذي مات في الاسابيع الأولى من عمره ــ ربما كان موجعا لقلب الزبيت، ولكنه لايمكن أن يقارن بذلك الفقدان الفاجع لشخص كامل النمو قريب الى النفس بعد معاشرة دامت أمدا طويلا من الزمن.

ان اربعة عشر عاما من الحياة الزوجية يمكن ان تعتبر في نظر بعض الناس فترة قصيرة. والحقيقة انه لولا النكبة الفلسطينية لامتدت هذه الحياة عشر سنوات أخرى على الأقل. وليس صحيحا على الاطلاق ان كل شيء يمكن أن تذهب الأيام المتوالية بلذعته ومرارته. فبطرس لم تستطع الأيام المتوالية أن تنسيه بيته المغصوب ووطنه المسلوب وكرامته القومية والانسانية التي داسها اليهود بالاقدام.

لم يستطع بطرس أن ينسى طعم الهزيمة، وطعم المهانة، وضياع الشخصية القومية. ولم يستطع ان ينسى ــ بمرور الزمن ــ أنه فلسطيني، ولم يستطع في أي وقت من الأوقات أن يدعو نفسه اردنيا. وفي النهاية غلبه القهر على أمره، ومات كسير

القلب محطم الروح. وكان شقيقه فريد على حق عندما قال وهو يذرف الدموع بجانب جثمانه:

ــ لقد قتلتك اليهود يا أخي. قتلوك بالغم والتشتيت وعار الهزيمة!.

أجل، لم يكن من اليسير على ماريان ــ في جو الخريف الانجليزي القاسي ــ ان تتأقلم جسدا وروحا وهي تتمشى في منتزه (ومبلدن) مع ابيها أو مع أنطون أو بمفردها تماما. كانت الذكريات الحزينة تهاجمها على الدوام، فلا بد لها من العثور على شيء تشغل به وقتها، كي تنسى خمائل البرتقال وأشجار السرو وشمس اريحا الحارة، مثلما نسيت (اللد) من قبل... ينبغي بأي شكل من الأشكال ان تتعلم كيف تعيش بدون [illegible]. بطرس الذي كان لها زوجا وأبا وحبيبا وصديقا مدى أربعة عشر عاما. بطرس الذي عاشت في كنفه، والذي تعلقت به في شغف لامزيد عليه وهي شابة، ثم تعلمت بمرور الزمن أن تتعلق به تعلق الشكر وعرفان الجميل وهي في أواسط العمر.

ان عليها الآن أن تعلم نفسها بنفسها كيف تعيش في أعماق وحدتها، تلك الوحدة الحميمة التي لا يستطيع حتى

أبوها ، صديق بطرس وشبيهه في خلائقه ، أن يتغلغل الى قرارتها .

ذلك كله ثقيل الوقع على نفسها ، مثلما كان ثقيل الوقع على نفس انطون أن يفقد اباه الذي يعتز به ويحبه ، وأن يجد نفسه ــ وهو العربي المتحمس لعروبته ــ رهين المنفى في انجلترا ، مهما تحدثوا اليه عن جمالها وما تقدمه له من فرص التعليم والتثقيف .

ستظل انجلترا ــ لأنطون ولأمه على السواء ــ أرض المنفى ، ما داموا بعيدين عن الوطن الحقيقي .. عن فلسطين ! .

— ٢ —

كانت السنة الأولى بطولها ـــ بالنسبة لأنطون ـــ فترة من الحيرة، والتجارب الجديدة، والمناظر غير المألوفة. وكثيرا ما دهمته هذه الأحوال الطارئة وأفقدته زمامه، فلم يكن يجد ملاذا له سوى الحديث بينه وبين نفسه، متوجها بنجواه الى صديقه وليد. ومع انه كان يسطر الى وليد صفحات لا تحصى في ذهنه، الا ان كل محاولة لتدوين جزء ولو يسير من هذه الخواطر على الورق كان أقوى من طاقة احتماله، فلم يستطع ان يرسل الى صاحبه سوى بطاقات بريد ملونة عليها صور تمثل برج لندن، وميدان الطرف الأغر بحمائمه المشهورة، وسيرك بيكاديلي، ومنتزه (ومبلدن) بطاحونة الهواء المشهورة، والكنيسة التي يذهب اليها يوم الأحد مع جدته. وتطورت هذه البطاقات فيما بعد فحملت الى وليد

نسخا من الصور المشهورة التي يحفل بها المتحف الأهلي للفنون .

وكان وليد يدرس كل هذه البطاقات البريدية بعناية واهتمام، ويحتفظ بها بين صفحات كتبه وكراساته مسرورا بها، ولكنه لم يكتب الى صديقه سطرا واحدا، مع أن ذهنه أيضا كان حافلا بالخواطر والأحاديث التي يبثها صاحبه، في نجوة من الناس، كلما خلا الى نفسه!.

ولم يكن مكان انطون في المدرسة مهيئا لاستقباله قبل الفصل الدراسي الثاني في شهر يناير «كانون الثاني». وفي الشهور التي سبقت ذلك الموعد بذلت ماريان قصارى جهدها كي تعرفه بمعالم لندن، التي بدت لأنطون مترامية الأرجاء بصورة لا يصدقها العقل، فكأنما هي جملة مدن كبيرة تصب في موضع واحد بحيث يتداخل بعضها في بعض.

وكان يخيل اليه ــ حين ينظر الى لندن من فوق قمة احدى السيارات العامة ــ انها تمتد امتدادا لامتناهيا، كامتداد الصحراء. بيد انها والصحراء على طرفي نقيض، فلندن تضج بالحياة والحركة والضوضاء، والصحراء يرين عليها الصمت والخلاء. وكانت أكبر مدينة رآها من قبل هي اللد، التي لا يزيد

عدد سكانها عن خمسة عشر ألفا. أما رام الله فلم تكن حينئذ أكبر من قرية كبيرة الا بمقدار غير محسوس. وأما اريحا فلا تزيد في حجم سكانها على شارع رئيسي واحد. وأما القدس القديمة، بأزقتها التي تموج بالمارة والحمير والسلع، فشيء آخر. ولكنها لا تضاهي في حركة مرورها الدائبة مدينة لندن، بما فيها من سيارات خاصة وسيارات أجرة وسيارات عامة ضخمة عالية حمراء. والناس جميعا في هذه العاصمة العجيبة يرتدون الثياب القاتمة، بل ان الابنية ذاتها كانت قاتمة. والسماء من فوق الناس والأبنية قاتمة ايضا. والسيارات الكبيرة معظمها امريكية، ولكن عددها بدا له قليلا جدا بالقياس الى السيارات الانجليزية الكثيرة العدد، الصغيرة الحجم.

وقد أثار اهتمامه كوبري (برج لندن)، وكان من حسن حظه أن يراهم يفتحون ذلك الكوبري العملاق لتمر من تحته سفينة كبيرة عالية. ولفت نظره اتساع نهر التيمز، وشدة قذارته، فهو لا يستخدم للري أو الشرب بل تأتي أهميته الكبرى من تلك السفن الضخمة التي تمخره قادمة من جميع أرجاء العالم.

وتركت زيارة انطون لبرج لندن اثرا في نفسه ، فاشترى نخبة من بطاقات البريد التي تصور نفائس ذلك البرج ليرسلها تباعا الى وليد . أما كنيسة القديس بولس فذكرته من بعيد بقبة الصخرة في القدس. وذات يوم ، وهو متجه الى قلب لندن بالقطار ، لمح من النافذة مسجدا هو احد مسجدي لندن الكبيرين. وقد جعله منظر المسجد يزداد ايناسا بالمدينة الكبيرة ، ففيها شيء من وطنه الأصلي. وقد ذكرت له جدته أيضا أن بها كنيسة ارثوذكسية . ومع هذا ظل حنينه الى فلسطين أقوى من مغريات المدينة الكبرى على الدوام . وظلت رائحة «الفلافل» تداعب أنفه ، وتذكره بالحوانيت الصغيرة المنبثة في شوارع وطنه وحواريه ، كلما ارخى المساء سدوله .

حتى اريحا بجوها الحار وصحرائها المحرقة وبحرها الميت ، كانت تداعب مخيلته فيشتد حنينه اليها ، ويتمثل له ابوه جالسا في الشرفة ، واضعا كفيه فوق مقبض عصاه الفضي ، تلك العصا التي كانت الشيء الوحيد الباقي له من ثروته الكبيرة في اللد . ولكن أنطون لم يكن يتذكر اللد بمثل ذلك الحنين ، لأنه لا يستطيع أن يتذكرها الا مختلطة أشد اختلاط وأعنفه بالرعب

والمخاوف . ولذا يحس في أعماق نفسه بأن العودة الى اللد في حكم المستحيلة ، ولكن جده يقول له ان المستحيل كلمة لا معنى لها ، وأن وطن الفلسطينيين لابد أن يعود يوما ما الى أهل فلسطين .

○

قبل دخول المدرسة ببضعة اسابيع ، شرع أنطون في العمل تحت اشراف مؤدب خاص ، كي يتسنى له الانتظام في المدرسة الجديدة ابتداء من شهر يناير « كانون الثاني » . وكان في كل صباح يعبر المنتزه العام مع جده الى بيت كبير عتيق يضم عددا من المكفوفين . وكان فريق منهم مصابا بالصمم أيضا . فهواية جده الآن ، وقد تقدمت به السن ، أن يساعد في الترفيه عن أولئك الناس والحديث اليهم . وقد تعلم أنطون منه كيف يخاطب الصم بلمسات يدوية مرهفة . وكثيرا ما حدث روبرت ملبي حفيده عن المدرسة التي كان يديرها في يافا ، وكانت تضم المكفوفين من المسلمين والمسيحيين واليهود ، على قدم المساواة .

وفي تلك النزهات ايضا كان روبرت يحدث حفيده عن

الحركات الوطنية العربية في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية، وكيف نكث الانجليز وعودهم للعرب بأن يمنحوهم الاستقلال، عندما حاربوا الاتراك في فترة الحرب العالمية الأولى. وكيف أن قصة انجلترا مع العرب هي قصة الخيانة والخديعة على طول الخط. فأيقن انطون أن حقيقة مأساة شعبه الفلسطيني ـــ التي أدت الى قتل ابيه وقتل مئات الألوف من مواطنيه ـــ انما ترجع أسبابها الحقيقية الى ذلك الموقف الغادر الذي وقفه الحكام الانجليز من العرب عموما. ومن الفلسطينيين على وجه الخصوص.

ولكم تعلقت روح أنطون بتلك النزهات مع جده ـــ فما أشد ما كان يذكره بأبيه ـــ فازداد شغفا بذلك العجوز المستقيم النفس، النزيه التفكير. ولا عجب اذن أن يكون شعوره نحو جدته أقل حرارة من شعوره نحو جده بكثير. انه يأنس الى صحبتها ـــ ما في ذلك شك ـــ ولكن ذلك الأنس ليس صادرا عن تعلق حقيقي، بل عن عدم مبالاة! فهو يذهب معها صباح كل يوم أحد الى الكنيسة، ويجد راحة نفسية في جو تلك الكنيسة الانجليزية، وهو أقل عتمة بكثير من جو الكنيسة

الأرثوذكسية الصغيرة في اريحا. وقد أدهشه في بداية الأمر أن يجد الرجال والنساء يجلسون متجاورين، لأن الناس في لندن لا يعرفون الفصل بين الجنسين. وكانت نفسه تحن بين الفينة والفينة الى سماع الالفاظ العربية التي تردد في كنيسة أريحا، عندما يتلو القسيس الصلاة أو يردد الشمامسة التراتيل. ولكنه لم يكن يحدث أحدا بحنينه الى وطنه. حتى ولا جده الحبيب الذي يحب ذلك الوطن، فقد ابقى لنفسه حلمه المشترك مع وليد: حلم طريق بئر سبع، الى أن يحين الوقت، فتنتهي فترة هذا النفي ويعود الى تلك الأرض التي كانت يوما ما جزءا من فلسطين!.

○

وأخيرا، في شهر ديسمبر «كانون الأول» كتب الى وليد يقول:

ـــ يا عزيزي وليد، أرجو أن تكون قد وصلتك البطاقات البريدية التي ارسلتها اليك. ويؤسفني أني لم استطع ارسال خطاب اليك قبل هذا، لأني كنت مختلط التفكير بسبب الحياة

الجديدة من جميع الوجوه التي تحيط بي هنا . لقد أخذوني لمقابلة ناظر مدرسة «كلية الملك» التي سأنتظم في صفوفها في يناير «كانون الثاني» القادم، وكان الرجل لطيفا جدا معي، وحسن الظن بي، ولكني سأؤدي امتحانا تحريريا يسمونه امتحان القبول في هذا الشهر، فاذا كتب لي النجاح فيه تقدمت للامتحان الشفوي أمام لجنة . وهذا هو النظام المتبع مع جميع المتقدمين للالتحاق بالمدرسة . وجدي واثق أنني سأنجح . وهو شخصيا كان تلميذا بهذه المدرسة نفسها في سنة ١٩٠٥ . وأنا لا أعتقد أن الدراسات ستكون مختلفة كثيرا عن الدراسة بمدرسة الاصدقاء، ولكني سأضطر في الغالب للجد ليل نهار، مدة ثلاثة أشهر على الأقل، تحت اشراف مدرس خاص . ولذا قد لا أكتب اليك مرة أخرى قبل مضي مدة طويلة، ولكن أرجو أن تثق بأنني افكر فيك طول الوقت، وفيما كنا نفعله معا ونتحدث فيه ونرسم خططه . وأرجو أن تكون أحوالك على ما يرام من جميع الوجوه . وقريب ان شاء الله سأعود ونستأنف جولاتنا معا . تحياتي الى فؤاد .

وقد سعد وليد كثيرا بتلقي هذا الخطاب وقرأه عدة

مرات ، في الفصل ، وفي الفناء ، وفي بيت عمه بالليل . ولكنه لم يكتب ردا عليه لأن الرد على الرسائل لم يكن من عادته . وهو متأكد أن صديقه لاينتظر منه ردا . ويوما ما سيجتمعان بجسديهما وينفذان معا الخطة التي رسمها عمه منير . أما الآن فهي فترة انتظار وترقب واستعداد .

وفي عيد الميلاد تلقى وليد بطاقة بريد تفيد نجاح انطون في الامتحان التحريري بتفوق . ورد وليد عليه ببطاقة ملونة عليها صورة قبة الصخرة المقدسة ، كتب على ظهرها تحياته وتحيات أصحابه .

ومرت فترة طويلة اخرى قبل أن يكتب انطون الى وليد . وكانت رسالته هذه المرة طافحة بشكواه من رطوبة جو لندن ، ومن قسوة شتاء انجلترا ، بحيث اصيب انطون بالبرد ولم تفارقه الرجفة التي لم تنفع في ايقافها مواقد الفحم في حجرة جلوس جده الصغيرة . وحدثه بالتفصيل عن مدرسه الخاص « جيرالد جونز » الذي اصيب بشلل الأطفال وهو في السنة الأخيرة بجامعة اكسفورد ، فانقطعت دراسته وصار يتنقل في ارجاء البيت والحديقة على مقعد ذي عجلات ، ويقضي وقته كله في المطالعة ،

فلديه مكتبة ضخمة، وأظهر مستر جونز اهتماما كبيرا بالشرق الاوسط والبلاد العربية بوجه خاص، وأبدى عطفا كبيرا على الفلسطينيين. وكان ينوي قبل مرضه أن يزور تلك البلاد بمجرد تخرجه، ولكن كارثة مرضه قضت على ذلك كله. الا انه وجد في صلته بأنطون منصور فرصة طيبة للحديث عن فلسطين وأحوال أهلها.

ولكم امتلأت نفس مستر جونز بالهلع والاستنكار عندما وصف له انطون المسيرة الرهيبة من اللد الى رام الله. واحتقن وجه الرجل الانجليزي المثقف بالغضب والسخط على تلك القوى الشريرة التي تحالفت ضد هذا الشعب المسالم البرىء.

وشرح له أنطون بعد ذلك رأي صديقه وليد الذي هاجرت أسرته من بئر سبع، وكيف انه يؤمن بقدرة الفلسطينيين على استرداد أوطانهم وديارهم اذا هم نظموا صفوفهم أحسن تنظيم. وكيف ان بعض كبار السن يرون ذلك أمرا شبه مستحيل... فقال له مستر «جونز»:

ـــ وما وجه استحالته يابني؟ لكم شهد التاريخ من امبراطوريات قامت على البطش والقوة الغاشمة، ثم هزمتها شعوب

عزلاء الا من قوة الايمان وسلاح الاصرار والتضحية. ولقد رأينا بأعيننا هذه الأمبراطورية البريطانية تتلاشى بعد بقاء وشموخ، وكانت الشمس لا تغرب عن ارجائها ــ وان كان الهنود الوطنيون الظرفاء يقولون ان الشمس لم تكن تغرب عن الامبراطورية لأن الله لايثق بالانجليز لو أسدل عليهم ستار الليل ــ!! ومع هذا غربت شمس تلك الامبراطورية العتيدة، وتحررت الشعوب التي كانت ترسف في قيودها. والرايخ الثالث ــ رايخ هتلر ــ الذي كان «الفوهرر» يقدر له البقاء ألف سنة على الأقل، أين هو الآن؟ لقد انتهى وصار أثرا بعد عين!.. فكيف يداخل أحد الشك في زوال دولة ملفقة كاسرائيل، بحيث يتحرر فلسطين؟ ان الظلم يقضي على نفسه، والشر يأكل بعضه بعضا، لأن عوامل الفساد والفناء في صميم تكوينه. هذا هو حكم التاريخ، وهذا هو تياره الحتمي الذي لامحيص عنه.

ولم يسطر انطون هذه الاحاديث على الورق، ولم يبعث بها في رسائل الى وليد، ولكنه سجلها في قلبه، وادخرها ليوم يلتقي فيه بصاحبه على أرض الوطن.. للقيام بعمل مشترك.

○

ولن ينسى انطون ــ ما عاش ــ حادثا وقع له في اسبوع عيد الميلاد ورأس السنة. فقد أخذه جداه الى بضعة بيوت انجليزية صديقة في تلك الفترة، ليشهد جانبا بارزا من الحياة الاجتماعية الانجليزية. وكان الناس في تلك السهرات الصغيرة يبدون اهتماما مهذبا به، ويقدمون له اشربة حلوة، ويسألونه عن دراسته وعن بلاده، وهل بها مدارس انجليزية على مستوى حسن، ومنهم من كان يطلب اليه ان يتحدث بالعربية كي يسمع تلك اللغة الغريبة!.

وفي احدى تلك السهرات أقبلت عليه امرأة بدينة، حمراء الوجه، يملأ النمش الكبير محياها، وقالت له:

ــ لقد سمعت انك من اللاجئين. ولذا اردت أن أشد على يدك محيية، لأنني كنت دائما ذات ميول موالية لليهود،وأنتهز كل فرصة للدفاع عنهم وتأييد حقوقهم.. فقد كانت جدة أمي يهودية..

وارتبك أنطون أمام ابتسامة السيدة وأدرك التباس الأمر عليها، فقال:

ـــ انا آسف يا سيدتي.. يعني.. انا لست يهوديا. بل مسيحي.

واذا بالاشراق والتهلل يختفيان من وجه المرأة البدينة، كأنما ابتلعته الأرض فجأة، وسألته بحدة:

ـــ ألست لاجئا..؟

ـــ بلى. نحن لاجئون، أعني اسرتي لاجئة.. ولكننا لاجئون فلسطينيون. فقد كان ابي فلسطينيا.. عربيا!

ـــ ماذا تقول؟ عربي؟!

وراحت المرأة تنظر اليه بامتعاض وفزع، كأنما هو قد قال لها انه من المصابين بالجذام مثلا.. ثم جذبت ذراع رجل كان يتحدث بقربها الى فتاة وقالت له:

ـــ هل سمعت ما قاله هذا الفتى؟ انه يقول انه عربي!؟

وراح الرجل ينقل بصره بينها وبين أنطون ثم قال:

ـــ وانه لكذلك فعلا. فهو نصف عربي على الأقل. انه حفيد روبرت ملبي، وماريان ملبي كانت متزوجة من فلسطيني عربي.

وابتسم الرجل ابتسامة ودية للغلام ثم التفت الى الفتاة

التي كان يتحدث اليها ، وانتهز أنطون هذه الفرصة وابتعد عن المرأة التي ظلت تحدق فيه باستنكار وكأنها رأت عفريتا ! .

ولما روى أنطون هذا الحادث لجده ابتسم الرجل الطيب تلك الابتسامة التي كانت تذكره دائما بابتسامة أبيه وقال له :

ــ انك ستلقى يابني الكثير من هذا هنا . فسواد الشعب البريطاني غير المثقف ظل يسمع عن اللاجئين اليهود منذ سنوات طويلة قبل الحرب العالمية . أما اللاجئون العرب فلم يسمع الشعب الانجليزي عنهم شيئا تقريبا . فاذا قيل أمامهم « هذا لاجىء » ظنوا انه لاجىء يهودي ، وليس لاجئا من العدوان اليهودي !

○

وفي عطلة عيد الفصح كتب أنطون خطابا مطولا آخر الى صديقه وليد يخبره بانتظامه في المدرسة ، ودخوله التدريب العسكري كي يتعلم التصويب بالبندقية ، وكيفية استخدام المدافع الرشاشة المختلفة ، واشتراكه في سباق اختراق الضاحية . وحدثه ايضا عن مدرسه الخاص الذي انتهت مدة عمله معه ،

ولكنه يزوره كصديق في عطلة الاسبوع.. وان مستر جونز يقترح عليه ان يعمل بعد تخرجه في وكالة اغاثة اللاجئين التي انشأتها الأمم المتحدة. وقد وافق جده على هذه الفكرة ورتب مع ناظر المدرسة اعداده للالتحاق بمدرسة العلوم الاقتصادية التابعة لجامعة لندن للحصول منها على دبلوم في العلوم الاجتماعية..

وفي هذه الرسالة أيضا ترددت شكوى أنطون من جهل زملائه بالمدرسة بأحوال فلسطين، ومعظمهم كانوا يعتبرون كلمة فلسطيني مرادفة لكلمة يهودي، ويعجبون لوجود عرب في فلسطين! وكل ذلك بطبيعة الحال نتيجة للدعاية اليهودية المتلاحقة..

وأخبر أنطون صديقه بأن روح الزملاء قد بدأت في التحسن ببطء، وانه يأمل في التغلب على أفكارهم الموروثة ضد العرب بمرور الوقت. وأن أمه قد التحقت بعمل منذ بداية العام في دار للنشر تهتم بأمور الشرق الأوسط، وتقيم بمسكن في وسط لندن، ولا تأتي الى بيت أبويها الا في عطلة الاسبوع. وانه أحيانا يذهب الى مسكنها في عطلة الاسبوع ليقوما معا باكتشاف مجاهل لندن..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم ينس أنطون في النهاية أن يؤكد له مواثيق الصداقة ، وأن اليوم آت لا ريب فيه للعمل معا في ميدان الكفاح الوطني ، بعد ان تنتهي فترة هذا «المنفى» .

ــ ٣ ــ

كان الاعتقاد السائد ــ لدى جديّ أنطون ووالدته وأساتذته في المدرسة ــ انه «تأقلم» و «تكيف» بالجو الانجليزي والحياة الانجليزية على أتم وجه ممكن. ولكن «جيرالد جونز» وحده ــ بما كان يعرف عن التأقلم والتكيف بصورة علمية وعملية ــ هو الذي كان يشك كثيرا جدا في حقيقة ذلك التكيف الرائع المزعوم.

لقد كان أنطون في ظاهر أمره فتى «انبساطيا» غير منطو على نفسه، يشارك في النشاط المدرسي ولا سيما في ملاعب المدرسة وفرقها الرياضية بشتى أنواعها، ويسهم في التدريب العسكري بشغف كبير ويبذل جهدا كبيرا في مناوراته ومبارياته الشاقة، ويحرص على الابتسام والدمانة وتقبل النكات اللاذعة

بصدر رحب، وكانت معظم نكات رفاقه في المدرسة تنصب على «الشيوخ» و «الحريم» وحياة القبيلة في الصحراء!.

ولكن الى جانب هذا لم يكن أنطون يعتبر تلك الروح الاجتماعية الشائعة بين الزملاء ذات صلة ما بالصداقة الخاصة. فالكل صحاب له ورفاق مرحون، وهو مرح ودمث مع الجميع، ولكن ليس له صديق بالمعنى الخاص لتلك الكلمة. وكثيرا ما كان يذهب الى رحلات ونزهات في نادي التجديف بالمدرسة.. أو في نادي الطيران صباح يوم الأحد، أو يزور زميلا في بيته يكون قد أبدى نحوه فهما خاصا وهو من الطلاب الفقراء الذين يتعلمون بالمجان لتفوقهم ـــ على خلاف المستوى السائد بين التلاميذ وكلهم من أبناء الميسورين ـــ ويتناول لديه «الشاي الكبير». وفي بعض الاحيان كان يزور بيت زميل آخر قريب من بيت جده ليشاهد التلفزيون، لأن جده لم يقتن ذلك الجهاز المبتكر. وكان اسم هذا الصديق «مايكل لندلي». وأحيانا كان يذهب معه لمشاهدة أحد الأفلام «الجبارة» ـــ على حد تعبير مايكل ـــ وفي احدى دور السينما القريبة من البيت. ومعظم هذه الافلام «الجبارة» تدور حول الحرب والمغامرات. ولم تكن هذه

الموضوعات تعني أنطون كثيرا، ولكنه كان يذهب مجاملة لزميله، ولأن الموافقة أسهل عليه من الرفض أو الاعتراض.

أما الأشياء المحببة اليه حقا فهي التنزه سيرا على الأقدام مع جده في المنتزه العام الكبير، أو السير بمفرده في الغابة وهو يرسل خواطره الى بعيد، حيث يصحب «وليد» في رحلات ذهنية ووطنية، ويفكر في أحلامها التي يحس انها أصدق وأكثر واقعية من هذا الحاضر الذي يعيش فيه منفيا، قلبا وقالبا.. ويتلو تلك النزهات في المكانة والايثار نزهاته يوم الأحد مع أمه وزياراتهما للمتاحف الفنية، وأحاديثه الدسمة المثيرة للذهن والقلب مع معلمه السابق المصاب بشلل الأطفال «جيرالد جونز».

ولم يدر بخلده طبعا أن «جيرالد جونز» يمكن أن يحل في قلبه محل صديقه العربي وليد، لأن جونز كان في الخامسة والعشرين، وهي سن تبدو لأنطون كبيرة نسبيا بطبيعة الحال، بيد انه كان يحب تلك الحجرة المبطنة جدرانها من الأرض الى السقف بالكتب، في ذلك البيت الكبير القبيح الشكل.. ويحب تلك المعاملة السمحة التي يعامله بها استاذه السابق، وهي معاملة الند للند، التي تخفف عن كاهله الشعور القاسي بعدم

النضج، ذلك الشعور الذي كثيرا ما عانى منه حتى وهو في صحبة وليد بشخصيته الطاغية.

بل انه مع جونز يستطيع أن يكون صاحب اليد العليا، لأنه يتحدث اليه عن فلسطين وأحوالها، ويجيب على أسئلة جونز التي يوجهها اليه بطريقة تشعره بأنه مصدر هام للمعرفة، وما أحب ذلك الى نفس أنطون بعد ساعات الدرس الطويلة التي يتلقى فيها المعلومات من أساتذة يعتبرونه جاهلا على الدوام، ويشعر أمامهم فعلا بأنه جاهل. وشتان ما بين هذا الشعور، وذلك الشعور الذي يوحيه اليه جونز وهو يصغي لاجاباته في تقدير واهتمام.

وكذلك كانت مسز جونز ــ والدة جيرالد جونز الأرملة ــ تعامله بمودة وكأنه رجل ناضج، وتسأله رأيه في بعض نوابغ الممثلين الانكليز الذين يشهد أفلامهم أحيانا، مثل «السير جوينس» الممثل والمخرج العبقري.. وهو احساس لا توحيه اليه جدته ولا والدته، فلا عجب اذا الفى نفسه على سجيته، واستمتع بشعور بنمو شخصيته لم يتوفر له في بيته ولا في مدرسته.

انه في مدرسته مطالب دائما بالتظاهر بالسرور والمرح وسعة الصدر أمام المضايقات والنكات اللاذعة أو السمجة، حتى لايقال عنه انه «انطوائي» فهو من خوف الانطوائية في انطواء يتخذ صورة «الانبساط» .. ولا سيما أن اسمه وسحنته وكل شيء فيه يذكر زملاءه باختلافه عنهم في المنبت والسلالة والتكوين النفسي والاجتماعي. أما هنا فهو لايتصنع شيئا، ولا يحس بحاجته الى التصنع أو التظاهر.. وعناصر تفرده التي تحسب «عليه» في المدرسة تحسب «له» هنا في بيت آل جونز مزية يستحق بسببها الرعاية والاهتمام والتقدير.

ومع هذا كله لم يفض أنطون حتى ولا لجيرالد جونز بحلمه المقدس حول طريق بئر سبع، طريق العودة، طريق النضال. فهذا سر بينه وبين وليد، وليس من حقه أن يبوح به لأحد. فطريق بئر سبع هو رمز عقيدته الوطنية التي لاتقل قداسة لديه عن عقيدته الدينية..

وهذا السر المقدس هو الذي يكمن وراء قلقه وعدم استقراره، ذلك القلق الذي يختفي تحت سطح ظاهري من المرح

والدماثة. وقد استطاع جونز الشاب المقعد المشدود على مقعده ذي العجلات أن يستشف هذا القلق ويحكم بأن الفتى العربي لم يستطع بعد أن يصل الى «التأقلم» بالحياة الانجليزية، رغم كل الظواهر الخادعة.

ان جونز شخصيا لم يكن يشعر انه على سجيته.وهو في اكسفورد، رغم سمعته بين أقرانه بأنه شاب مرح سليم الطوية. وقد ظل الناس مخدوعين فيه الى أن حلت به كارثة المرض المقعد، فحررته أخير من تكاليف التظاهر الخادع ارضاء لمن حوله!

وان وراء ابتسامة انطون البريئة المشرقة لكثير جدا مما لايخطر ببال زملائه الانجليز. فهذا الفتى البرىء ــ كأنه شماس في فرقة المرتلين بالكنيسةــ قد سمع بأذنيه منذ سنين صرخات العذارى يغتصبهن جنود اليهود.. وصيحان النساء العقيلات المحصنات ينتهك حرمتهن جنود اسرائيل!.. ورأى بعينيه رجالا ونساء من مواطنيه يشربون بول بعضهم البعض، ويتقاتلون على الظفر بقطرة منه!.. شهد بنفسه كيف تجرد الناس من انسانيتهم تحت وطأة ذلك الاضطهاد الوحشي في البرية، ورأى وجها لوجه ملك الموت وهو يطارد الناس مطاردة رهيبة مفزعة..!.

كل هذا كان جونز يعرفه، فلم يصدق لحظة واحدة أن أنطون يمكن أن ينسى تلك الذكريات المروعة، أو أن تظاهره المتقن بالاستسلام والانقياد لمشيئة الله يمكن أن يدل على حقيقة حالته النفسية. ان «التأقلم» في هذه الحالة لا يمكن أن يدل على طبيعة سوية خالية من الشذوذ، بل هو في مثل هذه الظروف دليل قاطع على الشذوذ، وتبلد الاحساس.

ولذا كان جونز واثقا كل الثقة أن أنطون منصور يحن الى وطنه فلسطين العربي حنينا ملحا لا هوادة فيه.. حنينا مضاعفا، لأنه قاسى الانتزاع من جذوره الاصلية في منبته الاول بمدينة اللد، يوم تلك المسيرة الرهيبة المشؤومة.. ثم قاسى مرة أخرى الانتزاع من وطنه كله ليعيش في لندن بجوها القارس وأحوالها الاجتماعية الفكرية التي لاتمت الى الشرق بصلة، ولا سيما أن رحيله من اريحا الى لندن جاء على اثر فجيعته في أبيه الذي كان يحبه أشد الحب.

لابد أن يكون المرء أبلها أو معتوها حتى تزايل احساسه مثل هذه الكوارث المزلزلة بهذه السرعة وهذا اليسر الذي يتوهمه المخدوعون بمرح الفتى ودماثته. ولكن أنطون منصور فتى ذكي

العقل والقلب، مرهف الحس، فلا يمكن اذن ان يكون هذا موقفه الحقيقي، ولا بد أن ثمة توترا شديدا تحت هذا القناع التمثيلي المتهلل على الدوام..

كان هذا رأي جيرالد جونز، وكان انطون لا يعرف عن هذا الرأي شيئا، وكل ما هناك أنه يحس بعدم حاجته الى التظاهر وهو في بيت آل جونز.. ولكنه كان يأنس للوحدة أكثر أيضا مما يأنس الى بيت آل حونز.. لأنه في وحدته يستطيع أن يطلق العنان لخواطره ويتصور نفسه في مروج (رام الله) وروابيها أو في كنف جبل التجربة عند اريحا، في صحبة صديقه وليد.

وفي أول صيف قضاه بانجلترا بعد انتهاء السنة الدراسية، كتب الى وليد يقول له:

«لقد حظينا هنا ببضعة أيام من الدفء وصلت فيها درجة الحرارة الى ٨٠ فهرنهيت، فلبس الناس نظارات سوداء وراحوا يقولون: ألاما أشد هذا الحر!.. وعندما أقول لاصحابي الانجليز أن الحرارة في أريحا في مثل هذه الأيام تصل حدا فظيعا جدا حتى ان الذباب يموت من وطأة الحر، يظنون أنني أمزح، ولا يتصورون حرارة أشد من ٨٠ فهرنهيت!».

ولقد انتهزت ماريان فرصة اجازة حصلت عليها من عملها فصحبت أنطون الى مقاطعة (بريتاني) بفرنسا، لا لشيء الا لتتخلص من جو انجلترا وأهلها وتستمتع بمنظر البحر على هواها. وكانت قد صحبت والديها في فترة طفولتها الى هذا الموضع عينه أثناء اجازة حصلوا عليها أثناء خدمة أبيها في فلسطين، فكانت (سان مالو) بالذات من الأماكن التي ظلت عالقة بذهنها منذ ذلك الحين باعتبارها منتجعا للجمال الطبيعي الأخاذ. والى هناك صحبت ابنها مع أنها كانت تعلم سلفا أن أكثر من ثلاثة أرباع مدينة سان مالو العتيقة ذات الأسوار قد تهدمت أو أحرقت أثناء معركة تحريرها في سنة ١٩٤٤ . ولكن قيل لها انها جددت بسرعة وأن حصون القرن الثاني عشر التاريخية لم تزل على حالها لم يمسسها اذى.

وكانت الرحلة البحرية الليلية الى هناك مثيرة جدا بالنسبة لأنطون الذي لم يركب باخرة قبل ذلك، وانما كانت رحلاته كلها عبر البحر بالطائرة. وكان تفكيره في اثناء تلك الرحلة البديعة منصرفا الى صديقه وليد. أما أمه ماريان فكان تفكيرها منصرفا الى بطرس منصور، وهي تتساءل لماذا لم يرحلا معا الى أوربا مثل

هذه الرحلة الجميلة التي تتراءى فيها طيور النورس محمومة صائحة فوق رؤوس الركاب؟ لماذا لم يتجاوزا في رحلاتهما بيروت عاصمة لبنان؟ وكان الجواب الطبيعي الذي خطر لها ان رغبتهما لم تتجه هذا الاتجاه، ولو شاءا لما حال بينهما وبين تلك المتعة شيء. فان بطرسا كان يحب بيروت حبا جما، فكان يختارها للنزهة والاستجمام كلما نزعت نفسه الى التغيير. وكانت رغبة بطرس قانونا نافذا على الدوام بالنسبة لها، فلم تفكر قط في مخالفته أو اقتراح شيء غير الذي خطر بباله. ولكن لو أن المقادير أمهلته بضع سنوات أخرى لحضر معها ومع أنطون الى انجلترا لاتاحة فرصة اتمام التعليم لوحيدهما، وعندئذ كانت (سان مالو) وما اليها من الاماكن الجميلة في اوربا حرية ان تفوز باختياره عوضا عن بيروت.. ولكن هذا كله لم يسمح به الزمن لأن «النكبة» حطمت قلب بطرس قبل الأوان..

ولاحت منها نظرة الى أنطون وهو واقف بجوارها مستندا الى سياج الباخرة، والهواء يعبث بشعره الأسود الغزير، ونظرة جد واهتمام تتراءى في عينيه، فقالت في نفسها:

ـــ هذا انطون بن بطرس منصور.. وليس الفتى الذي كان

يرتدي منذ أيام قلائل قبعة المدرسة الانجليزية ولا يكاد المرء يميزه بحال من الأحوال عن سائر أبناء الانجليز أقرانه في السن. هذا انطون صديق وليد الذي ذهب معه في عيد الفصح قبل المنصرم الى الخليل، وقد أطلق الآن من أسر الحياة الانجليزية وشكلياتها وارتد الى عنصره الاصيل. انه بعينه أنطون الذي سيعود يوما ما الى مسقط رأسه وأرض ميعاده ووطن ابيه وأجداده العرب..

وعندما طلع النهار وخرجا من قمرتهما بالسفينة ليلفيا نفسيهما تحت أسوار سان مالو تقريبا، صاح أنطون في حبور:
ـــ ألا ما أشبهها بمدينة القدس!.
ـــ نعم. على نحو ما. ولكن الحياة وراء هذه الأسوار مختلفة تماما عن الحياة التي وراء اسوار القدس. كما أن هذه الأسوار التي تراها أقدم من أسوار القدس بنحو أربعة قرون!.

ونزلا في فندق صغير يقع في شارع ضيق منحدر يكثر فيه المصطافون الى درجة الازدحام، وعلى جانبيه عشرات من حوانيت الفاكهة والخضر، والمقاهي الصغيرة، مما ذكره الى حد ما بجو مدينة القدس القديمة. ولكن ماريان شددت على أنطون

كي لا يصرف اهتمامه الى الشوارع الضيقة، لانهما لم يأتيا لرؤية الحوانيت والمقاهي والازقة الداخلية، بل للتمتع بالبحر وهوائه وأمواجه الزبرجدية.

وأوشك الفتى وأمه أن ينسيا نفسيهما وهما يتطلعان الى جمال البحر الصافي، بخضرته الشاحبة، من فوق تحصينات المدينة التاريخية. والحق ان المنظر من هناك لا يمله المرء ولو قضى في ذلك ساعات النهار جميعا.

وعندما انخفض مستوى الماء بانحسار المد، سارا معا الى الجزيرة الصغيرة التي يواجه فيها البحر الصاخب اللامتناهي ضريح من الجرانيت دفن فيه الكاتب الفرنسي العظيم «شاتوبريان»، تحف به الأزهار البرية الكثيرة التي يحمل الهواء عبيرها المسكر مع كل نسمة من نسماته، مختلطا برائحة العشب البحري المتراكم..

وعثرا على فجوة بين الصخور بعيدة عن مهب الريح ينمو فيها العشب البري والاقحوان، وهناك افترشا الأرض، وتنهد أنطون بارتياح وهو يملأ عينيه وصدره من البحر وهوائه، وقال:

ــ ألا ليتنا لانعود الى لندن!.

ــ حقا؟ لقد حسبتك تحب لندن بما لك فيها من أصدقاء، وزملاء في المدرسة، وفرق رياضية، والمنتزه العام الكبير..

ــ كل هذا حسن، ولكنني أشعر بأنني لا أنتمي الى شيء من هذا.

ــ ولكنك يا بني نصف انجليزي!

ــ أعلم هذا. ولكني لم أولد هناك. ولم أعش في تلك الديار قبل هذا العام..

ــ ولكنك أقل انتماء الى هذا المكان ــ من أرض فرنسا ــ الذي لاتربطك به ولو آصرة اللغة.

فبادر يرد عليها قائلا:

ــ بالعكس! ان انعدام آصرة اللغة من شأنه أن يجعل الأمر أسهل على نفسي!

ــ لماذا؟

ــ لأنني في هذه الحالة سوف لا أكون مطالبا بالاختلاط والاندماج الاجتماعي الكلي.. والحقيقة اني لا أشعر في جميع الأوقات برغبة في الاندماج الاجتماعي.

ــ ادرك ماذا تعني، ولكن لابد لك من التعليم كما تعلم.

ــ لقد كنت أتعلم على ما يرام وأنا في (رام الله)!

ــ ولم يكن في وسعي أن أبقى في الأردن يا أنطون، وأبوك نفسه في الليلة السابقة لوفاته أوصاني أن..

وتهدج صوتها وراحت تتلمس منديلها في حقيبة يدها وهي تحاول عبثا رد طوفان الدموع التي انبجست فجأة.. فاستولى على أنطون الندم وقال لها:

ــ واها لي! لقد سببت لك الأسى في هذه اللحظة الجميلة. أرجوك ألا تحزني وتبتئسي! اني على خير حال في لندن، وكل ما هناك اني أشعر بالحنين الى وطني أحيانا، واشتاق الى وليد. ولما وجدت نفسي هنا بعيدا عن انجلترا، تجدد عندي هذا الحنين والشوق..

ــ أعلم هذا يا ولدي. ولكن تذكر انك ستكون في الخامسة عشرة من عمرك هذا العام، وبعد ثلاثة أعوام أخرى ستعود الى الاردن ان شاء الله! وهي ليست بالمدة الطويلة، أليس كذلك؟

ــ كلا في الواقع..

ونهض قائما على قدميه ومد يده الى أمه ليعينها على النهوض، قائلا :

ــ هيا بنا نتم جولتنا حول الجزيرة ثم لنعود الى التحصينات لنحظى هناك بتناول «الجيلاتي» في شرفة المقهى تحت المظلات الكبيرة ! .

وانجابت أمام هبات هواء البحر المطلقة سحابة الأسى، ولم تبق أمامهما سوى صفحة الحاضر البهيج ..

— ٤ —

كان مقسوما لرحلة (سان مالو) ان تظل ذكرى مفردة في ذهن أنطون وأمه، لأنها كانت الرحلة الوحيدة لهما في العطلات . فقد قرر « روبرت ملبي » ان غلاما في الخامسة عشرة لا ينبغي أن يقضي عطلاته ملازما لأمه على هذا النحو ، ووافقت ماريان اباها على مضض..

وتغير بالفعل منوال حياتهما . فعندما حل الصيف التالي كانت ماريان شديدة الانهماك في عملها ، أما أنطون فذهب مع رفاقه في التدريب العسكري الى معسكر صيفي ابتداء من شهر يوليو « تموز » ، وكان قد حصل قبل ذلك على « شريط » صار مصدر اعتزازه وزهوه، وجعله يشعر بأنه أكبر سنا بكثير من الغلام الذي ذهب منذ عام واحد الى (سان مالو) في صحبة

والدته. لقد صار أنطون بطرس منصور «أومباشيا»، ثم لم يلبث أن صار «جاويشا» الأمر الذي جعله يبرز صدره الى الأمام ويبدو أكثر ثقة بنفسه في كسوته الصفراء!.. وقد ساعده ذلك على عدم اللجوء الى التظاهر كي يكسب تقدير رفاقه، لأنه صار الآن «شيئا مذكورا» بغير حاجة الى استرضاء أحد.

أما ماريان فاندمجت في قسم التحرير بصحيفة الشرق الأوسط التي تعمل بها، واستفادوا من معرفتها للغة العربية فبعثوا بها في الصيف الى بيروت لجمع معلومات معينة، ثم طارت من هناك الى الكويت أثناء وجود أنطون في معسكر التدريب. ومن الشرق كتبت الى أمها تخبرها أنها سوف لا تعود الى انجلترا الا بعد عيد الميلاد، وطلبت منها السماح لأنطون بالذهاب الى سويسرا في الشتاء للتمتع بالانزلاق على الجليد مع زميله لندلي في عطلة عيد الميلاد ورأس السنة.

وبطبيعة الحال رحب انطون بهذه الفكرة ترحيبا كبيرا، لأنه كان زاهدا في قضاء عيد الميلاد في انجلترا بعد تجربته الأولى. وفي الوقت نفسه كان يحب «لندلي» كثيرا ـ وهو أكبر منه سنا بعض الشيء ـ لأنه يشاركه الاهتمام بمعسكرات التدريب ويذهب

معه في أيام الصيف في ساعة مبكرة للسباحة قبل موعد الدراسة في بحيرة صغيرة محاطة بالاشجار الكثيفة قرب طاحونة الهواء في المتنزه العام. والماء في تلك الساعة يكون باردا كالثلج، والرحلة الى هناك على الدراجة تبعث النشاط والمرح. وبعد السباحة يعودان معا الى بيت جديه لتناول الافطار بشهية عظيمة.

ولم يقصر انطون في واجباته المدرسية رغم هذا النشاط الرياضي المتنوع، ونجح بتفوق في امتحان آخر السنة، وبذلك لم تبق أمامه الا سنتان على التخرج...

○

لكن ماريان عادت في تلك السنة قبل عيد الميلاد، وبذلك ألغى أنطون رحلته الى سويسرا وقضى العطلة مع أمه وجديه، الا انه لم يذهب معهم الى السهرات العائلية، بل قضى سهرات مع رفاقه التقى فيها بفتيات كثيرات، بيد أنه لم يشعر بارتياح الى صحبتهن. ولما وجدنه خجولا مرتبكا في معاملتهن، متحفظا في حديثه وحركاته معهن، استصغرن شأنه واعتبرنه «تلميذا» غشيما في أمور الغرام!

وتجول مع والدته عشية عيد الميلاد في ميدان الطرف الأغر، واستمع للترتيل الشجي، واستمتع بالشجرة السكندنافية العملاقة المعدة في الميدان بمناسبة عيد الميلاد. وفي صباح عيد الميلاد ذهبوا جميعا ـ بما فيهم جده ـ الى الكنيسة.

وكانت هذه الفترة بداية انحسار في صداقته بلندلي، الذي أبدى في حفلات عيد الميلاد اهتماما واضحا بصحبة الفتيات، لا عن اهتمام بواحدة منهن بالذات، بل كان «الجنس» في مجموعه يستهويه بصبورة خارقة لم يسترح اليها أنطون!.

أجل انهما لم يزالا على عهدهما من السير معا أثناء فترات الراحة بين الدروس، ولكن التقاءهما خارج المدرسة قل كثيرا عن ذي قبل، لأن أنطون شعر بعدم القابلية أو عدم القدرة على مجاراته في اهتماماته الجنسية الجديدة. بيد أن ذلك لم يثقل على نفس انطون، لأنه من جانبه استحدث لنفسه اهتماما من نوع جديد خاص به، وهو الاهتمام بالكتب. لقد كان يشعر قبل الآن أن عدم استقراره يمنعه من قراءة أي شيء سوى ما تتطلبه دراسته من الكتب العلمية. ولم يكن لديه متسع من الوقت للقراءة الخاصة كهواية. وحتى في تلك الأوقات التي لم يكن ذهنه فيها

مركزا على موضوعات الدرس، كان خياله يشرد به دائما الى روابي فلسطين و آجامها وتلالها وخمائلها، فيتذكر تارة آباه في أريحا، وتارة أخرى يتمثل وليدا في (رام الله).. أو تتراءى له طريق.. (بئر سبع)!.

ولكن في عيد الميلاد من هذه السنة قدم اليه استاذه «جيرالد جونز» المجلد الأول من مذكرات شاتوبريان، بمناسبة زيارته السابقة لسان مالو حيث ولد الكاتب العظيم وحيث زار مع ماريان ضريحه، وقال له:

ـــلقد كان شاتوبريان غلاما يشعر بوحشة ووحدة عظيمتين، وكان مرهف الحس مشبوب الخيال. وقد يروق لك أن تتعرف على معالم طفولته وصباه، وسترى كيف كان أبوه القاسي يرغمه على النوم بمفرده فوق قمة برج من أبراج القلعة العتيقة. وكان الشائع بين الناس أن ذلك البرج تسكنه الأشباح والأرواح الشريرة. ولا سبيل للوصول الى قمته الا عن طريق مشارف يعشش فيها البوم الذي يتطاير في الظلام وهو يرسل نعيقه الكئيب الرهيب مختلطا بهزيم الرعد وزمجرة رياح الشتاء وهدير الموج في البحر الثائر!

والحقيقة أن جيرالد أثار اهتمام أنطون بالكتاب عن طريق

اثارة خياله، فراح الفتى يقرأ الكتاب بنهم عظيم. ولم يستجب كثير لما قرأه في تلك الصفحات من شدة حنين «فرانسوا رينيه شاتوبريان» الصغير الى الحب الانثوي، فما كان هذا الحنين ليجد صدى في نفسه، ولكن مخاوف الغلام الصغير، وخجله، وتردده، وشكوكه، وجدت صدى عظيما في نفس الفتى العربي المغترب، وكذلك الاحساس بالعبء الباهظ الذي يلقيه على كاهله الواهن هذا العالم غير المفهوم!

وقرر أنطون أن يذهب مرة أخرى يوما ما الى (بريتاني) فيزور قلعة «كومبيرج» ويعبر تلك المشارف الرهيبة التي اجتازها في الظلام ــ ليلة بعد ليلة ــ ذلك الفارس الفرنسي الصغير «شاتوبريان» وهو يقاوم الفزع والارتياع. وأفضى أنطون بهذه الرغبة الى أمه، فوعدته بأن يذهبا الى هناك في عطلة عيد الفصح، ثم تأجلت الرحلة الى عطلة الصيف، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ هذا الوعد على نحو أو آخر. ولم يضر ذلك أنطون كثيرا، لأنه تجاوز مرحلة ذلك الكتاب الى كتب اخرى استأثرت بتفكيره. فقد اهتم بكتب المغامرات الحقيقية والرحلات، ومن أهمها رحلة جزر الهبرايد للدكتور جونسون، وقد

استعار هذه الكتب من مكتبة «جيرالد جونز»، ثم نقب في مكتبة جده عن كتب أخرى فوجد كتابا عنوانه «سعيد الصياد» بقلم «بكثول». وسعيد هذا رجل شجاع لم يتردد في أن يموت شهيد الاسلام على صورة لم يتمالك أنطون نفسه من الهتاف لها بحماسة عند الفراغ من تلاوة قصته. وسأل أنطون عن هذا المؤلف «بكثول» ومن عساه يكون، وهو يجد في كتبه وصفا صادقا لأحوال فلسطين منذ أواخر القرن الماضي، فقال له جده:

ـــ انه ابن قس انجليزي، وقد أحب الشرق العربي وفلسطين وسورية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وتفقه فيها وترجم القرآن الى الانجليزية. وأدرك أن الصهيونية لا يمكن أن تنتعش في فلسطين الا تحت حماية الحراب الانجليزية. وقد كتب ذلك صراحة في سنة ١٩٢٩. وقد لاقت قصته «سعيد الصياد» رواجا كبيرا بين القراء الانجليز، ولكنه صار الآن طي النسيان. وهو بلا شك من أعرف الناس بأحوال العرب وأكثرهم حبا لهم. ولكم أثاره الظلم الذي يصب على عرب فلسطين صبا بالتعاون المتواطىء بين الحكم الانجليزي والصهيونية. وقد مات الرجل في سنة ١٩٣٦،

وكانت ترجمة القرآن آخر أعماله، وكان القدر رحيما به حين جنبه عذاب مشاهدة النكبة التي حلت بفلسطين.

واكتشف انطون أن أمه تعرف «بكثول» وقرأت كتبه، وكانت تعجب كثيرا بكتبه عن الشرق وبقصصه الشرقية، أما قصصه الانجليزية فلا تعجبها على الاطلاق. و «سعيد الصياد» في نظرها أحسن ما كتبه عن بلاد العرب، لأن ذلك الكاتب لم يكن يعرف شيئا عن المتعلمين العرب، وكانت كل معرفته بالبسطاء والأميين، فقد كان يفهم روحهم وعقليتهم جيدا.

وكان المفروض بعد انتهاء أنطون من المدرسة الثانوية ألا يدخل مدرسة العلوم الاقتصادية لدراسة العلوم الاجتماعية الا بعد تمضية سنة في التمرين العملي على الخدمة الاجتماعية، ففكر في أن يمضي تلك السنة من التمرين والخبرة في المملكة الأردنية بين مواطنيه اللاجئين، كي تكون هذه السنة فرصة له للاجتماع بصديقه وليد، ولعلهما يستطيعان في غضون تلك السنة التسلل الى بئر سبع، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وأفضى بفكرته الى جده الذي قال له:

ــ لست أرى ما يمنع من ذلك، بشرط أن توافق أمك على

هذا السفر بطبيعة الحال. فانها قد لا تميل كثيرا الى فراقك سنة كاملة.

ــ ولكنها ستسمح لي بالسفر اذا أنت حبذت فكرتي، وقلت لها أن أبي كان حريا أن يقرها لو كان على قيد الحياة. أليس هذا رأيك يا جدي؟

فنظر روبرت ملبي الى وجه حفيده المتلهف ثم قال:

ــ بلى! أظن هذا. فقد كان يريد لك أن تظل عربيا، وان كان حريصا على أن تتلقى تعليمك في انجلترا. ولكنه من جهة أخرى ما كان يحب لك أن تهجر أمك..

ــ ولكني سوف لا أهجرها يا جدي. فلسوف أعود في نهاية السنة وسأبقى هنا سنتين لتلقي المحاضرات في الجامعة. ثم انها لا تراني أثناء العام الدراسي الا مرة واحدة في عطلة الاسبوع. وفي بعض الاحيان تمر العطلة الاسبوعية من غير أن تراني، حين تكون مشغولة أو مسافرة لتسقط الأخبار! أنا واثق انها لن تمانع.

ــ سنبحث الأمر كله يوم الأحد. ولكن اخبرني هل فكرت فيما ستصنعه هناك في الأردن؟

فاحمر وجهه وقال:

ـ خطر لي أن اساعد في ادارة معهد العميان ببيت لحم حيث يقيم صديقي أمين. واعتقد ان في وسعك أن تمهد لي ذلك، بما أن معهد بيت لحم تابع للجمعية التي تشرف على معهد يافا حيث كنت تعمل أنت فيما مضى. ولا سيما انني أعرف الشيء الكثير عن العميان بسبب معاشرتي الطويلة لأمين كما تعلم.

ـ فكرة طيبة فعلا، بل طيبة جدا. سأذهب الى مقر الجمعية وأتحدث اليهم في هذا الموضوع منذ الآن، فهذه المسائل يستغرق الانتهاء منها وقتا طويلا الى أن تتم الموافقة.. فهناك مستويات كثيرة للجان كما تعلم.

ـ شكرا لك. وثق اني مستعد للقيام بأي عمل هناك مهما كان صغيرا، ولن أخذلك، لأني في الحقيقة مهتم جدا بالعميان ولا سيما أن «أمين» سيكون معي طول الوقت. وسيكون في وسعي أن أرى صديقي خالدا في أوقات فراغي.. ألا ما أبدع هذا!

ـ ولكن ما الذي جعلك تفكر في هذه الأمور كلها؟ هل أصابتك نوبة أخرى من الحنين الى الوطن؟

ـــ أوه. ان المسألة في مجموعها معقدة كما تعلم، ويدخل فيها عدد كبير من العوامل..

ـــ مفهوم. مفهوم. ان فلسطين طبعا حياتك الحقيقية. ولقد كان فلسطين حياتي الحقيقية يوما ما. ثق اني سأفعل كل ما استطيع لتحقيق هذا الأمل ان شاء الله!

ـــ ان شاء الله..

— ٥ —

جرى هذا الحديث في حجرة الجلوس في مساء من أمسيات نوفمبر «تشرين الثاني» الباردة، والضباب يزحف من المنتزه العام متسللا الى داخل البيت على الرغم من النوافذ المغلقة والستائر المسدلة. وقد جلس مستر ملبي في مقعده الوثير العتيق بجانب النار، وجلس قبالته أنطون. أما «الزبيت» فكانت خارج البيت تحضر اجتماعا لاحدى اللجان المحلية التي تشترك فيها. ولذا أتيح لأنطون في هذا المساء أن يسترخي في جلوسه كما يشاء وان يطعم نيران المدفأة بكتل من الخشب ليحول بينها وبين الخمود. أما جده فهو على عادته معه لا يبدي اعتراضا على تصرف من تصرفاته، بل يشعر انطون في قرارة نفسه ان جده يضمر التشجيع له على أنواع السلوك التي تضيق بها جدته! ولذا

فهو يشعر بالألفة الشديدة وسكينة النفس حينما يخلو الى جده في الدار على هذا النحو، بينما جدته تقضي وقتها في الخارج.

مسكينة هذه الجدة! فهي من ذلك الطراز من الناس الذي تشعر انه يحبك أكثر بكثير مما تحبه، وكنت حريا أن تحبه بمزيد من القوة والعمق لو أن حبه لك خفت حدته قليلا!.

وتخيل أنطون ان الجدة عادت من الخارج وأن أول ما صنعته انها بددت تلك العتمة الحبيبة الى النفس، وما تفيض به من حرارة وايناس، فأوقدت المصابيح الشديدة وصاحت بهما في استنكار كعادتها:

ــ لماذا تجلسان هكذا في العتمة؟ وهذه النار المتأججة! ان الحرارة هنا شديدة لا تطاق!.

وبسرعة يروح كل منهما يرفع الوسائد الصغيرة من وراء ظهره ويعيدها الى مكانها المرسوم من حجرة الجلوس. أما الجدة فتتناول صحف المساء الملقاة حيثما اتفق فوق أحد المقاعد، وسرعان ما «ترتبها» في مكان خفي عن الانظار كالعادة!.

ويعقب ذلك قرقعة مألوفة، وصليل الأواني الخزفية، لأن الجدة تصنع الشاي. وبعد الانتهاء من صنعه، تملأ قدر الماء

كعادتها كل ليلة لاعداد الماء الساخن الذي تملأ به الزجا-
لتدفئة أسرة النوم .
وكالعادة كل ليلة أيضا ، تتوقع الجدة من أنطون بعد
شايه وبسكويته ان « ينسحب » الى حجرته بعد أن يذهب
المطبخ ليأخذ زجاجة الماء الساخن . ولكن الوقت لم يكن
جاوز الثامنة مساء بكثير . ولم تكن الجدة قد عادت بعد . و
من المنتظر ان تعود قبل ساعتين . وفي وسعه هو وجده أن يت
ما طاب لهما الحديث أو يصمتا ما طاب لهما الصم
فصمتهما مأنوس كحديثهما أو أشد أنسا . اما الجدة فلا ت
للصمت معنى ، الا اذا كان المرء يطالع أو يكتب . أما في
هاتين الحالتين فهي تنتظر من كل انسان ان يتحدث في ش
أي شيء ، حتى ولو لم يكن ثمة ما يستدعي الكلام .
السبب ايضا كانت تستخدم الراديو أقل استخدام مم
لسماع نشرات الأخبار على الخصوص والنشرة الجوية . أما ال
فلم يخلق له الراديو ، وانما خلقت له ألسنة الناس ! .. في
كان الجد ينتهز فرصة خروجها من البيت ليدير مفاتيحه ويتا
البرامج الموسيقية الجميلة من بروكسل أو لكسمبورج . وما

ما كان يأسى على انه لا يستطيع التقاط اذاعات عمان والقاهرة ! .

وفي ذلك المساء كان مدار حديثهما عن سفر أنطون الى الأردن . وكلما أوغلا في مناقشة الموضوع بدا لهما ممكن التنفيذ . وارتفعت روح أنطون المعنوية ، حتى انه صاح :

ـــ لم تبق الا سنة واحدة ! أتظن يا جدي انه سيكونُ في وسعي بعد ذلك أن احتفل بأعياد الميلاد في بيت لحم نفسها ؟

ـــ ربما . ولكن والدتك قد تستاء ويتأذى شعورها . ولا تنس أيضا موقف جدتك من هذا التفكير !

ـــ آه ! لقد حظيت «ماما» بعيد الميلاد في الكويت عندما راقها هذا !

ـــ ولكنها لم تمكث هناك سنة كاملة . اسمع ! هيا بنا نتصل بها الآن تليفونيا ونحاول الاتفاق معها على المسألة مبدئيا ... !

وكانت ماريان في شقتها الخاصة ، وقد أدهشها أن تتلقى حديثا تليفونيا من والدها ، وكان أول ما خطر لها أن سوءا أصاب أمها أو أنطون . ولكن والدها صرف عن ذهنها هذا الخاطر بالخوض مباشرة في الموضوع :

ــ ماذا ترين في قضاء أنطون سنة العمل التدريبي في الأردن، وربما كان هذا في مدرسة المكفوفين ببيت لحم؟

وأجفلت لأول وهلة، ثم شعرت بضيق فقالت:

ــ وهل لابد لنا من البت في هذه المسألة الآن؟ لن تكون بنا حاجة الى ذلك الا في السنة التي بعد التالية!

ــ هذه المسائل يستغرق تدبيرها وقتا طويلا، والفكرة مستولية علينا أنا وأنطون.

ــ أهي فكرتك؟

ــ بل هي فكرة أنطون. ولكنها تبدو لي فكرة طيبة.

ــ أتعني أنه هو الذي فكر في هذه الخطة التي تبقيه بعيدا عن البيت سنة بطولها؟

ــ انه ليس طفلا يا ماريان. ثم انه في مقدورك عند القيام باحدى اسفارك الصحفية الى الشرق الأوسط أن تعرجي على القدس لتريه.

ــ لست أحب أن أذهب الى القدس مرة أخرى. وأنت تعرف شعوري لأنك أنت أيضا لا تحب هذا. فلماذا يريد أن يذهب الى هناك؟ لقد كان الاتفاق فيما بيننا أن يقضي في الأردن

عطلة محدودة قبل ان يتسلم عمله الذي سيشرع فيه هنا . وينبغي أن يكون هذا حسبه .

ـــ انه يشعر بالحنين الى وطنه ياماريان !

ـــ ان وطنه في الوقت الحاضر هاهنا !

ـــ وهل نسيتي انه ابن بطرس منصور ؟ ان وطنه فلسطين !

ـــ لم يعد لهذا الوطن الآن وجود .

ـــ لا . بل الضفة الغربية لم تزل قائمة ، حيث نابلس ، ورام الله ، وبيت لحم ، واريحا ، والخليل . وفي امكان المرء أن يحن الى الجزء ، ان اعوزه الحنين الى الكل ! .

وعندئذ قالت ماريان في صبر نافذ : «ليس في وسعنا أن نناقش هذا الموضوع عبر اسلاك التليفون ، فأبقه حتى أحضر يوم الأحد» .

ـــ ولكن أنطون لن يواتيه النوم ما لم يعرف أنك توافقين على فكرته من حيث المبدأ !

وتوسل اليه أنطون قائلا : «دعني أكلمها !»

فقال لها أبوها : «أنطون يريد أن يكلمك بنفسه» .

ــ أرجوك يا أماه أن تقولي نعم ! أرجوك !

ــ هل تكره انجلترا الى هذا الحد ؟

ــ أنا لا أكره انجلترا . أنت تعلمين تمام العلم أني لا أكرهها ! ولكني أريد أن أرى وليدا وأمينا وعمي فريدا وسائر الأقارب . اني ان ذهبت اليهم في نهاية العام القادم سأكون قد سلخت بعيدا عنهم أربع سنين ؟

ــ كثيرا ما يظل الناس بعيدين عن أوطانهم عشرين سنة أو ثلاثين ... بل العمر كله أحيانا !

ــ لا أستطيع يا أماه ! هذا فوق مقدوري . لأموتن لو فعلت ! أرجوك يا أمي الحبيبة أن تقولي نعم !

وشعرت ماريان على الفور انها خسرت الجولة ، فقالت : «ليكن . مادام هذا مطلبا عزيزا عليك الى هذا الحد . والآن دعني أكلم جدك من فضلك .»

ــ أوه . أحبك يا أمي ! أحبك ! .. هاهو جدي .

وقالت ماريان لأبيها : «لعلك أدركت اني انقدت لرغبته ، ولكني غير راضية النفس . فأنا واثقة أنها غلطة» ..

ـــ لست أدري كيف يمكن أن تكون كذلك ياعزيزتي .

ـــ دعنا من الكلام في هذا الآن . وسأحضر للغداء يوم الأحد ان شاء الله .

ـــ ان شاء الله . طابت ليلتك يا عزيزتي .

ـــ ووضع «ملبي» المسماع ، ونظر الى حفيده وابتسم كل منهما لصاحبه ، ثم قال ملبي : «سيكون كل شيء على ما يرام . انها في الوقت الحاضر غير متحمسة للفكرة ولكننا سندخل الطمأنينة على نفسها يوم الأحد عندما تحضر» .

فصاح أنطون : «بل هذا رائع . رائع جدا ! كم كنت أتمنى لو جئتم معي ، انت وماما وجدتي .. فنعود كلنا معا الى الوطن» ..

أما ماريان فلم تتحرك من جوار التليفون بعد أن وضعت المسماع ، بل دفنت وجهها في يديها ، واندفعت تبكي ..

— ٦ —

أما «الزبيت» فكانت صريحة في معارضتها لمشروع سفر انطون الى الأردن. وآذى شعورها أن يفكر أنطون مثل هذا التفكير، وأغضبها أن يكون جده روبرت ضالعا معه فيه، وأن تكون ماريان من الضعف بحيث لاتقف في وجه هذا المشروع وقفة حاسمة!.. لقد كانت الجدة موقنة أن أنطون لو عاد الى الأردن وقضى هناك سنة كاملة فسيكون في ذلك القضاء المبرم على كل ما بذل في السنوات الأربع من جهود في سبيل تأقلمه بالطباع الانجليزية، وسيتعين الابتداء في تلك الجهود من جديد، حينما يرجع الى انجلترا. ولكن هذا الذي ساورها لم يستطع ان يغير من الوضع شيئا، لأن الأم والجد كليهما لم يجدا غضاضة في شعور أنطون بعروبته وحرصه على تجديدها، ولا تثريب عليه ان هو غلب عروبته الموروثة عن ابيه على ميراثه عن أمه.

وكانت الجدة تتمنى لو أنه أبدى شيئا من الاهتمام بالفتيات وقد صار الآن في عامه الثامن عشر. فمن أعجب العجب أن شيئا من أعراض الفتيان في تلك السن لم تظهر عليه. وهو أمر يدعو للرثاء، لأنه لو تعلق بفتاة لطيفة لاستطاع هذا الهيام أن يثنيه عن الرحيل الى الأردن! وداعبها الأمل في أن يلتقي في حفلات عيد الميلاد القادم التي يقيمها زملاؤه في المدرسة بفتاة لطيفة من هذا الطراز الجميل الرقيق المهذب. ولعلها تكون شقيقة أحد هؤلاء الزملاء.

ولكن عيد الميلاد أقبل ثم ولى من غير أن يجد في الأمر جديد. ولم يشعر قلب أنطون بشيء من الخفقان، اللهم الا خفقان اللهفة والتمني أن يقضي عيد الميلاد التالي في بيت لحم!.

لكن الجدة لم تيأس، بل تمنت حين يأتي الربيع ويكون أنطون قد اقترب من تمام الثامنة عشرة، أن تتحرك فيه نوازع الحب.. نعم، فلا بد أن يقع في هوى فتاة ما عما قريب، سيما وان منظره وفتنته لابد أن يجتذبا الفتيات الانجليزيات، ومن طبائع الاشياء أن يستجيب قلبه الشاب لمحاسن احداهن!.

وراحت مسز ملبي تطيل التفكير في تلك الفتاة الموعودة،

وفي مرجوها أن تكون ابنة احدى الأسر التي يعرفها آل ملبي ، وأول صفاتها أن تكون « سيدة » بمعنى الكلمة ، يلتقي بها أنطون في احدى الحفلات العائلية الصغيرة ، أو احدى حفلات الكنيسة ، أو احدى الأسواق الخيرية التي تقيمها الجمعيات الكثيرة التي تسهم فيها مسز ملبي بنشاطها الكبير . ولسوف ينشأ الحب بينهما ـــ فيما تتخيل ـــ من أول نظرة . وعلى مهل تتطور العلاقة بينهما الى خطبة . ثم بعد سنة أو سنتين يعقد قرانهما في الكنيسة . وسيكون حفلاً بهيجا لن تدخر الاسرتان وسعا ولا نفقة في اضفاء الأبهة والمرح عليه . وفي الوقت المناسب سيرزق العروسان الشابان بطفلين أو ثلاثة . وهكذا يستقر أنطون بعد قلق ، ويخلد الى حياة انجليزية بمعنى الكلمة ، ويتبخر من ذهنه كل أثر لخيالات الصبا التي تحفزه للتفكير في العودة الى وطنه العربي ! .

ولما لم تستطع مسز ملبي الخوض في حديث هذا الحلم العزيز عليها مع زوجها روبرت ، انتهزت أول فرصة ففاتحت ابنتها ماريان في ذلك . ولكن ماريان أم وليست جدة . فلم تكن متعجلة مثل امها على ان يصل ابنها ـــ وهو في السابعة عشرة من

عمره ـــ حباله بحبال فتاة تستأثر به مدى العمر. وقالت لأمها بصريح العبارة، ان الطبيعة ستأخذ مجراها في أوانها المناسب من غير أن تعنيا نفسيهما بالقلق والتفكير في الأمر قبل الأوان.

وكانت لهجة ماريان حازمة، ولا تخلو من نفاذ الصبر والضيق. ولعلها كانت مدركة ـــ في أعماق - سريرتها ـــ أن نقصان الجانب الغزلي عند ابنها أنطون، راجع في المحل الأول الى أن قلبه مشغول بحب كبير أخذ عليه مجامعه. وذلك الحب ليس موضوعه امرأة، وانما موضوعه حلم مسرف في الخيال، ولكنه مسرف في الجمال والسحر. انه حلم العودة الى الوطن الذي تسري دماؤه في عروقه وخلاياه!.

○

ولكن شاء القدر عقب هذا الحديث بين الجدة والأم بوقت قصير، أن يتعلق أنطون بفتاة كان يقابلها منذ بضعة أسابيع، في الخفاء!.

وكانت ظروف التقائه بها حرية ان تروع جدته، لأنه لم يتعرف بها في كنيسة ولا حفل ولا جمعية، بل تعرف بها في.. الطريق العام!

ففي ذات يوم من أيام اغسطس «آب» الرطبة الحارة،شعر أنطون بعد الظهر بالاختناق ، فوضع في جيبه كتابا من كتب الاقتصاد ، وانطلق الى المتنزه العام ، ينشد نسمة عليلة من الهواء . وكان عدد الرواد قليلا في تلك الساعة ، وصف المقاعد الخشبية المواجهة لطاحونة الهواء خاليا ، فتخير المقعد الأوسط ، وجلس عليه مسترخيا بضع دقائق ، ثم أخرج كتابه من جيبه ، وشرع يطالعه في غير استغراق .. واذا به يسمع صوتا انثويا يقول له :

ـــ عفوك !

فرفع بصره ، واذا بفتاة سوداء الشعر نرتدي ثوبا عليه رسوم ازهار فاقعة اللون ، تقف بجوار مقعده . ولفت نظره كثرة الكحل في عينيها ، وغزارة أصباغ شفتيها ، وبروز صدرها الناهد بروزا غير مألوف في بيئته ، تحت صدار ثوبها الضيق .

ـــ عفوك ! هل هذا معطفك الواقي من المطر ؟

وأشارت الى معطف واق من المطر من البلاستيك أحمر

اللون ، في كيس من البلاستيك أحمر اللون أيضا . ولم يكن قد ألقى إليه باله حين جلس ، فقال لها : «لا . انه ليس معطفي» .

ــ اذن فهو معطفي أنا .

وابتسمت ابتسامة مشرقة ، فشعر بحدة ارتباكه وقد خفت ، فقد ذكرته هذه الابتسامة بابتسامة ابنة عمته نادية ، واستطردت الفتاة : «لقد تركته وذهبت اتمشى قليلا عند البحيرة ، وفجأة تذكرت أني نسيته ، فعدت . ولكني عندما رأيتك جالسا خشيت ألا يكون هذا هو المقعد ، وان يكون المعطف لك . فما أشد انتشار هذا النوع من معاطف المطر الآن» .

ــ ان لدي معطفا منها بالفعل . ولكنه ليس قرمزيا ، بل لونه أزرق داكن . ولكني لم آت به معي .

وجلست الفتاة على المقعد ، وبعد لحظة صمت قالت له :

ــ لست احسبك انجليزيا .

ــ أمي انجليزية .

ــ ولكني أحسب اباك اسبانيا .

ــ لا .

وأخرجت من حقيبة يدها البيضاء علبة سجائر وقداحة

وبعد أن أشعلت سيجارتها قدمت اليه العلبة، فقال لها: «شكرا لك. أنا لا ادخن».

ومدت يدها الى الكتاب، فلما قرأت عنوانه العلمي بدا على محياها الاستهوال، وأخذت تحدثه عن عمله. فلما عرفت أنه طالب بالمدارس الثانوية ويهم بدراسة العلوم الاقتصادية والاجتماعية، زاد عجبها. وعرفته باسمها: «اسمي روزا روزادو».

ــ اسم جميل.

ــ ان جدودي اسبان، وهذا السر في اسم روزادو..

ــ وأنا اسمي منصور. أنطون منصور.

ــ ياله من اسم! أهو فرنسي؟

ــ بل عربي.

ــ عربي!؟ من أي البلاد أنت اذن؟

ــ من فلسطين.

فأطفأت سيجارتها ثم قالت: «ولكنك قلت ان أمك انجليزية. فأنت نصف عربي فقط!»

ــ وهل هذا يعتبر في نظرك علامة سيئة أو حسنة؟

ــ لست ابالي بجنسيات الناس ماداموا ظرفاء. ولكنك قد قضيت هنا فيما يبدو زمنا طويلا.

ــ أربع سنوات. فقد فقدت اسرتي كل شيء تقريبا عندما دخل اليهود (اللد) في يوليو «تموز» سنة ١٩٤٨. وبذلك خسرنا بيتنا وبساتين برتقالنا ورأس مالنا وكل شيء. وقد قتلت هذه الكارثة أبي. كنا قد مضينا فعشنا في (اريحا) سنة ــ فلنا فيها بيت وضيعة ــ ولكن قلب ابي كانت قد حطمته الصدمة، فلم يلبث ان مات.. وجئت أنا مع أمي الى انجلترا.

ــ يؤسفني جدا أن يحدث لكم هذا.

ــ شكرا لك. ولكن دعينا من هذه الاحاديث المحزنة، ولنتحدث قليلا عنك. ماذا تفعلين هنا في المتنزه وحدك؟

ــ وحدي؟ ولماذا لا تخرج الفتاة للنزهة وحدها؟

ــ لست ادري. ولعل السبب أن الفتيات في بلادي لا يتجولن في الخلوات وحدهن.. ومع هذا لا اعتقد أن فتيات انجليزيات كثيرات يذهبن الى المنتزهات بمفردهن.

ــ وما أدراني. بعضهن يفعلن ذلك، وبعضهن الآخر لا يفعلنه. وكل شيء يتوقف على مزاج الفتاة وشخصيتها، وحالتها

العصبية . وأنا شخصيا آتي دائما الى هنا في الأيام التي يغلق فيها المتجر أبوابه مبكرا لأستنشق شيئا من الهواء الطلق ، لأني أقضي أيام الأسبوع داخل المتجر محرومة من نسمة منعشة . فوالدي يدير متجرا لملابس السيدات ، مع أفراد اسرتنا : أبي يشرف على الجانب المالي والتجاري ، وأخي على عمليات الشراء ، وأمي على التعديلات التي تطلبها العميلات ، وهي لاتبارح الجزء الخلفي من المتجر . أما أنا فأقوم بالبيع في المتجر بمفردي .. لقد غادرت المدرسة عندما بلغت الخامسة عشرة ، ولست أدري كيف تطيق أنت البقاء في المدرسة حتى هذه السن؟!

ــ انني أحب الدراسة .

ــ أما أنا فأحب الحياة !

وضحكت ، ووضعت ساقا على ساق ، فانحسر ثوبها الضيق القصير عن ركبتيها انحسارا شديدا ، واستطردت :

ــ وليس المرء في حاجة الى المدارس كي يمارس الحياة . فهي في حد ذاتها مدرسة كبرى .

ــ لست ادري ماذا تعنين بالحياة؟ نحن جميعا نحيا الى أن نموت ! .

ــ لاتصدق هذا الكلام! ان بعض الناس لا يحبون بل يتخبطون هنا وهناك وهم انصاف موتى!.

ــ ما هي الحياة اذن في رأيك؟

ــ يا لك من شاب مضحك! ان الحياة الحقيقية هي التمتع بالمباهج. وان تشبع رغبات شبابك. وهذا شيء تعرفه أنت بالطبع!.

ــ المشكلة الكبرى أن هذا الشيء بالذات هو الذي لاأعرفه!

وبدا عليه الارتباك لحظة، ثم ابتسم فجأة وقال باندفاع:

ــ عليك انت أن تعلميني!

فابتسمت ونظرت اليه نظرة غزل وتدلل، وقد اطمأنت الى أن الحديث قد انحرف الى المسنوى الذي كانت تنشده، فراحت تتقاذف معه أطراف الكلام، كما يتقاذف اللاعبان كرة (البنج بونج).. فكان يلتقط الكرة احيانا، وأحيانا أخرى يفلتها، غير أن هذا الأخذ والرد استغرق وقتا طويلا جدا.. ثم نظر أنطون في ساعته وعجب لتأخره وعدم احساسه بمرور الوقت، وقال لها معتذرا عن عدم استطاعته البقاء:

ـــ نحن نتعشى في السابعة.

ـــ وأين تقيم؟

فأخبرها بعنوانه، واقترحت عليه أن يسيرا عبر المنتزه في ذلك الاتجاه، الى أن يصلا الى محطة السيارات العامة. ونهضا، فحمل لها مظروف معطفها، وسارا فوق الحشائش النامية، والفتاة تتهادى بجواره فوق كعبيها العاليين، وأردافها الممتلئة ترتج تحت ثوبها الضيق.

وكان كثيرا ما رأى مثيلاتها في الأفلام، ولكن لم يخطر بباله أنه سيسير بجوار احداهن في يوم من الأيام! وكان احساسه بها غريبا، لأنه لم يسر بجوار فتاة من أي نوع من قبل، حتى ولا بنات عمته!.. وعجب ماذا عسى أن يقول «لندلي» لو أنه رآه. ثم تساءل عن سنها، وخطر له أنها تقاربه في العمر.. وأحب أن يعرف على وجه التحديد، فسألها:

ـــ متى عيد ميلادك؟

ـــ في يونيو «حزيران» شهر الورد. ولهذا سموني روزا. وأنت، متى عيد ميلادك؟

ـــ في اكتوبر «تشرين الاول».

وأراد أن يستدرجها، فاستطرد: «في اكتوبر «تشرين الاول» القادم سأتم الثامنة عشرة».

ــ اذن فأنا أكبر منك بأربعة أشهر!

ــ عجبا. لقد ظننتك أصغر مني!

ــ والمضحك انني ظننتك أكبر من سنك الحقيقية. حسبتك في العشرين. ولذا عجبت لأنك لم تزل تلميذا في المدرسة.

ووصلا الى محطة السيارات العامة، على الطريق الرئيسي المجاور للمنتزه. وفي فترة الانتظار خطر له أن يسألها متى يقابلها، ولكنه خجل وسكت. فلما أقبلت السيارة العامة عليهما، ولم يقل شيئا، قالت له: «ما رأيك في ان نلتقي مرة أخرى، مساء الجمعة، في منتصف التاسعة.. في نفس المكان؟

ــ واذا كان الجو ممطرا؟

ــ في هذه الحالة يا فتاي العزيز ندخل أي دار للسينما!

وغمزت له بعينها غمزة تواطؤ، فاحمر وجهه ودق قلبه دقا عنيفا، وقال: «ما أحب هذا الى نفسي!.. لقد كنت أفكر فيه ولكنني لم أجسر على التصريح!».

وقفزت الفتاة الى سلم السيارة العامة بكعبها العالي وثوبها المحبوك ، ثم جمعت شفتيها كأنها تقبله في الهواء!

وفي طريق عودة أنطون عبر المنتزه ، وجد نفسه يعيش في حلم ، وقد تبخرت من عقله كل موضوعات الاقتصاد السياسي التي كان مشغولا بها من قبل! .. وحلت محلها كلمات الفتاة عن الحياة ، والاستمتاع بالهوى، وقضاء لبانات الشباب .. وان معظم الناس يتخبطون في الدنيا أنصاف موتى! .. وخيل اليه أن تلك كانت حاله الى أن التقى بروزا التي ستعلمه كيف يحيا! .

ولما وصل الى البيت ، وجد جده في الحديقة الأمامية الصغيرة منصرفا الى العناية بأشجار الورد القليلة . فقال له الجد معاتبا : «لقد تجاوزت الساعة السابعة» .

ـــ اني آسف جدا يا جدي ، ولكنني لم أفطن لمرور الوقت .

ـــ وما هذا الذي بيدك ؟

وعندئذ فقط فطن انطون الى أنه لم يزل يحمل بيده معطف الفتاة ، فقال بارتباك : «لقد وجدته فوق مقعد بالمتنزه» .

ـــ ولكن ما هو ؟

ـــ انه معطف مصنوع من البلاستيك. معطف واق من المطر، من الطراز الذي شاع كثيرا في المدة الأخيرة.

فقال جده باشمئزاز: «معطف قرمزي؟! كان من المستحسن على كل حال أن تمضي به الى مركز الشرطة. فلا تنس أن تفعل ذلك غدا».

ـــ بل سأذهب به الى هناك بعد العشاء مباشرة.

وبعد العشاء مباشرة مضى انطون بالمعطف القرمزي الى «لندلي» فقد كان متلهفا أشد التلهف على مكاشفته بالمغامرة العجيبة التي واتاه الحظ بها، وابتدره بقوله: «احتفظ لي عندك بهذا الشيء الى يوم الجمعة».

ـــ ما هذا؟

ـــ كنت أتنزه هذا المساء مع فتاة، ووجدته في يدي على سبيل الخطأ بعد انصرافها، ولا استطيع أن آخذه معي الى البيت.. فجدي وجدتي كما تعلم.. ويوم الجمعة سألقاها مرة أخرى فأرده اليها.

وحملق لندلي في وجهه، ثم قال: «هل قلت حقا ما خيل الي أنك قلته؟؟».

فابتسم أنطون ابتسامة عريضة وقال: «لكل شيء أوان كما تعلم».

ــ وأين عثرت عليها؟

ــ أنا لم أعثر عليها. هي التي عثرت علي وأنا جالس على مقعد في المنتزه العام أطالع كتابا في الاقتصاد السياسي!.

ثم اندفع خارجا، وترك لندلي فاغر الفم، والمعطف القِرمزي ــ دليل المغامرة الخرافية ــ لم يزل في يده!.

ـ ٧ ـ

وبعد نصف ساعة من ركوبها السيارة العامة، كانت الفتاة التي دعت نفسها باسم «روزا روزادو» جالسة في حانة تروي تفاصيل مغامراتها بحماسة على مسامع صديقتها العزيزة «ألس ماير». وكان للآنسة ماير هذه صدر بارز على غرار صدور نجوم السينما، وعينان سوداوان يثقلهما الكحل، وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، أي أنها أكبر من صديقتها «روزا روزنبرج» ــ فهذا هو اسمها الحقيقي ــ بسنة واحدة. وتعمل «ألس» في قسم الأشرطة والاسطوانات بمتجر لبيع أدوات الموسيقى، وتخال نفسها مثقفة. وتأمل أن تتزوج من «لين» شقيق روزا الذي يشاركها في الميول الثقافية والميول الصهيونية، وقد تعرفت اليه عندما حضر لشراء بعض الاشرطة والاسطوانات.

وكان العامل الأكبر في جاذبيته بالنسبة لها انه يحلم بالهجرة الى (تل ابيب) قلب الصهيونية النابض، فلم يكن في ذهنها شيء أعز لديها من الرحيل الى «الوطن»، الى «اسرائيل» مع الرجل الذي تحبه!.

ومن الأسف أن والدي «لين» كانا لا يشاركان ابنهما أحلامه الصهيونية، فقد ولدا ونشآ في لندن، ويعتبران كل بلد غير انجلترا أرضا أجنبية في نظرهما، والقومية في اعتقادهما شيء والدين شيء آخر، وقصارى نظرهما الى نفسيهما انهما لندنيان يدينان بالعقيدة الموسوية.

وأما ابنتهما روزا فلم تكن تعير هذه المسألة اهتماما، فلا الدين يعنيها ولا الوطن. ولندن في نظرها مكان لطيف لأنها ألفته. ولذا كانت «ألس» و «لين» يعتبرانها «خفيفة العقل» أو «ضحلة»، ويأملان أن تحب يوما ما شابا صهيونيا متحمسا فتتحمس هي أيضا بالتالي للصهيونية. ولكنها الليلة وهي جالسة أمام ألس تحتسي جرعات كبيرة من شراب «الجين» القوي وتروي لها قصة اصطيادها لتلميذ غرير في المنتزه العام، سببت

آلاما شديدة لصديقتها، لأنها زادت ابتعادا عن الامل المنشود لها..

ــ لقد قلت له اني بلغت الثامنة عشرة في يونيو «حزيران» الماضي، فقال لي انه كان يحسبني أصغر من ذلك سنا! وقلت له ان اسمي «روزا روزادو» وان أجدادي من أصل اسباني!.

ــ هل جننت؟

ــ لو انني قلت له ان اسمي «روزا روزنبرج» لكان من الجائز أن ينفر مني، ولم أكن مستعدة للمجازفة بذلك. ولكنك لا تستطيعين تقدير هذا الاحساس لأنك لم ترِ جماله، ولأنك أيضا لاتعرفين جنسيته!.

فقالت الانسة مايير بمرارة: «لعله عربي؟»

فنظرت اليها روزا بدهشة وقالت: «رباه! كيف تسنى لك ان تعرفي انه عربي؟»

ــ عندما قلت لك انك ادعيت لنفسك تلك الدماء الاسبانية، أدركت انه في الغالب من أصل له صلة ببلاد الاندلس. ولكن أهو عربي حقا؟

ــ تقريبا.. انه في الواقع فلسطيني. وقد روى لي كيف

اضطروا ـــ هو وأسرته ـــ للخروج من بلدهم في سنة ١٩٤٨، وكيف خسرت أسرته كل شيء بسبب ذلك، وان هذه النكبة قضت على حياة ابيه بعد ذلك بوقت قصير. والحقيقة اني اسفت كثيرا له..

ــ أسفت له؟ انهم الذين بادؤونا بالحرب والعدوان! أنصحك ياروزا الا تذكري شيئا من هذا لأخيك!

ــ لست أبالي. فهو جذاب جدا. وسوف أقابله مرة ثانية يوم الجمعة.

ــ آه! انتظري الى أن يكتشف انك يهودية!

ــ سوف لا أخبره!

ــ ولكنه لابد أن يكتشف الحقيقة في النهاية.

ــ وهبي أنه عرف، فماذا في ذلك؟ ليس من موجب اطلاقا في نظري للعداء بين اليهود والعرب!.

ــ لا تكوني بلهاء الى هذه الدرجة ياروزا! لا تقابليه بعد اليوم. فانه ـــ عاجلا أو آجلا ـــ سيكتشف انك يهودية،

وعندئذ سينقلب حبه لك الى كراهية ومقت . ثم ما جدوى هذه المغامرة على كل حال؟

ــ ماذا تعنين؟

ــ انه حديث السن جدا . وحتى لو لم يكن حديث السن جدا فلن تمكنكما الزواج على كل حال! .

ــ ود . ي يفكر في الزواج؟ اني أريده صاحبا وحبيبا ألهو وأتمتع بشباب، معه بعض الوقت . وهذا كل شيء! ثم أنه صارحني باعتزام الذهاب الى الأردن في نهاية السنة . آه لو رأيته! انه لطيف سورة لا يتخيلها العقل .. وساذج جدا وبريء . واعتقد انه ! . بق له تقبيل فتاة في حياته كلها! تصوري انه قال لي ان علي أن أعلمه كل شيء عن الحب، وعن الحياة المرحة اللذيذة؟! .

وضحكت روزا في سعادة، وأردفت : «وأراهنك على أنه سيتعلم بسرعة فائقة . فهو يبدو ذا استعداد هائل في هذه الناحية .. فشكله يدل على ذلك» .

ــ يدل على ماذا؟ على الذكاء؟

ــ اوه . . بل على الموهبة الجنسية!

فقالت لها ألس محذرة: «ستزجين نفسك في المتاعب يوما ما من غير ان تشعري».

ــ ولماذا؟ لقد حظيت بالاتصال بفتيان كثيرين جدا من قبل كما تعلمين. وبعضهم كانوا من ذوي الخبرة الواسعة جدا في هذا الميدان، ولكنني كنت أعرف دائما متى أوقفهم عند الحد الذي أريده أنا!.

ــ آه! ان الفتيان المجربين ــ كما تسمينهم ــ جانبهم آمن من جانب هؤلاء السذج المبتدئين. لأن المجرب لا يندفع بجهل وحماسة فائقة كالساذج. والمسألة كلها في جملتها ذات طابع جنوني في نظري. فما أكثر الفتيان اليهود من حولك الذين تستطيعين الاستمتاع معهم، وهم أولى بالاستمتاع بك من هذا العربي. ماذا مثلا عن ذلك الفتى الذي التقيت به في المرقص يوم السبت الماضي ورقص معك طول الوقت؟ ما اسمه؟

ــ دافيد ماركس! أنا لا أريده. فهو مغرور أكثر مما ينبغي، ويخيل اليه أن كل فتاة واقعة في غرامه. وهذا هو السبب في أنني رفضت أن أعطيه موعدا لاخرج معه. ولكن هذا الفتى يختلف

عنه في كل شيء، فهو خجول.. ولكن سوف أعلمه الجرأة في الغرام!.

ـــ هذا ما يخيل اليك! ولعله هو الذي سيعلمك درسا لاتنسينه!.

ولمعت عينا روزا، واكتسى وجهها بابتسامة مشرقة وقالت: «آه! كم سيكون لذيذا أن أتعلم منه اذن!».. وبعد لحظة تنهدت وأردفت: «انه جميل! ظريف! فاتن! ولكنك لاتدركين هذا لأنك لم تريه. عديني أنك لن تخبري «لين». عديني!».

ـــ لا تنزعجي. سوف لا أخبره. ولكن هذا لا يغير من الواقع، وهو أن المسألة كلها ليست على مايرام. وستندمين عليها يوما ما.

ـــ أندم؟ ولماذا أندم؟ أنا أنوي أن أحظى بمتعتي معه. ولن يحول بيني وبين هذه المتعة أحد!.

○

وفي الموعد المحدد، يوم الجمعة، وصلت الفتاة الى المكان المعهود، فاذا انطون جالس، والى جواره دراجة! وعندما أبدت

دهشتها بصددها، صارحها بأنه وجد عقبات في سبيل الخروج من البيت ليلقاها، اذ قال بعد العشاء أنه يريد التوجه الى بيت مدرسه الخاص السابق برهة هذا المساء ليستوضحه بعض نقاط النظرية الاقتصادية، واذا بجده يقول على الفور أنه يريد أن ينتهز هذه الفرصة للتنزه معه على قدميه بعض الوقت في ذلك الاتجاه، فلم يجد بدا من ان يزعم انه سيذهب على دراجة ليمر أولا ببيت زميله لندلي الذي قضى معه فترة العطلة السابقة في سويسرا. واضاف انطون:

ــ وكان هذا صحيحا ياروزا، لأني كنت قد أخفيت عنده معطفك الواقي من المطر، ولا بد لي من احضاره. وكل ما هناك اني لم أكن عازما على الذهاب بالدراجة، بل بالسيارة العامة. وتناولت روزا معطفها من يده قائلة: «ولكني لا أفهم لماذا اخفيت المعطف عند زميلك؟».

ــ لأني لو أخذته الى البيت عندنا لكان علي أن أجيب عن عدة أسئلة: فأذكر لجدي وجدتي كيف تعرفت بك، وكيف اننا سنتقابل مرة أخرى، وهي اسئلة لا احبها.

فاستاءت روزا بعض الشيء، وقالت بامتعاض: «أليس

في وسعك ان تغادر البيت اذن من غير ان تقول لهما الى أين أنت ذاهب بالضبط؟»

ــ ليس هذا سهلا ، لأنهما يحبان بطبيعة الحال أن يعرفا كل شيء.

ــ انا شخصيا لا أقدم أي تفسيرات عن تحركاتي. حسبي أن أقول ان خارجة!

ــ لعلني لو كنت أعيش مع أمي لم أكن مضطرا لهذا، ولكن جدي وجدتي من الطراز القديم كما تعلمين.

ــ يبدو هذا.. أرى أن السماء ستمطر..

وفتحت المظروف واستخرجت معطفها الواقي من المطر، وساعدها هو على ارتدائه.. ثم قالت بتذمر: «لولا انك احضرت معك هذه الدراجة لكان في وسعنا ان ندخل دارا للسينما».

ــ ليس في وسعي على كل حال أن أتأخر في الخارج الى موعد انصراف السينما.

ــ لم يكن هناك اذن ما يبرر الحضور. أليس كذلك؟

ــ أليس يكفي أن نتمشى قليلا؟

فنظرت اليه نظرة محنقة، ولكنها تقدمته لصوب أجمة

الشجر الكثيفة في ركن المنتزه. وكان الهواء ثقيلا، ومحملا ببوادر مطر، ووجدت روزا صعوبة في السير على العشب الكثيف بكعبها العالي وحذائها المكشوف، لأنها كانت قد رتبت نفسها على قضاء الليلة في ركن خلفي متوار من دار للسينما، كي تحظى منه بما تشاء من العناق واللمسات الغرامية الساخنة.

وتوغلت به بين الشجر، ثم نظرت حولها وقالت له: «في وسعنا أن نجلس هنا».

ــ ولكني لاأرى مقاعد..

ــ يعيب في الجلوس على الأرض.. هكذا!

وبجوار شجرة بلوط صغيرة جلست، أو بمعنى أدق اضطجعت على الأرض فوق كومة من الأوراق الجافة، وأسند أنطون دراجته الى شجرة بعيدة ثم جلس على الأرض منتصب القامة بجوارها، وهو يعجب كيف تقدم فتاة «محترمة» على شيء كهذا. فالمكان قذر، وهناك مجموعات من النمل..

وبسرعة خلعت روزا صندلها ذا الكعب العالي وهي تقول بلهجة تأنيب:

ــ لقد كاد المشي يقتلني.. والآن اقترب مني قليلا!

وقبل أن يتحرك كانت هي قد التصقت به وألقت برأسها على كتفه. ولكنه حسب أن كل ما ترمي اليه هو أن تتخذ من كتفه وسادة، فلم يحرك ساكنا.. فقالت له في اغراء: «ها أنت ترى المكان خاليا الا منا نحن الاثنين..».

ــ فعلا..

ولم يحرك ساكنا أيضا. وكانت تنتظر على الأقل ــ مهما كانت درجة براءته ــ أن يمد ذراعه فيطوق عنقها وينحني فيقبلها. وانتظرت لحظة، ثم قالت له بصوت حاد: «أليست لديك أية فكرة عما يصنعه الفتى بفتاة في خلوة؟».

فارتبك أمام هذا السؤال المباشر المفضوح، وضحك ثم قال: «هذه مسألة جديدة تماما بالنسبة لي.. وكل ما يساورني الآن أن أنال منك قبلة.. ان كان هذا ممكنا!»، فرفعت وجهها اليه وقالت بهدوء: «ولماذا لا تنالها اذن؟».

فطوقها بذراعه بغير قوة، وقبل خدها. وكاد يبتعد عنها وقد فرغ من «مهمته» تلك، واذا بها تتناول وجهه بين يديها وتلتهم شفتيه التهاما بقبلة ضارية، وقد دست لسانها بين شفتيه، فكادت أنفاسه تلهث من الدهشة والمفاجأة، وأصابه دوار!.

وأخيرا رفعت فمها عن ذلك المنهل الذي شربت منه بشراهة، وقالت: «كم أنت لذيذ الطعم! ولكنك طفل. طفل كبير!».

ـ اوه. انا آسف جدا ان كنت خيبت ظنك.

وعبثت اصابعها داخل حقيبة يدها واستخرجت سيجارة اشعلتها وجذبت منها نفسا قويا، ثم قالت له: «أهذه أول قبلة تنالها من فتاة؟».

ـ لم أقبل فتاة قبلك اطلاقا.

ـ ألم تحدثك نفسك بتقبيل فتاة؟!

ـ كلا.. الى ان التقيت بك لم افكر في ذلك. لم يخطر ببالي.. فالحقيقة ان أمور حياتي كلها كانت مضطربة جدا منذ غادرنا فلسطين.

ـ أحسب هذا هو السبب فعلا. لقد مرت بك تجارب سيئة.

ـ سيئة جدا. فظيعة. ولم تزل تتراءى لي الكوابيس الى اليوم حول هذه التجارب المروعة.

ــ ولكن هذا كله قد انتهى الآن، وفي وسعك أن تريح أعصابك وتتمتع بحياتك، وقد صارت لك صديقة!.

فرد على ابتسامتها وقال: «نعم. هذا شيء رائع حقا. فاني لم استطع منذ فارقتك أن أفكر في أي شيء سواك!».

ــ يجب اذن ان تفكر في طريقة نجتمع فيها معا على صورة أوفق من هذه، وأنسب، وأدعى للانطلاق على سجيتنا. ما رأيك في يوم الأحد!.

فهز أنطون رأسه بوجوم، وقال: «لافائدة من المقابلات في عطلة الاسبوع، لأن أمي تحضر لدينا ويجب أن أكون بالقرب منها. واذا لم تستطع الحضور مساء السبت، ذهبت لمقابلتها في المدينة بعد انتهاء الصلاة في الكنيسة صباح الأحد، ثم نخرج للنزهة وقضاء الوقت معا».

ــ أتذهب الى الكنيسة؟ هل أنت متدين؟

ــ لست أدري هل أنا متدين أم لا. ولكني أحب الذهاب الى الكنيسة. ألا تحبين أنت الكنيسة؟

ــ أنا؟ أنا لست أرثوذكسية!

ــ طبعا، فأنت كاثوليكية، لأنك من أصل اسباني.

ـــأنا لست منتمية لأي كنيسة انتماء حقيقيا!

ـــلقد بدأ المطر يشتد. يجب أن ننصرف الآن من هنا.

ـــنعم. وأنا أيضا يجب أن أعود على كل حال.

ونهض وأنهضها. وكانت متأكدة انه سينتهز فرصة التصاقها به هكذا عندما وقفت كي يقبلها، مستفيدا مما تعلمه من قبلتها الساخنة، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، وتركها حانقة واتجه صوب دراجته كي يحضرها.

وعند موقف السيارة العامة أعطته الفتاة رقم تليفونها، وافترقا من غير أن يتفقا على موعد آخر، فقد قال لها انه يجب أن ينصرف الى الدرس، ثم هو لا يستطيع أن يتقيد من الآن بموعد لأنه لا يعرف متى سيكون الظرف مناسبا للقاء، وقد اقترب الامتحان..

واتفقا على أن يتصل بها تليفونيا عندما يستطيع تدبير مكان وزمان مناسبين للخلوة السعيدة التي تحلم بها..

— ٨ —

وكان أنطون يدرك تمام الادراك أن هذه الفتاة روزا ليست من الطراز الذي يمكن أن يلتقي به في دوائر آل منصور أو آل ملبي . وهو يعلم تمام العلم أنها من النوع الذي تطلق عليه جدته وصف «السوقية» . أما أمه فلم يكن متأكدا ماذا عسى أن يكون رأيها . وخطر له فجأة أنه في الواقع يعرف عن تفكير جدته أكثر مما يعرف عن تفكير أمه . فهو على علم بطريقة تأثرها بأشياء كثيرة ، أما أمه فخيل اليه انه لا يعرف عن رأيها في معظم الأمور الا أقل القليل ! .

وقال لنفسه : «ليس في وسعي أن أخبرهم ، لأنهم لن يستطيعوا فهم حقيقة الموقف .. «لندلي» وحده يستطيع أن يفهم ذلك لأنه يميل للفتيات وصحبتهن ، من كل نوع ، ولا يقيم

وزناً على الاطلاق للمقتضيات الرسمية في التقديم والتعارف وما الى ذلك. ولكن لندلي لا يحيط أسرته علما بمغامراته، ويعمد الى الكذب والخداع في علاقاته تلك!».

روزا! ما أحلاها، بشعرها الغزير الحالك السواد، وعينيها السوداوين الواسعتين، والابتسامة التي تذكره كثيرا بابنة عمه نادية. لقد كان في هذه المقابلة خجولا مرتبكا، ولكنه في المرة القادمة.. لن يتهيب، ولن يستغرب الموقف، وسيبلي بلاء حسنا!.

سيتصل تليفونيا في الأسبوع القادم ويحدد معها موعدا، ثم يذهبان معا الى السينما كما اقترحت هي. وفي الظلام الدافىء الذي يكتنف قاعة السينما لن يشعر بالخجل الذي يشعر به في العراء. سيجلسان في الصف الاخير وتتشابك ايديهما و.. و.. يتبادلان القبلات! لقد رأى الكثيرين يصنعون مثل هذا في السينما. وكثيرا ما تباهى صديقه لندلي بأنه صحب فتيات الى السينما ولم يروا شيئا من الفيلم المعروض، لأنه كان يمثل معهن فيلما خاصا جدا!!

○

وعاد الى البيت فألفى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة مشغولا بمهمته الليلية التي يسميها «الانتهاء من قراءة التايمس» فلما رآه جده داخلا طوى الصحيفة وسأله: «هل تمكنت من استجلاء النقاط الغامضة مع مستر جونز؟».

ــ نعم. وشكرا لك. أين جدتي؟

ــ في الداخل تصنع الشاي.

ــ الجو حار جدا لا يصلح لتناول الشاي. ما اشبه هذا بجو أريحا الخانق.. لقد أرهقني جدا، ولذا اعتقد اني سآوي الى فراشي فورا، ان لم يكن لديك مانع.. لأني أشعر بصداع. و لابد أن الرعد هو السبب فيما أعانيه.

فأجابه جده وهو يستخرج غليونه من جيبه ويشرع في حشوه:

ــ ربما..

○

وعندما أوى روبرت ملبي الى مخدعه بعد ساعة، خاليا الى نفسه، استلقى على فراشه وراح يحدق في الظلام، مفكرا في

الشخصين اللذين رآهما يخرجان معاً من الغابة الصغيرة وهو يتمشى هذا المساء.. وكان هذان الشخصان: تلك الفتاة ذات الشعر الفاحم والمعطف القرمزي الواقي من المطر، وقد تأبط ذراعها.. ابن ابنته!

كانت الفتاة تضحك له، وكان أنطون سعيدا منتشيا بقربها، حتى انه لم يلمح جده قبل ان يتوارى بسرعة وراء شجرة، ثم يتسلل الى اقرب حانة فيطلب كأسا مزدوجة من الويسكي، ليتغلب على المباغتة المذهلة التي مني بها. وما ان تلاشى الشعور بالمفاجأة حتى حل محله شعور بالاستياء الشديد.. لماذا فعل به انطون هذه الفعلة؟ لماذا كذب عليه منذ البداية في شأن هذا المعطف القرمزي القبيح الذي زعم له انه وجده على أحد مقاعد المنتزه؟ ولماذا ادعى انه حمله الى مركز الشرطة؟ لعل الصحيح أنه حمله الى بيت زميله لندلي، ثم استرده منه هذا المساء، فقد قال انه ذاهب الى هناك عندما خرج اليوم. ولكن لماذا كل تلك الاكاذيب والخدع؟.. ان هذه أول مرة يشعر فيها بالاستياء والتأذي من حفيده. وها هو الآن يحملق منفردا بنفسه في الظلام

ويحاول أن يجد تعليلا لسلوك أنطون . وبدا ينتحل له المعاذير :

ــ لم يكن في وسع أنطون أن يخبرني بأمر هذه الفتاة ، لأنها قنيصة تصيدها من الطريق . وهو في قرارة نفسه يعلم انها شابة غير مناسبة له وغير لائقة لنا . ولأنه يعلم ــ فيما لو أخبرنا ــ أنه سيكون مضطرا لمكاشفتنا بكيفية تعرفه اليها ، ولن يكون ذلك مستساغا .

ثم شرع بعد ذلك ينظر الى هذه العلاقة في ضوء عملي بحت :

ــ ولكن ماذا عساه يصنع مع مثل هذه الفتاة ؟ انه فتى وسيم وما أكثر الفتيات اللواتي يتمنين مصادقته من بنات الأسر ، في محيطه ومحيطنا . وانه ليلقى الكثيرات منهن كل يوم ، فما حاجته الى التخفي في الآجام والغابات مع هذه المخلوقة المبتذلة ؟ .

وانتقلت افكاره الى ابنته ، والدة انطون : « وماذا عسى ان تقول ماريان في هذا لو أنها علمت به ! وهل ينبغي أن تعرف ؟ انه لمن المستحيل مكاشفة ماريان واخفاء السر عن الزبيت .. وان لم يكن من المستبعد ان تشجع ماريان ابنها على مثل هذه العلاقة ــ بصرف النظر عن كنه الفتاة نفسها وصفاتها ــ طمعا في

المباعدة بينه وبين فكرة قضاء سنة التمرين في الأردن. ولعلها في هذا على حق».

ومرة أخرى عاد الى علاقته هو بهذه المسألة: «ولكن لماذا أخفى أنطون عليّ أنا هذه العلاقة، ولو كلفه ذلك الاخفاء الكذب، وأنا صديقه وصفيه الحميم؟.. هل أشعرته في أي يوم من الأيام بما يدفعه الى الحذر مني واخفاء خصوصياته عني؟ أم لعل السبب أنني في مقام والده بعد وفاة بطرس منصور، ولهذا فهو يستحي من مصارحتي بمثل هذه الشؤون؟ ثم ما العمل الآن؟ هل ألزم الصمت وأترك الأمور تجري في أعنتها؟ أم أجابه الفتى بكل ما أعرفه، وأقول له صراحة: «لماذا كذبت علي؟ لماذا خدعتني؟ ومن هذه الفتاة السوقية؟ وما هي نواياك؟».. لا. لا. ان ذلك كله سخيف جدا، فنحن الآن في سنة ١٩٥٣. حمانا الله وكان في عوننا! انه حكم الزمن.. وليس من الجائز احراج الفتى بهذه الصورة القاسية، فذلك قد يدفع به الى علاقة أوثق بتلك الفتاة.. فبعد أن يكون مكتفيا بأحضانها في الحديقة، يندفع الى التقلب بين أحضانها في الفراش! ثم ان ذلك من شأنه أن يسدل ستارا حديديا بيني وبينه الى الابد. فمن الخير اذن أن

ندع المسألة تآخذ مداها بدون تدخل.. ولنرقب وننتظر ما يتمخض عنه الغد.. من غير قلق، على حد تعبير ابناء هذا الجيل..: «دع القلق... واستأنف الحباة!».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ٩ ـ

كانت «ألس مايير» مخلصة في وعدها الذي قطعته على نفسها بألا تبوح بسرها لروزا . ولكن من الأسرار نوعا معينا تدخل في تكوينه «أحماض كاوية» ، تحفر لنفسها مسارب تتسرب عن طريقها من الخزائن التي تودع فيها داخل السريرة .

والحق أن ألس كانت في حالة «انسجام» تام مساء ذلك اليوم من أيام السبت ، وهي جالسة مع «لين» (شقيق روزا) فوق شرفة الفندق الواقع على شاطىء النهر في (ريتشموند) تحتسي كأسها الثانية من «الجين» .. تلك الكأس الثانية التي تقول ألس دائما انها تجعلها في حالة «انسجام» تام ! .

ومن عادة «لين» أن يأخذها في سيارته الصغيرة في نهاية كل اسبوع ـ في حالة اعتدال الطقس ـ ويترك السيارة في رحبة

الفندق ، ويجلسان في الشرفة مطلين على النهر ، ويشربان بضعة أقداح مترعة من الشراب القوي ، ثم ينتقلان الى قاعة المطعم بالفندق فيتناولان عشاء طيبا . وكان من أهم ما يحبب « لين » الى « ألس » انه ينفق في صحبتها بسخاء . وبعد العشاء يستقلان السيارة الى تل (رتشموند) الذي تكسوه الخمائل ، وبه حديقة واسعة . وهناك يتركان السيارة ويأخذ « لين » من حقيبة السيارة معطف مطر وبطانية ، فيفرش البطانية على الأرض في مكان منزو بين الأشجار الملتفة ، واما المعطف الواقي من المطر فانهما يلتحفانه معا في حالة هطول الأمطار ، وينصرفان وهما في حالة « الانسجام » ــ من الخمر والطعام الجيد الذي يدفىء أوصالهما ــ الى ألوان من « العناق » و « اللمسات » الحامية الوطيس . وهذا العناق « الساخن » هو العنصر الرئيسي في برنامج الليلة باستمرار .

وكانت « ألس » تزهو دائما بأنها تعرف في جميع الأحوال أين تقف ، وأين توقف « الطرف الآخر » عند حده ، وان كانت تعترف أن المسألة كلها محفوفة بالمجازفة ، وان المجازفة تبدو في أحيان كثيرة مفزعة ، ولكنها تتنهد وتحمد الله على « السلامة » في

آخر حصة! ولكنها تعلم أن الحزم — مهما كان قاسيا على نفسها — فهو لازم وواجب، لأنها بفضل هذه الخطة تطمع في ارغام «لين» على التزوج بها يوما ما، كي يتخلص من هذه «التحريمات» المؤلمة. فان عاجلا أو آجلا سيصرخ لين:

— لم يعد في وسعنا الاستمرار على هذا النحو!

وهي واثقة انه في حماسة الحرمان سيعلن خطبتهما رسميا!.. وهي تتوقع أن يحدث هذا الاعلان في أي مساء من أمسيات السبت.

وكانت تأمل كثيرا أن يتم هذا في هذه المرة بالذات، لأن «لين» كان «مشتعلا» للغاية منذ غادروا الفندق، ولم تكف يده عن تحسس اعطافها اللدنة في المواضع الحساسة وهو يقود السيارة، قبل ان يصلا الى فندق ريتشموند كالعادة، مما حرك مشاعرها. وحين تتحرك مشاعر امرأة نحو رجل ما فلن تقوى طويلا على الكتمان.

وفي منتصف كأس «الجين» الثانية قالت له بغموض: «لن تستطيع أن تخمن من هو آخر خلان اختك روزا!»..

ولم يثر فضول «لين»، لأن اخته روزا تصاحب عددا

لاحصر له من الخلان، الواحد بعد الآخر، وقال بلا مبالاة:

ــ ليست لدي أية فكرة طبعا. ولماذا أهتم بأصحاب أختي؟.. انها لم تكن جادة في صلتها بأي واحد منهم.. وانما هي ضمات ولمسات عابرة في ركن مظلم من السينما أو في المقعد الخلفي من سيارة أحدهم..

وضحك لين وهو يقرص موضعا في جسم «ألس»، وقال: «أنا أعرف أختي الصغيرة.. وحبها لهذه المسألة!».

ــ سواء كانت جادة أو غير جادة، فسيدهشك، بل سيذهلك، ان تعرف هذا الصاحب الأخير..!

فبدا عليه الاهتمام وقال في توجس: «لاتقولي لي انه متزوج!» فقهقهت ألس وقالت: «متزوج؟! بالعكس! انه لم يزل تلميذا في المدرسة.. عمره ١٨ سنة! بل أقل من ذلك!»

ــ هل انقلبت أخيرا الى «خاطفة أطفال»؟ ولكن لا شأن لنا بهذا، ما دام هذا اللون من المتعة يروقها! هيا اشربي بقية كأسك كي ننهض الى قاعة المائدة..

فأمسكت «ألس» بكأسها ولكنها لم تشربها، بل قلبتها في يدها وقالت بلهجة ذات مغزى: «أنت لم تفهم غرضي بعد!».

ـــ بل فهمت! روزا تصاحب تلميذا صغيرا. وماذا في ذلك؟ هي حرة فيمن تختارهم لمتعتها الخاصة!

ـــ ولكنه لاجيء.. من فلسطين!

ـــ ايه؟ ماذا تقولين؟ هل هي التي قالت لك هذا؟

ـــ وكيف كنت خليقة أن أعلم؟

ـــ لابد أنها جنت!

ـــ هذا بالضبط ما قلته لها أنا!

ـــ وماذا قالت لك؟

ـــ قالت ما معناه أن اليهود والعرب ينبغي ألا يتباغضوا، وكانت تشعر بمنتهى العطف عليه وعلى قومه!

ـــ تعطف عليه؟ على عربي؟

ـــ لأن أسرته فقدت كل ممتلكاتها عندما اضطرت للهجرة من اللد.

وشربت ألس كأسها وقالت له باسمة: «أفلا تنهض؟»، ولكنه في هذه المرة كان هو الذي تباطأ، وبدا وجهه شاحبا جدا من فرط الغضب، وقال لها بعنف: «أمامنا ما هو أهم! لابد أنه

يصب في أذنيها دعايته المسمومة ضد الصهيونية وضد اسرائيل ! » .

ـــ ولكن مالنا ولهذا ؟ اننا لا نستطيع شيئا ، فهيا بنا نأكل .

ونهضت ، فلم يجد بدا من النهوض بحركة عنيفة ، فأسقط كوبا على الأرض لشدة تخبطه وهو يقول : « ألا نستطيع شيئا حقا ؟ سترين ما سأفعله ! » .

وشعرت « ألس » بالخوف الشديد ، لأن روزا لن تغتفر لها هذه الخيانة . ولكنها هزت كتفيها وقالت لنفسها : « ما كان لها ان تبوح لي بهذا السر على كل حال ، وهي تعرف أني صهيونية متحمسة مخلصة لمبادئي وعقيدتي ! أوه . كنت أتمنى لو عقلت لساني ولم أفش سرها ، ولكن الكأسين جعلا الكتمان مستحيلا .. ثم لمسات « لين » .. وكل شيء ! .

○

وصمم « لين » على أن يصفي الموضوع مع روزا هذه الليلة بالذات . ولم يخض في أي موضوع آخر على مائدة

العشاء، ولم يحاول مرة واحدة أن يمد يده خلسة تحت مفرش المائدة ليتحسس ركبتي «ألس» كعادته..

وبعد لقيمات قليلة كف عن الطعام، وقال: «أشعر بانزعاج شديد. لن أصلح للذهاب معك الليلة الى الحديقة. أعصابي في غاية التصدع. ويجب على أية حال أن أذهب الى البيت مبكرا هذه الليلة».

ـــ ولماذا؟

ـــ كي أكون في انتظار هذه العاهرة الصغيرة عند عودتها!

ـــ ولكنني لا أعتقد أنها تقابله في أيام السبت.

ـــ أنت لاتعرفينها اذن! انها لايمكن أن تدع يوم سبت يمر من غير أن تتمرغ في أحضان فتى يروقها! ولم أرها تخلف عادتها هذه سبتا واحدا منذ تركت المدرسة!

ومدت «ألس» يدها من تحت مفرش المائدة، ووضعتها على فخذه، محاولة استدراجه، وقد مالت الى الأمام بشدة فوق المائدة، فبدت له من فتحة صدرها العارية مفاتنها التي كان يتحرق عادة الى اجتلائها، ولكن سحنته المربدة لم يبد عليها التأثر بما يلمس ولا بما يرى، فقالت: «هبها تسمع منه دعاية

ضد الصهيونية، ففي مقدورك أن تصحح لها تفكيرها بسهولة بعد ذلك، من غير ان تفسد علينا لذتنا الاسبوعية بهذه الصورة».

ـ يا لك من حمقاء! أليست امرأة؟ هل تعتقدين أن الفتاة المفتونة بشاب يمكن أن تعير سمعها لما يقوله أخوها، اذا كان مناقضا لما يقوله خليلها في لحظات الانسجام؟

ـ أرجوك. لاتكن مفرطا في قسوتك على روزا! انها مسألة هينة جدا.. هينة للغاية! انه تلميذ صغير!

ـ لا فائدة من هذا الكلام كله! هذه مسألة خطيرة جدا. ويجب وضع حد لها. وسأضع حدا لها.

ـ لست أدري كيف يمكن هذا! ماذا ستفعل؟

ـ سأروعها! سأفزعها بحيث لا تجسر بعد ذلك على الاتصال به.

ـ انها ستكرهك الى الأبد! لن تغفر هذا لك!

ـ لا حيلة لي في هذا. ومن ذا الذي يبالي بالحب أو الكره؟ ان في الدنيا أمورا أهم من هذين بكثير..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ١٠ ـ

والواقع أن روزا روعت ارتياعا شديدا ، حتى أنها بعد خطة التحدي الغريزية التي اتخذتها لأول وهلة ازاء أخيها ، دفاعا عن حقها في الحرية الشخصية فيما يتصل بعلاقاتها بالجنس الآخر ، على حسب تقاليد بيئتها ، ثابت الى خطة اخرى مناقضة لها تماما ، فتعهدت بألا ترى «أنطون» بعد ذلك أبدا ، فيما عدا مقابلة أخيرة تودعه فيها . بيد أن أخاها ظل ثابتا على موقفه الحازم ، مصمما على ألا تراه حتى ولا تلك المرة ، وقال لها :

ــ خبريني أين ستقابلينه يوم الأثنين وسأذهب أنا اليه وأشرح له الموقف . وسأعرف كيف اشرحه له جيدا !

وكانت قد اتفقت مع «أنطون» على اللقاء على ذلك المقعد المواجه للبحيرة ــ في المنتزه العام ــ في منتصف التاسعة .

وكانا قد التقيا يوم الأربعاء السابق عند محطة السيارات العامة، وتوجها على الفور الى دار قريبة للسينما. وكانت «الحفلة» ناجحة جدا، فلم يريا شيئا من الفيلم لفرط انهماكهما في «عرض خاص» بهما، وبلغ من هذا النجاح أنهما اتفقا على المقابلة عند البحيرة يوم الجمعة، وذهبا في هذه المرة الى الغابة.

ولكن الخلوة في الغابة هذه المرة كانت مختلفة تماما عن أول خلوة لهما هناك. لقد زايل أنطون حياؤه تماما، حتى لقد شعر الاثنان أنه سيصعب عليهما الصبر على التباعد مدة عطلة الاسبوع ــ حتى يوم الاثنين الذي تواعدا على اللقاء فيه أمام البحيرة، ليكررا زيارة الغابة ــ وقد بات أنطون لا يرهب الغرام في العراء. والحق أن افتتان كل منهما بالآخر، أو بالمتعة التي يجدها بين أحضانه بمعنى أدق، كان بالغ التأجج، ولكن لم يكن من ذلك الصبر مفر حتى يوم الاثنين.

وهاهو أخوها «لين» ينتزع منها هذا الوعد الفظيع بألا تراه ولو تلك المرة الأخيرة، ولكنها صممت بينها وبين نفسها على أن تذهب للقائه تلك المرة، ولو كان في ذلك هلاكها، ولذا كتمت عن اخيها مكان اللقاء!.

وخرجت يوم الاثنين من البيت في ساعة مبكرة جدا ــ قبل خروج أخيها، حتى لايتبعها ــ وظلت في المنتزه زهاء ساعة تنتظر حضور أنطون، وهي متوجسة أن تكون الخائنة الواشية «ألس» قد باحت أيضا بمكان التلاقي، فتفاجأ بأخيها «لين» وقد جاء متسللا الى هناك، ولذا حرصت على التواري خلف مجموعة من الاشجار، وهي في حالة يرثى لها من التوتر العصبي، الى أن حضر «أنطون» قبل الموعد المضروب ببضع دقائق.

ولكم أدهشه أن يراها تبرز له فجأة من وراء الأشجار! ولكن الدهشة لم تلبث أن أخلت مكانها للفزع عندما رأى الامارات البادية على محياها وهي تقترب منه، وسألها: «ما الخبر؟ هل هناك ما يروعك؟».

ــ نعم. كل شيء. كل شيء على غير ما يرام. هيا بنا نمضي الى الغابة.. وهناك سأشرح لك كل شيء.

وتبعها الى الغابة وهو يغالب القلق، متصنعا المرح، وسألها: «ما المسألة؟ ولماذا تسرعين هكذا؟».

ــ كي نختفي.

ــ نختفي؟ ممن؟ ولم؟

ـــ من أخي ...

وزادت من سرعتها، فلم يسعه الا أن يلاحقها. وفي جوف الخميلة الملتفة هدأ من روعها قليلا بعد أن تلفتت حولها واطمأنت الى أن أحدا لا يتعقبها. وسألها مرة أخرى: «ولماذا يجب أن نختبىء من أخيك؟».. ولكنه لم يترك لها فرصة للجواب، بل جذبها اليه على الأرض المعشوشبة، وأغلق فمها بقبلة منهومة أصابت رأس «روزا» بدوار، وظلت بعدها عدة ثوان مبهورة الانفاس، لا طاقة لها على الكلام، فقال لها:

لقد قضيت هذه الأيام على أحر من الجمر من شدة الشوق الى الاجتماع بك مرة اخرى، أيتها الفاتنة الحلوة روزا!

وتشبثت به في وله، وشرعت تبكي وهي تقول له: «آه يا حبيبي أنطون! كم أنا شقية معذبة بسبب حبك!».

ـــ ما المسألة؟ ما الذي يزعجك؟

ـــ لقد أرغمني أخي على أن اقطع صلتي بك، وقال لي انني لو حاولت مقابلتك بعد الآن فسوف يتعقبني أو يكلف من يتعقبني، الى أن يعرف محل اقامتك والمدرسة التي تدرس بها.. وسيضربك!

ـــ يضربني؟ ولماذا؟ هذا شيء عجيب. ثم ان ضربي ليس مسألة سهلة الى هذا الحد. ففي وسعي أن أقاتل قتالا مشرفا عند اللزوم. ولكن ما هي المسألة من بدايتها على كل حال؟

فقمعت روزا دموعها ثم سألته بصوت خافت: «هل تحبني حقا ياأنطون؟».

ـــ طبعا. وانت تعلمين ذلك. هل نسيت بسرعة ما كان بيننا في المرة الماضية؟

ـــ ألا يمكن لأي شيء أن يغير من هذا الذي بيننا؟ أعني لو فرض واكتشفت أنني لست تلك التي تظاهرت أمامك انها هي.. وان اسمي ليس حقيقة «روزادو».. وانه ما من قطرة دم اسباني واحدة تجري في عروقي، وانني اختلقت ذلك كُله..

فتناول احدى راحتيها وطبع عليها قبلة حانية وهو يقول: «ياللك من فتاة مضحكة! هل اختلقت كل ذلك حقا؟».. فأومأت برأسها ايجابا... فضحك وقال: «وان لم تكوني «روزا روزادو»، فمن أنت اذن؟».

ـــ أوه! ستكرهني ان قلت لك من أنا في الحقيقة!

ـــ ربما كرهت الاسم ان كان فظيعا، ولكن ذلك لن يحملني

على كراهيتك . هيا . هيا . قولي ما هو .. انه بلا شك اسم من تلك الاسماء البلهاء المضحكة ..

فقالت في صوت ينم على اليأس : «روزنبرج . اسمي روزا روزنبرج . وأخي «لين» صهيوني متعصب . وهذه هي المسألة من أولها الى أخرها . وقد أبلغه شخص ما بالعلاقة التي بيننا !»

فأسقط يدها من يده وحملق فيها غير مصدق أذنيه : «هل أنت يهودية ؟» .. ومرة أخرى أومأت برأسها ، وقد ثبتت عينيها في عينه ، والجزع اليائس مستول عليها ، وقالت بصوت يكاد لا يسمع :

ــ لا حيلة لنا فيما ولدنا فوجدنا عليه آباءنا !

ولما وجدته صامتا لا يجيب ، أردفت : «ان كان لا يهمني انك عربي ، فلماذا يهمك أن أكون يهودية ؟» .. فدفن وجهه بين يديه ، محاولا اقصاء المشاهد التي تزاحمت أمام ناظريه ، وراحت أصوات الطائرات السوداء الصغيرة تطن في اذنيه ، وهي تزداد اقترابا وانقضاضا ! .

وأحس فجأة ببرودة تسري في أوصاله ، وارتجفت أعضاؤه ؛ وحاول أن يرغم نفسه على النظر اليها وهي مسترخية بجواره على

الأرض، وشعرها الفاحم الغزير الجميل يحيط كالهالة بوجهها الجميل الشاحب، وعيناها السوداوان الكبيرتان كأنهما بحيرتان من الدموع. تراءى له هذا كله، وبقدر ما كان كله عزيزا عليه منذ لحظات قليلة، لم يعد الآن يرى له معنى.. أو يحرك ساكنا!.

واستجمع شتات ارادته ليقول شيئا: «المفروض في الظروف العادية ألا يهمني شيء من هذا. أي لو أن اليهود لم يغتصبوا وطني، ولو يفعلوا بنا ما فعلوا. أما وقد عرفت الآن حقيقتك، فمن المستحيل علينا أن نستمر في علاقاتنا هذه. والذنب ليس ذنبك طبعا، ولكنه حظنا العاثر.. فلن يكون في وسعي أن أرى فيك بعد الآن «روزا روزادو» التي أحببتها!».

وأعياه أن ينظر اليها، فأرخى نظراته وثبتها على كعب حذائه، وعلى خنفساء صغيرة سوداء كانت تدب على الأرض ببطء وسط تيه من الأغصان الجافة والأوراق الميتة.. وأسراب من النمل تدب أيضا في ذلك التيه.. انه التيه.. التيه.. التيه..في البرية!.

ونظرت اليه روزا وقد قسا قلبها وتحجر، وعندما تكلمت

كانت ألفاظها وعباراتها أشبه بالشواظ الملتهب.. بل أشبه بالبصقات.. تلك البصقات التي رمت بها المرأة الاسرائياية المجندة أباه يوم الرحيل المشؤوم عن اللد.. وقالت له بمرارة: «انه التعصب ضد الساميين!».

فنظر اليها بأسى وقال: «هذا مستحيل طبعا. لأن العرب أيضا ساميون!»

ــ وان يكن.. فأنتم تكرهون اليهود على كل حال!

ــ ليس لأنهم يهود. كلا. فقد كنا لا نكرههم قبل النكبة.. وكان في فلسطين يومئذ يهود كثيرون، وفي مدرستنا كان اليهود يدرسون مع المسلمين ومع المسيحيين جنبا الى جنب بلا تفريق في المعاملة. ثم جاءت النكبة، وتغير كل شي!

ونهضت قائمة على قدميها، وهي تنضو الأوراق الميتة عن ثوبها المصنوع من القطن، ذلك الثوب الذي تتخيره واسعا جدا في نصفه الأسفل لأغراض لاتخفى؟.. كذلك نهض أنطون وراح ينفض الشوائب عن ثيابه، وهو ينظر اليها بشرود.. أهذه حقا هي الفتاة التي رآها تبرز من خلف الأشجار منذ أقل من نصف ساعة، فقفز قلبه لمرآها ورقص رقصة الحبور واللهفة والحنين؟

أهذه هي الفتاة التي كان منذ دقائق معدودة يرشف الرضاب المستطاب من بين شفتيها اللدنتين وهو يحسب أن لذات الدنيا ألقت اليه مقاليدها؟

لكم يبدو له كل هذا الآن وكأنه حلم أو سراب! فها هي ترنو اليه كسيرة الخاطر، ساخطة عليه لأنه آذى احساسها، ولكنه ــ ياللعجب! ــ لا يستطيع أن يشعر نحوها بأي شفقة أو رحمة. فكل ما يحسه ازاءها هو الاستنكاف والقنوط.

وفيما هما يعودان الى الأرض المكشوفة في المنتزه، قالت له: «لم يدر بخلدي في وقت من الأوقات ان هذا اللقاء سيكون لقاء الوداع. أو أن الوداع سيكون على هذه الصورة. وكنت أؤمل دائما أن أجد ثغرة أستطيع أن أنفذ منها الى استمرار علاقتنا رغم كل شيء، غير مبالية بغضب شقيقي. لأني كنت أخالك لن تبالي بأنني يهودية ما دمت تحبني حقا».

ــ يؤسفني أن هذا مستحيل!

وعندما صارا فوق الممر المفروش بالرمل، قالت له: «لا تأت معي الى محطة السيارة العامة. لاحاجة بك الى هذا. فمن الخير ألا يرانا أحد جهارا، فربما كان «لين» كامنا لنا هنا أو

هناك. فقد أقسم أن يقتلك ضربا لو وقعت عينه عليك!»

ـ أنا لا أخشى أخاك!

ووقفت لاتتحرك، ثم قالت بصوت متحشرج: «هو الوداع اذن؟»

ـ نعم!

ـ ليكن اذن ما تشاء! وداعا!

وأدارت له ظهرها فجأة من غير أن تمد يدها أو يمد يده، وراحت تحث الخطى الى محطة السيارات العامة، من غير أن تنظر خلفها.. ولم يرقبها أنطون وهي منصرفة، بل سار على مهل وهو مطرق الى الأرض. كان الأسى يملأ قلبه، ممزوجا بالحنق والضيق الشديد. وراح يتساءل هل سيجد في نفسه الشجاعة الكافية كي يخبر وليدا بهذه المغامرة؟

واذ ذكر وليدا استولى عليه فجأة حنين جارف الى الأردن.. الى فلسطين. وساوره ندم صارم لأنه في الأسابيع القليلة الأخيرة لم يفكر في فلسطين!.. لقد أجلت هذه العلاقة الحسية المشبوبة أفكاره الوطنية عن ذهنه، فانزوت في مؤخرة رأسه!.

أجل! لم يستطع في هذه الأسابيع أن يفكر في شيء سوى روزا، واستولى عليه احساس بالاثم والخزي من نفسه. وأحس أن وليدا لو عرف عنه هذه السقطة لاحتقره أشد الاحتقار.. لا لأنه أحب فتاة هذا الحب الشديد، بل لأنه سمح لهذا الهوى أن ينسيه الهدف الأكبر، بل الأوحد، لكل عربي فلسطيني جدير بهذا الاسم.. وذلك الهدف هو تحرير فلسطين.. وهو يتمثل بالنسبة لهما في طريق بئر سبع..

وعندما اقترب من الدار، رأى جده جالسا بجوار النافذة المفتوحة يتصفح «التايمس».. وخامره احساس غلاب، ولكنه احساس أورثه راحة شديدة، بأنه سيعترف له الآن بكل ما أخفاه عنه من قبل!.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ١١ —

أكب أنطون على الدرس والاستعداد للامتحان، عسى أن يجد في ذلك ما يصرفه عن التفكير في هذه العلاقة المؤسفة، ولاسيما بعد أن سرى جده عنه، وصارحه بأنه كان يعرف ما يجري وراء ظهره منذ البداية تقريبا، وكاشفه بأنه رآه مع الفتاة بعد أول خلوة لهما داخل الغابة، ولكنه آثر الصمت والانتظار الى أن يبوح له شخصيا من تلقاء نفسه بما هناك!.

وأدى أنطون امتحانه بنجاح، وطلبت منه والدته أن يمضي جزءا كبيرا من عطلته معها. وسره ذلك، فأمه لا ترهقه عاطفيا بصحبتها، لأنها مشغولة في الغالب بأعمالها. وهو لا يشعر بأنه يعرف عنها الكثير. بخلاف جديه اللذين يقضيان الوقت كله معه ولا يدعان له خلوة أو استقلالا بالمعنى الصحيح.. ومع هذا

التباعد، كان ثمة شيء عميق بيه وبين أمه، شيء أعمق من الرابطة التي بين الأم وابنها الوحيد. وهذا الشيء يقوم في جوهره على التجربة المشتركة والمحنة المشتركة: محنة الهجرة، والمسيرة المميتة في البرية، واعباء النكبة وآثارها، بما في ذلك آثار الاغتراب في أريحا.. ووفاة عائلهما الحبيب بطرس منصور.

وفي الأيام الأولى التي قضاها في مسكن أمه الخاص، بوسط لندن، كتب أنطون الى وليد يقص عليه ما كان من أمر روزا: «ان حدي يعتقد اني كنت قاسيا على الفتاة، جائرا في معاملتها. ولعلني كنت كذلك، ولكن ما حيلتي في ذلك، ولم يكن هذا البتر الحاسم الا اجراء ضروريا لا محيص عنه. لقد كانت الحقيقة المفاجئة التي تكشفت لي صدمة عنيفة، أعادت الى وجداني المأساة الكبرى بكل ما فيها من مرارة وقسوة وعذاب.. لم أعد أحس الا بأن تلك الفتاة واحدة من ذلك الجنس الذي اغتصب أرضنا. وألغى وجود وطننا، وشردنا بلا رحمة، وبلا حق، وبلا ضمير!.

«وأنا لم أبح بهذه المسألة المحزنة لأحد سوى جدي وسواك. وكنت قد أخبرت زميلا لي في الدراسة ببداية هذه

العلاقة، ولكنني كتمت عنه نهايتها، واكتفيت بقولي له اننا افترقنا لتعذر الاتفاق بيننا في الطباع!.. والحقيقة انني كنت عاجزا عن الدرس أو التفكير في أي شيء، وأنا في تلك الدوامة التي جرفت حواسي فجأة. تصور أني لم أكن قادرا حتى على التفكير في فلسطين؟!..

«أما الآن ـــوقد انجلت هذه الغاشيةـــ فأنا فريسة ندم شديد وخجل أشد، لأن مثل تلك العلاقة الحسية استطاعت أن تستولي على زمامي الى هذا الحد، أعني الى حد نسيان قضية فلسطين وخطة بئر سبع. والى حد اني خدعت جدي وكذبت عليه، وهو الذي أحبه حبي لأبي الراحل.

«وأعجب ما في الأمر أني لم أستبشع الكذب والخداع وأنا في غمرة ذلك الهوى الجارف، بل وجدتهما أمرين طبيعيين جدا. أما الآن فاني لا أتصور كيف أقدمت على ذلك.. وبهذه المناسبة لم يخطر ببالي ـــفي هذه السنوات الأربع، وأنا بعيد عن الاهتمام بالفتياتـــ أن تكون لك علاقة بفتاة. أما الآن وقد حدثت لي هذه المغامرة، فاني اتساءل: أليست لك في الأردن فتاة تهواها؟ ان كان ذلك صحيحا، فهل تعرف كيف تهتم بعملك

وخططك الوطنية وأفكارك ومطالعاتك كالعادة، وأنت فريسة هذا الهوى!.

«ومنذ أيام كنت واقفا مع والدتي فوق جسر لندن، ننظر الى ما يسمى «البركة» من تحتنا، حيث تفرغ سفن قادمة من شتى أنحاء المعمورة حمولتها، فتتلقفها منها سيارات النقل لتمضي بها الى كل مكان في انجلترا. ورأينا سفينة سويدية تفرغ حمولة من الأخشاب، والى جوارها سفينة بيضاء صغيرة حديثة جدا، وتساءلنا من أين عساها جاءت، واذا بنا نتبين انها سفينة اسرائيلية محملة بالموالح. وفي الحال انصرفنا ونحن في منتهى الألم، لأننا لاحظنا وجود كميات كبيرة في الأسابيع الأخيرة من البرتقال «اليافاوي» في متاجر لندن. وقد يكون جانبا منه مجلوبا من مزارع آل منصور بالذات!.

«وتحاول أمي أحيانا أن تشرح لأصحاب المتاجر وللبائعين حقيقة الموقف. وقد حدث من هذا القبيل ذات مرة أننا ذهبنا معا لنشتري بعض الأزهار لتزيين شقة ماما، ولكن الأزهار التي أختارتها والدتي كانت من نوع فادح الثمن وتسمى «جلاديوليس»، ولذلك سألت عن مصدرها فقيل لها أنها من

«اسرائيل» ، فقالت أمي للمرأة التي تتولى البيع : «ان فداحة الثمن سبب للاحجام عن الشراء . ولكن كونها من اسرائيل سبب أدعى للامتناع عن شرائها ، فاسرائيل كما تسمونها ليست سوى فلسطين المحتلة . وأنا شخصيا أرملة فلسطيني كان واحدا من بين مليون عربي لاجىء طردوا من ديارهم واغتصب اليهود وطنهم ، من غير أن يفكر أحد في مصيرهم ، ولا حتى في تعويضهم . مع أنه ما من مال ــ مهما عظم مقداره ــ يمكن أن يعوض الناس عن وطنهم وشخصيتهم القومية » .

« ودهشت المرأة لهذا الذي سمعته ، وقالت انه لم تكن لديها أدنى فكرة عن هذه الأوضاع ، بل لقد استعملت كلمة «فظيع» في نعت ما حدث من اليهود . ولكن عندما مررنا من هناك بعد اسبوع ، وجدنا أزهارا جديدة من نوع «الجلاديوليس» في المتجر ، ووجدنا أكداسا من البرتقال «اليافاوي» أيضا في قسم الفواكه التابع للمتجر نفسه ! .

« وأنا أعتقد أن معظم الناس هنا في انجلترا لايعرفون حقيقة الصهيونية . ولكن الأدهى من هذا أنهم لا يبالون حتى لو عرفوا تلك الحقيقة المرة ، لأن اليهود هنا منبثون في كل مكان ولهم

اتصالات كثيرة، أما العرب فهم بعيدون عنهم ولا يعرفون عنهم شيئا الا بالسماع، أو عن طريق التخيل، باعتبارهم سكان صحراء ورعاة ابل! أو على الأكثر أهل مغامرات على طريقة أفلام ابن الشيخ!.

«أجل، ليس من السهل على الانجليز ان يحسوا باحساس العرب، لأكثر من سبب، وفي مقدمة هذه الأسباب: الجهل!.. أما اليهود، فلهم نفوذهم في صفوف الصحفيين والكتاب وملوك السينما وممثليها، وبين الرسامين والموسيقيين، وهم يتضامنون فيما بينهم على الدعاية لسلالتهم، وابقاء العرب وراء الستار!.

وانها لظاهرة عجيبة أن يَسود الجهل بالعرب على هذه الصورة والى هذا المدى المذهل، في الوقت الذي صغرت فيه رقعة العالم، وصارت القاهرة وبيروت ودمشق على قيد ساعات قليلة من الطيران التجاري من لندن.. وفي الوقت الذي ربطت فيه الاذاعات والصحف أرجاء المسكونة.

«قريبا ياوليد سأكون معك، فسيسمحون لي بقضاء عيد الميلاد القادم في (رام الله)، وسأذهب الى (بيت لحم) لزيارة

أمين، فان كنت في رام الله عند حضوري ذهبنا الى بيت لحم معا. وأنا في الحق عاجز عن التعبير لك عن مدى تلهفي على العودة الى فلسطين..».

○

وبسرعة جاءه رد وليد على هذه الرسالة، وبشيء من التطويل ليس معهودا في وليد: «سرتني أنباء عودتك المرتقبة في شهر ديسمبر «كانون الأول»، وأرجو أن تخطرني بموعد وصول طائرتك، وسأحاول أن أدبر وصولي الى هناك في يوم ٢٢ ديسمبر «كانون الأول» أو بعده بقليل، لأنني منذ ٨ أكتوبر «تشرين الأول» ـــ وهو بداية الفصل الدراسي وأنا أدرس في جامعة بيروت الأمريكية، وعطلة عيد الميلاد عندهم تبدأ في ٢٢ ديسمبر «كانون الأول»، ومدتها اسبوع واحد.

«وسأقضي معظم العطلة في (الخليل) مع أقاربي، ولعلنا نحظى بقضاء بضعة أيام معا هناك، وان كان من غير المنتظر أن نتمكن من مغادرة تلك المنطقة في هذه المرة الى حيث تعلم.

أما سؤالك عن الفتيات، فاعلم أني لا أهتم بشأنهن

اطلاقا، فأنا شديد الانهماك في دراساتي، وفي ذهني مسائل كثيرة جديدة فضلا عن هذا كله. وأني لآسف لأن بدايتك في الحب كانت متعثرة على هذا النحو. وأتمنى لك حظا أسعد في المرة التالية، وإن كنت أنصحك بتأجيل هذه «المرة التالية» الى ما بعد عام التدريب، حتى تتجنب التعقيدات التي تدخل الاضطراب على أي شيء يمكن أن تقرر المضي فيه.

«لقد أطلقت شاربي منذ التحقت بجامعة بيروت الأمريكية، وقد أرفقت بهذا الخطاب صورة حديثة لي، حتى يتسنى لك التعرف على شخصي عندما تراني في المطار؟.. مع السلامة».

«وليد حسين»

ـ ١٢ ـ

قضى أنطون أسابيع كثيرة يتعلم على يدي جده روبرت طرق التدريس للعميان والتفاهم معهم، وطرق التفاهم مع الصم والبكم عن طريق الاشارات واللمس باليد. واقترض من صديقه مستر جونز ـــ وهو مدرسه الخاص السابق ـــ عددا كبيرا من الكتب في التربية وعلم النفس، كان يطالعها بنهم ويردها ليقترض كتبا غيرها. وكان مستر جونز يوجهه أيضا الى مطالعة كثير من الكتب التي ساعدت على تشكيل ذهنه وتوسيع آفاق تفكيره.

ولم يكن يزعجه عاطفيا في تلك الفترة سوى والدته. وكم تمنى لو انه استطاع أن يصنع شيئا لارضائها. ولكن ارضاءها كان فادح الثمن جدا: لأنها لاترضى بأقل من تخليه عن تصميمه على قضاء تلك السنة في الأردن. وكانت هده الفكرة قد ازدادت

الحاحا على ذهنه، منذ مني بتلك الصدمة العاطفية في علاقته بروزا. وكانت أمه قد وافقت على خطته مرغمة أو شبه مرغمة، الا انها قالت له ــ بصريح العبارة ــ انها تتمنى لو غير رأيه قبل فوات الأوان. ولكنه رد عليها بأنه يعلم سلفا أن رأيه قاطع ونهائي، ولن يطرأ عليه تعديل.

وسألها ذات يوم في ضراعة: «لماذا تقفين هذا الموقف المناهض لسفري الى موطني؟».. ولم تستطع أن تقول له: «لأنك كل ما بقي لي من بطرس، فان عدت الى الأردن فمكثت هناك تلك السنة بطولها، فمعنى ذلك انك خرجت من حياتي عاما كاملا، أو ربما الى الأبد»، ولكنها اكتفت بأن تقول له ببساطة: «لأنني سأشعر بالوحدة والوحشة بدونك»، فقال لها بحرارة: «ولكني سأكتب اليك باستمرار. وسيكون في وسعك أن تأتي لتمضية فترة من الوقت معي هناك. عندما تظفرين بعطلة من عملك الصحفي المكتبي».

وباصرار قالت له: «لن استطيع العودة الى الأردن. لن استطيع»، فأجابها في ابتئاس: «لكم تشعرينني بالشقاء،

وتجعلين الذهاب عسيرا عليّ جدا، مع انك تعلمين أنه لا مناص لي من ذلك».

ـــ اني آسفة جدا لايلامك يا عزيزي. وأنت بطبيعة الحال صاحب الرأي الأخير فيما ينبغي أن تصنع، وان كان ذلك لا يروقني، ويجشمني عناء نفسيا شديدا. فكن أمينا مع نفسك، واصنع ما يوحيه اليك عقلك وضميرك. ولكنني في الوقت نفسه لايسعني من جانبي الا أن أكون أمينة مع نفسي. وبوحي من هذه الأمانة أصدقك القول أن رحيلك يسبب لي ألما شديدا.

○

وقبيل عيد ميلاد «انطون» الثامن عشر كانت أمه قد حدثته برغبتها ورغبة جديه في اقامة حفل له، لأنه سوف لايكون حاضرا في أعياد الميلاد ورأس السنة، ولا في عيد ميلاده التاسع عشر، وسيكون هذا الحفل آخر حفل يحضره قبل امتحان الفصل الدراسي الثاني والاخير في مدرسته. وهو الامتحان الذي يرجو أن يتفوق فيه كما تفوق في امتحان الفصل الدراسي الأول. وقد شجعهم على ذلك أن يوم عيد ميلاده يوافق يوم السبت،

وهو يوم مناسب جدا لدى الانجليز لاقامة الحفلات الخاصة، وسيكون في وسعه أن يدعو من يشاء من أصدقائه وزملائه الطلاب .

وضحك أنطون ليداري عزوفه عن تلك الحفلة قائلا : «الحقيقة انني بغير أصدقاء بالمعنى الدقيق للكلمة، ولست راغبا في أن تقام لي حفلة في هذه المناسبة!» .. واشتد الجدل بينه وبين جدته وأمه .. الى أن تدخل جده في المناقشة، وأنقذ الموقف بقوله : «لماذا لا ندع الفتى يختار طريقة الاحتفال بعيد ميلاده على النحو الذي يهواه؟ فهذا عيد ميلاده «هو» بعد كل شيء!» .

وراحت ماريان تنظر الى ابيها تارة والى ابنها تارة أخرى، في استياء واضح، ولكنها غلبت على أمرها فسألت أنطون :

ـــ قل لنا ماذا تفضل أنت؟

ـــ أفضل أن نتناول العشاء معا في البيت كالعادة، نحن الأربعة فقط، ونقتسم فيما بيننا زجاجة من النبيذ الفوار .

ولكن الجد قال بلهجة حاسمة: «ليكن، ولكني أصر على أن يكون شرابنا في تلك الليلة الشمبانيا دون سواها».

○

ويبدو أن ماريان كانت مصممة فيما بينها وبين نفسها على فرض شيء من الجو الاحتفالي الاجتماعي على تلك المناسبة، فقامت ــ من غير أن تخبر أحدا بعزمها ــ بتوجيه الدعوة الى زوجين من اصدقائها هما آل براون، لقضاء السهرة في البيت بعد العشاء في ذلك اليوم. وكان «ديزموند براون» هو مدير الاعلانات في دار صحافة الشرق الاوسط التي تعمل بها ماريان. وهو في نحو الثلاثين من عمره، وسيم الشكل، واسع الاطلاع في شؤون الشرق الاوسط، وفي خلقه لطف وايناس ــ في نظر ماريان على الاقل ــ أما زوجته «سوزي» فليست على مستوى عال من الثقافة، ولكنها دمية جميلة جدا، ومن ذلك النوع من النساء الذي يستخدم للزينة!.

وكانت ماريان قد دعيت مرارا كثيرة في بيت هذين الزوجين، وهو بيت صغير أنيق، وسبق لها أن دعتهما كثيرا في

بيت والديها. ولكن لم يسبق لأنطون أن التقى بهما لأن حضورهما الى بيت آل ملبي كان في المدة التي قضاها أنطون في معسكرات التدريب. فخطر لها أن هذه هي المناسبة اللائقة لدعوتهما، للاجتماع به والتعرف اليه، وأن وجودهما سيزيد من بهجة السهرة ويخرجها عن المألوف.

ولم يرحب أنطون بالفكرة عندما علم بها في يوم عيد ميلاده ترحيبا حارا، ولكن جده سرى عنه قائلا: «لا عليك يا بني. فلن تجد نفسك مطالبا بالاجتهاد في تخير الأحاديث مع مسز براون، لأنها لا تفقه أي نوع من أنواع الحديث. أما زوجها فيجيد الكلام ولا يجيد الاصغاء. وستكون على خير حال وأنت ملتزم الصمت، تصغي لما يقول الزوج وتملأ عينيك من الزوجة الحسناء!».

وقطبت الجدة حاجبيها وزجرت زوجها، طالبة منه أن يستغفر ربه لما تفوه به من الاغتياب، واتهمته بأن الشمبانيا صعدت الى رأسه!.. فلم يسعه الا أن يسكت ويطرق، واتجه الى المذياع فأدار مفاتيحه، واذ بالباب يطرق ويدخل الضيفان.

واستقبل أنطون الضيفين بتحفظ شديد، ولفت نظره

اسراف الزوجة الشابة في استخدام الحلى الصناعية البراقة. واغراقها في التضمخ بالعطور النفاذة، واسرافها في اغداق ابتساماتها التي تكشف عن صفين من الاسنان الجميلة. أما «ديزموند» ــ الزوج ــ فلم يشعر نحوه أنطون بارتياح رغم أناقته الشديدة، وابتسامته وتحذلقه في تخير ربطة عنقه!.

ونشطت الجدة لصنع القهوة، ودعا الجد مسز براون لتناول شيء من الشمبانيا. فقالت بجذل كالأطفال: «شمبانيا! انكم توسعون على أنفسكم كما أرى!».. فقال ملبي وهو يملأ لها كأسا: «ان الفتى يبلغ الثامنة عشرة مرة في العمر!».

وانتهزت ماريان هذه الفرصة فقالت تذكرها: «ولا تنسى أيضا أن «أنطون» سيرحل الى الأردن بعد انتهاء الدراسة ليقضي هناك سنة كاملة».

وكان تعليق سوزي عبارة عن ابتسامة أخرى مشرقة ــ وان كانت خالية من المعنى! ــ أما زوجها ففتح الله عليه بعبارة أراد أن يدل بها على سعة اطلاعه على مسائل الشرق الأوسط، فقال: «سمعت أنك عائد الى أشد بقاع الأرض انخفاضا؟».

فأجابه أنطون بفتور: «سأذهب الى (أريحا) فيما أعتقد

لمجرد الزيارة الخاطفة، ولكنى في العالب سأقيم مع عمي في (رام الله) قبل أن أذهب لتولي مهام عملي في (بيت لحم)».

ــ ولماذا لا تطير مباشرة الى بيروت ثم تستقل طائرة الصباح الى القدس؟ أليس هذا أبسط وأسهل؟

ــ بل اني افضل الطيران الى عمان، ثم أذهب الى رام الله عن طريق اريحا بالسيارة. فالسفر الى أريحا في الصباح الباكر متعة نادرة. ثم اني متفق مع صديق لي على أن يلقاني في المطار ثم نذهب معا لتناول «الفول» في أحد مطاعمها قبل استئناف السفر.

وهتف جده بحماسة: «الفول! ما أحلى الفول بالأرغفة المستديرة العربية الرقيقة، سواء أكلناه بالزيت والليمون، أو بالزبد الطازج!».

وأقبلت الجدة في هذه اللحظة الى المطبخ حاملة أدوات القهوة، وأخرج ملبي زجاجة من كونياك «كورفوازييه» الفرنسي المعتق، وتولى أنطون توزيع القهوة والكونياك، في حين راحت ماريان تشرح لضيفتها الحسناء «سوزي براون» صعوبة الحياة في

أريحا، وكيف كانت تستجلب السمك في صناديق من الثلج من (العقبة).. فصاحت سوزي:

ـــ العقبة؟ ما هذا الاسم؟

فقال ملبي: «انها ميناء على البحر الاحمر. فاليهود قد اغتصبوا ساحل البحر الأبيض المتوسط لأنفسهم، والأردن ليس بها بحر سوى البحر الميت».

ـــ وماذا عن بحر الجليل؟

فقال لها زوجها بحذلقة: «بحر الجليل يوجد الآن في اسرائيل.».

فقال أنطون بحزم وهو يقدم له آنية السكر:

ـــ بل قل فلسطين المحتلة.

فقال ديزموند بمزيد من الحذلقة: «اسرائيل أمر واقع، سواء أحببنا هذا أم لم نحببه. والأولى أن نكون واقعيين!»..

وكان يتكلم وقد وضع ساقا على ساق، وهو يهز قدمه أثناء الكلام، وابتسامته المتكلفة متقنة جدا وأنيقة مثل رباط عنقه تماما. وشعر أنطون بازدياد بغضه له. وتساءل بينه وبين نفسه: ترى هل يكرهه جده كذلك؟ ولكن الجد لم يكن يبغضه في

الواقع، وان كان يضيق به ضيقا شديدا، ويراه ثقيل الظل، ويشعر بالغيظ لاهدار الكونياك الجيد على مثل هذا الرجل السخيف!.

ويبدو أن الشمبانيا التي شربها أنطون على العشاء بكثرة، زادت من ثورة غضبه، وجعلته أشد اندفاعا وجرأة.. فقال على سبيل التحدي: «بل ان الواقعية تقتضي منا أن نسمي الأشياء بأسمائها!! ووطني الذي ولدت به اسمه فلسطين. وبهذا الاسم عرف منذ آلاف السنين. ويوما ما ــ ليس ببعيد ــ سيعود هذا الاسم الى الوجود من جديد!».

وغمغم ملبي بالعربية: «ان شاء الله.».. فقال ديزموند بسخافة: «اشك كثيرا أنك سترى هذا اليوم!».

.. فطار عقل أنطون، واندفع يقول: «ان جيل الفلسطينيين ممن في سني سيرون هذا اليوم، لأننا سنعمل على تحقيقه!».. ثم ارتفع صوته وهو يعلن بضراوة:

ــ ستتحرر فلسطين على يد الفلسطينيين!

فارتسمت على وجه ديزموند علائم التفكه الممزوج

بالتهكم، وقال له وهو يكسر جفن احدى عينيه: «على يد جيش التحرير الفلسطيني؟»

ــ أجل. وسيعمل هذا الجيش السري في داخل اسرائيل نفسها. سيكون لنا هناك طابور خامس!

ــ أهو التسلل الجماعي؟

ــ ليس جماعيا. بل تدريجيا. وقد يستغرق ذلك منا بضع سنين.

فالتفت ديزموند الى كأس الكونياك وراح يديرها بين يديه ليدفئها، ثم قال: «أخشى أن تستغرق فعلا هذه العملية سنوات تتجاوز المدة المقدورة لحياتك!».

وتدخل ملبي في الحديث قائلا للضيف: «ينبغي أن تسمح للشباب بأحلامه الخاصة. ألم تكن لك أحلامك وأنت في الثامنة عشرة؟» .. فقال ديزموند بلهجة جافة: «عندما كنت في الثامنة عشرة ــ سنة ١٩٣٩ ــ كانت الحرب قد اندلعت، ولم يكن لدينا وقت للاحلام!».

وتكلف أنطون التثاؤب فجأة، ثم ضحك وقال: آسف جدا. ولكن يبدو أن الشمبانيا هي التي أصابتني بالتثاؤب.

فاسمحوا لي بالانصراف . » .. ثم صافح الضيفين ، وأمسكت سوزي يده بين كلتا يديها وقالت :

ـــ ينبغي أن نلتقي مرارا كثيرة بعد عودتك من الأراضي المقدسة . وأتمنى لك سفرا سعيدا .

وأسرع هو بالفرار من هذا الجو .. ! .

ـ ١٣ ـ

وما أن أوى أنطون الى حجرته، حتى أحس بازدياد وطأة النعاس عليه. فانتزع ثيابه انتزاعا واندس في الفراش ـ من غير أن ينظف أسنانه كعادته قبل النوم ـ وكان يقول لنفسه: «كان خطأ مني أن احتسي هذه الشمبانيا اللعينة، فان الخمر تفك عقدة لسانك، فتقول مالا تريد أن تبوح به لانسان!»

.. واستيقظ في اليوم التالي متأخرا، وهبط الى الطابق السفلي ليجد جدته قد غادرت البيت الى الكنيسة، أما جده فقد قالت له أمه انه خرج ليتمشى قليلا، ثم أردفت: «لقد أوشكت الساعة أن تدق الحادية عشرة».

ـ آسف جدا، فقد أصابني صداع شديد، من تأثير الشمبانيا في الغالب.

ووجد افطاره موضوعا على ركن من المائدة، وكانت ألوانه منتقاة من بين أطعمته الصباحية المفضلة: وهي اللبن الزبادي، والزيتون الأسود، والجبن والتفاح، فأكل بضع زيتونات ثم ذهب الى المطبخ ليضع لنفسه قدحا من القهوة التركية، ثم عاد ليشربها وهو يقضم تفاحة، وعندئذ أقبلت أمه فجلست قبالته وقالت: «أريد أن أنتهز فرصة انفرادنا في البيت لأتحدث اليك.».. فنظر اليها نظرة ثابتة وقال: «بشأن ما قلته أنا بالأمس؟».

ــ بشأن هذا الحديث عن التسلل الى الأرض المحتلة. ألهذا تريد أن تعود الى فلسطين؟ أهي الأحلام الرومانسية اليافعة عن التحرير على يد طلاب المدارس؟ أهذا ما تدبرانه، أنت وصاحبك وليد؟

فحول أنطون عينيه عن عينيها وقال:

ــ أنت تعلمين لماذا أريد أن أعود. لقد أرهقني الحنين الى وطني، وليس لي هاهنا أصدقاء بمعنى الكلمة.

ــ لقد كنا متفقين في البداية على أن تقضي هناك عطلة صيفية بعد انتهاء دراستك الثانوية ثم تعود لقضاء سنة العمل

التدريبي هنا، فلماذا غيرت رأيك وأصررت على قضاء تلك السنة هناك؟ مع ما في ذلك من انفصال عن اسرتك؟

ـــ عمي فريد وزوج عمتي خليل وابناؤهما هم اسرتي كذلك.

ـــ ولكنهم ليسوا لصقاء بك كوالدتك وجديك.

واحتسى بقية القهوة التي كان يستطيبها غاية الاستطابة حين شرع في تناولها بعد أن صنعها بعناية، لكنها صارت الآن ولا طعم لها، بعد أن بردت، كما تغير طعم فمه ـــ بما طرأ عليه من مرارة ـــ واستطردت أمه: «لم يواتيني النوم طول الليلة الماضية من شدة قلقي عليك، بعد أن اطلقت الخمر لسانك بما يدور في ذهنك. ولم يكن عهدي بك أن تتكلم على هذه الوتيرة. وهالني ما سمعته منك عن التسلل، وتكوين طابور عربي خامس داخل الأراضي المحتلة، بين سمع اليهود وبصرهم! أنطون! ألست ترى هذا كله خيالا؟».

فجعل يحدق في صحفته، وهو يعبث بسبابته بنوى الزيتون الأسود الذي أكله من قبل، وهو يعاهد نفسه على ألا يقرب الخمر بعد ذلك، سواء كانت شمبانيا أو غير شمبانيا. وأدرك صواب التعاليم الاسلامية التي تحرم الخمر على المؤمنين بالاسلام،

وهو لا يعرف مسلما متدينا في فلسطين يقربها ، ولا يحسب وليدا يمكن أن يمسها بيده في يوم من الأيام!.

وثاب من شروده ليسمع والدته تسأله بحدة : « هل سمعت ما قلته لك؟ اني أريد منك أن تقسم لي على أنك لن تتورط في مثل هذه المخاطر ان انا سمحت لك بقضاء تلك السنة في الأردن! » .

فغمغم قائلا : «اني لم أعد طفلا» .

ــ بل انك من بعض الوجوه لم تزل طفلا . وما كنت تقوله بالأمس لا يعدو أن يكون تخليط أطفال . لقد أخجلتني بما تشدقت به أمام الضيفين . ومن حسن الحظ أن الجميع قدروا أن ذلك ليس تفكيرك السوي ، وأن الخمر هي التي عبثت بعقلك فقلت ما قلت .

ــ وهو ظن صائب .

ــ اذن أنت لم تكن جادا فيما قلته عن الطابور العربي الخامس؟ .

ــ بل اني أراها فكرة طيبة للغاية ، وهي ليست من اختراعي .

ـــ قد تكون طيبة حقا لو أنه أمكن تحقيقها، ولكن ذلك غير مستطاع. ولو كان أبوك حيا لقال لك هذا.

ـــ لست أذكر بالضبط كل ما قلت.

ـــ لا بد لك من أن تعدني بألا تقدم على حماقة من هذا القبيل ان أنت ذهبت الى الأردن!.

ـــ ماذا تعنين بالحماقة؟

ـــ أي عمل تدرك أنني لن أقرك عليه. اقسم لي على هذا!

فنظر اليها وقد بدأ غضبه يتحفز في داخله، وقال:

ـــ ولماذا القسم؟ ألا تثقين بي؟

ـــ أما بعد الذي كان الليلة الماضية فلا!

ـــ هذا ارغام وارهاب لاحق لك فيه!

ـــ بل لي كل الحق، لأني أمك. ولأنك ابني الوحيد، والبقية الباقية لي في هذه الدنيا. انك تسمي ذلك ارغاما وارهابا. أما أنا فاسميه باسم آخر: أنا اسميه طلبا مشروعا أوجهه اليك بأن تلتزم جادة اللياقة والاتزان في تصرفك. فاما أن تقسم لي على هذا، أو لا سفر!.

ثم نهضت وغادرته يعبث بنوى الزيتون في شرود، الى أن

دخل عليه جده بعد بضع دقائق فقال له بمرح: «ما رأيك في قدح من القهوة يا أنطون؟»، فنهض أنطون واتجه الى الموقد ليصنع القهوة، ولاحقه جده وهو يحشو غليونه بالتبغ، ثم قال له: «لقد حدثتني امك بما دار بينكما من نقاش منذ برهة وهي شديدة الانزعاج بشأنك، فهلا أرحت بالها؟».

ــ ليس أحب اليّ من هذا، ولكنها ترغم أنفي بذلك القسم الذي تطلبه مني أرغاما.

انما تطلبه منك لتطمئن عليك. بل اني أنا أيضا مثلها، أريد أن تؤكد لي أنك لن تقدم على أي عمل طائش.

فقال أنطون في نفسه وهو يتنسم عبير القهوة الممزوجة بحب الهال: «حتى أنت؟»، ولكنه كتم ما بنفسه وهم بأن يناقش جده قائلا: «وما العمل الطائش؟ من الذي يقرر هذه الصفة؟».. لكنه اكتفى بقوله له وهو يضع القهوة أمامه:

ــ أقدم لك التأكيد الكامل لهذا الشرط.

ــ شكرا لك. يجب ان تقدم مثله لوالدتك أيضا.

ــ سأحاول.

ــ تحاول؟

ــ لأنه يستحيل عليّ ذلك تحت التهديد . ثم أن بي صداعا من أثر الليلة الماضية ، وأريد أن أخرج للسير ساعة ، ان لم تكونوا بحاجة اليّ هنا .

ــ قد تكون أمك بحاجة الى مساعدتك لها في اعداد الغذاء .

ــ سأسألها .

واتجه الى حجرة الجلوس فألفى أمه جالسة عند النافذة تقرأ ، فقال لها : «أتريدين مني أن اساعدك في تقشير البطاطس أو ما الى ذلك ؟» .. فأجابته ببرود ، من غير أن ترفع بصرها عما تقرأ : «لا شكرا لك» .

ــ في هذه الحالة أود أن أخرج للنزهة لمدة ساعة ، لأن بي صداعا .

ــ فأجابته وهي تقلب الصفحة من غير أن تنظر اليه :

ــ عد في الساعة الواحدة .

ــ أوه . أرجوك ألا تسخطي علي .

فلم تنظر اليه ولم تجب .

○

ولم يعودا الى هذا الحديث الا في المطار قبل عيد الميلاد بثلاثة ايام، وكان الوقت مساء، فتوسلت ماريان الى ابنها للمرة الأخيرة :

عدني انك لن تقدم مع وليد على حماقة طائشة! عدني يا حبيبي، أرجوك!

ــ فتناول اليد التي وضعتها في ضراعة على ساعده، ورفعها الى فمه وقال : «كم أتمنى ألا تقلقي بسببي أو تنزعجي لمجرد أنني سكرت قليلا في ليلة عيد ميلادي الثامن عشر، وتفوهت بكلام فارغ!».

ــ هذا اذا ظل ذلك الكلام فارغا، لانية وراءه للعمل به!

ــ ماذا تخالين؟ ماذا يسعني أنا ووليد أن نفعل لتحرير فلسطين المحتلة؟

وفي هذه اللحظة عاد جده من كشك الكتب والصحف في المطار وقد اشترى صحف المساء وطائفة من المجلات، فسأل أنطون : «ألم تساورك الرغبة في القدوم لزيارتي هناك؟»

ــ لست أحب أن أعود الى فلسطين وهي محتلة مغتصبة! .

ولكن اقرىء عني السلام تلك الشجرة العجوز عند الكنيسة في بيت لحم. وأبلغ القدس عني تحية حب.

ولم تكن جدته معهم في ذلك المساء، لارتباطها بجلسة في احدى اللجان كالعادة، ولأنها خشيت أن تخونها أعصابها في المطار.. وقد ودعته في البيت بالعناق والبكاء وتوسلت اليه أن يكتب اليها كثيرا. أما في مطار لندن فلم يبك أحد. لاهو ولا جده، بل قبلته أمه وضمته اليها لحظة ثم أطلقته قائلة: «انتبه لنفسك يا حبيبي!».

أما جده فصافحه قائلا: «على بركة الله وفي أمان الله! وعد الينا سالما».

ـــ ان شاء الله!

وعندما حلقت الطائرة به، قالت ماريان لأبيها:

ـــ أليس عجيبا أنْ يعود الى بيت لحم بالذات!.. لكأني به عاد الى بطرس...



الكتابُ الثالث





— ١ —

أحس أنطون بفرحة طاغية لم يشعر بها من قبل والطائرة تدخل به سماء (عمان) من فوق التلال الصحراوية الجرداء، حتى لقد نازعته نفسه لأول مرة في حياته الى الغناء والصياح، لينفس عما في أعماقه من الجيشان.. فان هي الا لحظات قلائل حتى يرى وليدا ويعانقه ويتحدث اليه بعد كل هذه الفترة الطويلة التي امتدت أربع سنين. لقد افترقا تلميذين وهاهما الآن يلتقيان وقد غدا وليد شابا ذا شارب كث. وعجز أنطون عن تصور شكله، فاستخرج من حافظة نقوده صورة وليد الشمسية التي كان قد بعث بها اليه، وجعل يتطلع متأملا تفاصيلها..

وخيل اليه أن دهرا طويلا قد انقضى قبل أن يفتح باب الطائرة وقد هبطت على الأرض وجرت فوقها مسافة طويلة، ثم بدأ

الركاب في النزول ، فصافحت وجوههم أنسام الفجر الرطبة قبيل شروق الشمس. ولم يستطع انطون أن يتبين وجه صديقه بين زحام المنتظرين، ولكنه راح يلوح بيده، موقنا من أن وليدا سيتبينه ! .

وعبر أنطون المسافة بين الطائرة ومبنى المطار ، وأقبل الموظفون على فحص جوازات السفر ، وصافحت أذنيه من كل صوب تلك الألفاظ العربية ، فراح يتلقفها في سرور واشتياق بعد طول انقطاع عنها .

ودخل مع الداخلين ، وانتظر مع المنتظرين أمام الحاجز الى أن يتم فحص الأوراق . واذا به يفاجأ بزوج عمته خليل داود مقبلا من باب جانبي وراء حاجز الحقائب ، ومن ورائه شاب وسيم ذو شارب أسود كث ، وفتاة فاحمة الشعر في ثوب صيفي أنيق .. وانقض خليل داود عليه وضمه الى صدره وقبله على خديه ، وهو يهتف بعبارات الترحيب والتهنئة بالعودة الى الوطن ، وألفى الشاب نفسه يحتضن زوج عمته ويصبح مثل صياحه بلغة عربية طلقة ، وقد انجابت عنه كل صلة له بانجلترا ولغتها وعادات أهلها وتفكيرهم ، ولم يقاوم دموعه التي انبجست من عينيه .

..ولم يدر هل كان في وسعه أن يعرف وليدا من تلقاء نفسه أم لا، لأن الشارب الأسود غير شكله كثيرا جدا، ولكنه أحس بأن هذا هو وليد حقا حين عانقه وهتف بعبارات الترحيب، وضحك تلك الضحكة التي يعرفها عنه جيدا.. وبعد أن خفت حدة هذا الاضطراب الذي غمره لأول وهلة، فطن الى وجود الفتاة، فتقدمت صوبه على استحياء، وسألته:

ـــ ألا تذكرني؟

وتردد أنطون قليلا، فصاح وليد:

أنت ولا شك تذكر «ثريا»!

وضحكت الفتاة عندئذ، ففطن الى أسنانها غير المنتظمة. ولكن عدم انتظامها لم يعد الآن ذا بال، لأنها في هذه السنوات الأربع قد تغيرت على نحو ما، فأصبحت ذات جمال ووسامة.. وابتسم أنطون وقال لها:

ـــ لقد رأيتك في الحفلة التي اقيمت احتفالا بعودة نصري زوج بنت عمي من الأسر. واذكر أنك كنت تتأهبين لدراسة الطب.

ـــ وأنا الآن بالفعل في كلية الطب بجامعة بيروت الأمريكية.

وفي هذه الأثناء كان فحص الحقائب قد تم. وانطلق الجميع في سيارة خليل لتناول الفول في مطعم صغير لطيف بعمان. وكل شيء يبدو في نظر أنطون وكأنه قطعة من الجنة. وبعد الافطار صاح أنطون: لكأني أحلم حلما لا أريد أن أفيق منه!».. فقال زوج عمته: «اننا جميعا في دار السلام بأريحا لقضاء عيد الميلاد. فأرجو أن لا يحزنك الذهاب الى هناك».

ـ اطلاقا! لكم تشوقت الى أريحا والى دار السلام!.

وتولى خليل قيادة السيارة صوب أريحا عن طريق وادي الأردن، وما يحف به من تلال عظيمة، وبطاح مترامية، كان قلب أنطون يخفق لكل لمحة من لمحاتها. وخيل اليه انه وان لم يكف في هذه السنوات الأربع عن التفكير في هذه البقاع، الا أن مدى سحرها قد غاب عن ذاكرته. وعندما أخذت السيارة في الانحدار عند جسر «ألنبي» اشتد الضغط على أذنيه فأصيب بصمم وقتي من فرط الانخفاض عن مستوى سطح البحر. ولاحظ أن ثريا أيضا أخذت تسد أذنيها بأصابعها، فنظر اليها وتبادلا الابتسام، ثم قال: «لابد من هذا الاحساس في الأذنين والمرء في

طريق أريحا، ولكن هذا كله ينسى متى وصل الانسان الى ذلك البلد الجميل».

وسره أن تومىء برأسها ايجابا، لأنه ود من قرارة نفسه أن تحب ثريا أريحا، وأن تتفق معه في المزاج، سيما وهو يحس دفء ابتسامتها الودية..

وسمع زوج عمته يقول: «سنبعث من أريحا الى والدتك ببرقية نخبرها بوصولك. ان الساعة الآن منتصف التاسعة، ولكنها لاتتجاوز في لندن منتصف السابعة. ولابد أن والدتك مستغرقة الآن في النوم، هي وجداك! أما بعد الظهر فيجب أن نذهب لزيارة مستر شابلي عميد معهد العميان. وان كان المفروض ألا تبدأ العمل هناك الا بعد عطلة عيد الميلاد. وستحب هذا الرجل كثيرا، لأنه كان من أصدقاء جدك في صدر شبابه، ومن معارف أبيك عندما كنتم مقيمين في يافا. أما صديقك «أمين» الأعمى فهو يقوم بالتدريس هناك الآن. وقد فهمت من مستر شابلي انك ستقيم معه في مسكن واحد من مساكن المعلمين».

وعندئذ سأل وليد: «أهي مدرسة المكفوفين القائمة على سفح التل المشرف على طريق الخليل عند مشارف بيت لحم؟»

ــ أجل. وهي أكثر من مدرسة وأكثر من معهد. لأنها تعلم الفتيان المكفوفين الصنائع المختلفة، وتدربهم على التكيف بالحياة الاجتماعية الايجابية. وأعتقد أن أنطون سيجد في ذلك خبرة نافعة طريفة.

ــ والموقع مناسب أيضا كي يقوم بزيارة الخليل كلما شاء.

فقال خليل داود: «ان من يقومون بمثل هذا العمل لا يجدون وقت فراغ».

ــ سنقنع بما هو ممكن.

قال وليد ذلك وهو ينظر الى أنطون نظرة جانبية ذات معنى، ولكن أنطونا كان في شغل عنه بالنظر الى ثريا وهو في حالة انتشاء. ولما فطن وليد الى ذلك، ثبت نظره الى الأمام في الطريق التي تتلوى هابطة صوب اريحا، وقد علا وجهه القطوب، ولم يفتح فمه بكلمة الى ان اقتربت السيارة بهم من غاية الرحلة.

وما أن وقع نظر أنطون على جبل التجربة حتى هتف: «هذا هو! كما تصورته تماما طيلة هذه المدة!».. ثم التفت الى

وليد وقال في لهفة : «هيا بنا نرتقبه بعد الظهر على سبيل الذكرى» .

فذكره زوج عمته : «انك ستزور بعد الظهر مستر شابلي .

ـــ نرتقيه غدا اذن ! يجب أن يقضي وليد الليلة معنا ثم نصعد الجبل غدا صباحا في ساعة مبكرة ، قبل الشروق . وفي وسعنا أن نأخذ معنا طعاما فنفطر ونتغدى هناك فوق القمة . ما رأيك في هذه الفكرة ؟

ـــ فكرة عظيمة ! وأنا سأقضي الليلة في بيت زوج عمتك بالفعل ، لأنه تفضل فدعا ثريا ودعاني للمبيت ، كي نحضر الحفلة التي سيقيمها الليلة احتفالا بعودتك .

وانتهز وليد فرصة التفات خليل الى ثريا ليقول لها شيئا ، فهمس في اذن صديقه : «وسيكون الغد فرصة طيبة للحديث ! » .

ووصلت السيارة الى بوابة (دار السلام) . وكان الخادم الذي فتح البوابة لهم هو بعينه الذي عرفه أنطون في صباه ، وقد رحب بأنطون أجمل ترحيب بعباراته الساذجة . ولما اقتربت السيارة

من شرفة البيت، رأى أنطون الأسرة بأكملها مجتمعة هناك، فيما عدا نصري.. وكان عمه فريد أول المبادرين الى الترحيب به. وبوغت أنطون بازدياد الشبه بين عمه وأبيه!.. فهو قد اكتسب شيئا من البدانة، واندلع الشيب في شعره، فغدا أشبه ما يكون من الناحية البدنية ببطرس. أما زوجة عمه «ماجدة» التي كانت مائلة الى البدانة طول عمرها. فقد أصبحت الآن بدينة جدا حقا، بيد ان ابتسامتها ظلت دافئة، ومودتها دافقة.

وعمته «منى» ازداد وزنها ايضا، ولكن في الحدود التي زادتها وقارا، ولم تقلل من وسامتها الشديدة، وقد ذكرت أنطونا أيضا بأبيه.

ونادية!.. ابنة عمه.. كأن السنوات الأربع لم تكن بالنسبة لها أكثر من أربعة أيام، فجمالها كما هو، ولم يظهر عليها أي أثر للسن، وأطفالها الثلاثة يحفون بها، ومن الواضح أن رابعهم سيبرز الى الوجود بعد وقت قصير!.

وبنات العمة ازداد طولهن، ولكنهن لم يزلن على حيائهن، وان كانت كبراهن شديدة الاحتفال بالاناقة. وكففن عن عادتهن في الضحك العصبي لسبب ولغير سبب!.

وقبّل أنطون يد عمته وزوجة عمه، ونادية، ثم أقبل الطاهي يوسف ومن ورائه زوجته لتقديم مراسم الترحيب بابن السيد القديم، والدموع تترقرق في عيونهما. وبعد ذلك قام يوسف بمعاونة خادم آخر بتقديم الأشربة الباردة، في حين كانت المروحة الكهربائية الكبيرة تحرك الهواء الساخن، وقد استقر الجميع في كراسي الخيزران الضخمة، ورائحة أشجار الياسمين، التي تحف بالشرفة، تملأ الجو بعبير مترف.

ولما رأى أنطون ثريا ونادیا جالستين معا، نهض ووقف بجوارهما، وقالت ثريا وهي تقلب عينيها في الحديقة الجميلة المنسقة، بما فيها من أشجار النخيل العالية، ونبات «الجهنمية» وخمائل البرتقال: «ما أجمل كل شيء هنا! لقد حضرت الى «أريحا» كثيرا ولكن لم يخطر ببالي ان مكانا جميلا كهذا يكمن متواريا عن الأنظار بعيدا عن الطريق. ان هذه الدار تستحق اسم دار السلام حقا!».

وابتسم انطون مسرورا، وقال: «كان أبي يحب هذه الدار كثيرا، ويهفو اليها دائما كلما ابتعد عنها، فهي واحته التي ينشد فيها الطمأنينة والسلام. وكان يروي لأصدقائه دائما كيف شعر

لأول مرة بالحب لأمي في هدا الموضع. وفي هذه الدار ايضا قضى آخر أيامه، ولفظ آخر أنفاسه».

فقالت الفتاة، متلطفة: «كنت أعرف هدا، ولكني لم أكن أعرف ذلك الجانب الرومانسي من قصة حب أبيك وأمك. ولا شك أن هذا يزيد من سحر المكان وجماله!».

ونظرت بنت عمه نادية اليه نظرة ذات معنى وقالت: «لماذا لاتطوف مع ثريا لتريها أرجاء البيت؟».

ـــ بكل سرور، ان هي شاءت!

وعلى الفور نهضت الفتاة وسارت معه. وما ان دخلا من باب الشرفة وصارا وحدهما، حتى نازعت أنطونا نفسه الى أن يتناول يدها في يده، ثم تذكر انها عربية، وانهما في فلسطين وليسا في انجلترا! وان حسبهما من اجتراء على العرف السائد ان يطوفا بالحجرات معا، وليس معهما ثالث..

وألفى البيت على حاله على حد ما يذكر. فالأبسطة العجمية الجميلة الفاخرة التي يعرفها جيدا، لم تزل مفروشة فوق الأرض الملطة بالرخام، في الحجرات الواسعة. وهذه حجرة المكتب الكبيرة الخاصة بالكتب، وهذه هي كتل الأخشاب تملأ

المدافىء لاستخدامها في الليالي الباردة، على نحو ما كانت تصنع أمه من قبل. وها هي زهرية تتوسط مكتب ابيه الصغير في حجرة النوم التي مات فيها. وعلى رأس السلم طالعته الصورة النصفية التي أوصى أبوه فنانا من القدس أن يصنعها لأمه في باكورة زواجهما. ولم تكن أمه راضية عن هذه الصورة فتركتها لخليل. وأسعده أن يجد زوج عمته قد احتفظ بها في مكان الشرف المعهود عند رأس السلم. وقال لثريا:

ـــ هذه أمي في شبابها. وكنت في الثالثة من عمري عندئذ ـــ فلست أذكر شكلها في تلك الأيام، وما كنت لأعرف انها لأمي ـــ ولكن أبي كان يحب هذه الصورة. وزوج عمتي خليل يحبها أيضا.

وعلى هذا النحو مضيا يتجاذبان أطراف الحديث والتعليقات في سهولة ويسر، وهما يتنقلان بين الحجرات، حتى وصلا الى حجرته السابقة، ونفذا منها الى الشرفة الواسعة التي تطل على جبل التجربة. وعن كثب من سفحه كان يقوم معسكر للاجئين ضربت فيه الخيام صفا وراء صف، في ألوف يخطؤها الحصر!.

ووقفا كلاهما في الطرف الأقصى للشرفة ينظران الى خمائل البرتقال، وقد عبقت الجو أزهاره الفواحة تحت الشمس الساطعة. وأخذت الفتاة تملأ صدرها في ذلك الهواء العطر، منتشية بجمال المنظر، وعندئذ قال لها أنطون: «ها هنا وقف أبي الى جوار أمي على انفراد لأول مرة، حين صارحها بأنه يتمنى أن يتزوجها. ومن بعد ذلك اليوم صار هذا المكان أحب بقعة في الدنيا الى نفسه. وكانت هذه الشرفة مكانهما المفضل هو وأمي، الى أن أقعده داء القلب عن صعود السلم، فصار ينام في الطابق الأسفل، ولا يبرحه. كم أتمنى لو أنه عرف أنني عدت الى هنا!».

ــ بل لعله يعرف!

ــ لعله.

وبعد لحظة تردد قال لها: «هل في وسعنا أن نلتقي أحيانا؟ في (رام الله) مثلا، في بيت عمتي وعمي؟».

ــ اني أتوقع في مدة وجودي هنا ــ وكلما منحتنا الجامعة عطلة، كعطلة الفصح مثلا ــ أن أزور بنات عمتك. ولكنك ستكون مشغولاً بعملك في بيت لحم.

ـــ في وسعي أن أتدبر وسيلة للذهاب الى رام الله بين الحين والحين .

ولاحظ أنها مشيحة عنه بنظراتها في ارتباك ، فقال : «لو كنا في انجلترا لكان من اليسير جدا أن نتفق على التلاقي لنقوم معا بنزهات على الأقدام في المنتزهات والخلوات . أما هنا فالوضع مختلف جدا . ».

وعندئذ التفتت اليه وابتسمت ابتسامة عريضة ، وقالت : « نعم . جدا . ولكن بعض الناس يستطيعون تدبير فرص اللقاء من غير أن يصطدموا بالعرف السائد . وأنا واثقة أننا نستطيع تدبير ذلك لو اتفقت رغبتنا فيه » .

ـــ ما أشد رغبتي في ذلك ، فهل أنت راغبة أيضا في أن نلتقي ؟

ـــ أجل . أما الآن فيجب أن لا ننسى العرف السائد ، وعلينا أن نسرع بالعودة الى حيث يجلس الباقون .

ـــ أعتقد هذا ، وان لم يكن فيه هواي ! .

وغادرا الشرفة عائدين الى الدار . وفي هذه المرة صنعا كلاهما شيئا واحدا على غير اتفاق سابق : فحينما كانا يمران في

الحجرات بفراش، كان كل منهما يغض بصره ويسرع الخطو متباعدا عن الآخر بعض الشيء، وان كان احساس كل منهما بصاحبه قد ازداد شدة وعمقا!.

— ٢ —

وفوق قمة جبل التجربة، وبين أزاهير (الآذريون) البرية الصفراء العطرة، استلقى وليد حسين على بطنه وراح يتحدث حديثا طويلا الى أنطون الذي جلس مسندا ظهره الى صخرة، ومرسلا طرفه عبر الوادي العريض الذي ترتفع في جوه أشجار النخيل الباسقة، وأشجار الزيتون العريقة، وتفترش أديمه ــ لاصقة بالأرض ــ بيوت أريحا البيضاء.

ــ لقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرتنا، ولكن الوضع في جوهره لم يتغير. فالملك عبد الله قتل كما تعلم، وابنه الملك طلال نزل عن العرش وتولاه الملك الشاب حسين. ولكن فلسطين المحتلة لم تزل على حالها مغصوبة محتلة. وفي كل عام تطفو القضية

الفلسطينية على السطح في جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة، وينتهي الأمر دائما بتأكيد حق اللاجئين في التوطن، ثم يقف الأمر عند هذا الحد. فلا اللاجئون يستردون وطنهم، ولا يبدو أن هناك أملا في أن ترد اليهم هذه المنظمة وطنهم. فلن يحدث شيء حاسم في قضية فلسطين الا اذا صنع الفلسطينيون أنفسهم هذا الشيء. هذه حقيقة نعرفها جميعا. ولكن المشكلة كلها تنحصر في ايجاد الوسيلة المؤدية الى ذلك. وما أكثر ما يقوله من يسمون أنفسهم بالعقلاء من أن العودة الى الوطن حل غير عملي، وأننا يجب أن نكون «واقعيين، عمليين» فنقبل الوضع الراهن، أي نقبل تحول ثلثي فلسطين العربية الى دولة لقيطة اسمها اسرائيل! .. فنوافق بذلك على ضياع شخصيتنا القومية، ونتحول من أمة متميزة مستقلة، الى حشود من الأفراد مشتتين في بلدان تستضيفنا. فالتنازل عن الوطن معناه ضياع القومية ولا مراء. فهل في وسعنا أن ننسى الى الأبد أننا فلسطينيون، ونمضي في الحياة المشردة بقلوب مطمئنة، حتى ينسى الناس قضيتنا الوطنية بعد أن نسيناها نحن، ونتحول من شعب مظلوم الى شعب منسي؟!.

وكان صوته وهو يتكلم يقطر مرارة .. ثم اعتدل في جلسته واكفهر وجهه من فرط الغضب وهو يستطرد قائلا :

ــ وهناك آخرون ينادون بأن دولة اسرائيل انما هي مرحلة عابرة من مراحل التاريخ ، وان هذا الاحتلال العاصب سينجاب عن فلسطين بصورة طبيعية ، كما انجاب عنها سلطان الامبراطورية البريطانية . وأصحاب هذا الرأي من المؤمنين بالنظرة التاريخية الى الأمور . ويطيب لهم أن يقولوا لك ، كيف انتهت امبرطورية الفرس بعد ازدهار ، وكيف انتهت امبراطورية الرومان بعد رسوخ وانتشار ، وكيف انتهت وريثتها الامبراطورية البريطانية وكانت الشمس لا تغرب عن أرجائها في ليل أو نهار ، وكيف قام الرايخ الثالث وأوشك أن يسيطر هتلر على العالم أجمع ثم لم يلبث أن انهار .. فما علينا للتخلص من اسرائيل سوى طول الانتظار ! وهو كلام لا يقوله الا من يملكون كل شيء ، فهم في أوطانهم مستقرون ، وفي ديارهم آمنون موفورون ، وما عليهم بعد ذلك أن يطالبوا المشردين المحرومين المغصوبين بالصبر والأناة الى أن تنقضي الحياة ، ولا خسارة على الناصحين ، ولا كسب للمنصوحين ، وانما الكسب في الحقيقة لأولئك الذين من مصلحتهم استقرار الأمور

وعدم نشوب القلاقل، ولو دفاعا عن حق، أو دفعا لعدوان على الحياة. وأحسب أنك التقيت بالكثيرين من طراز أولئك الناس أثناء اقامتك الطويلة في انجلترا.

ــ نعم. وكثيرا ما ضاقت أنفاسي بهم!

ــ هذا حالك وأنت مقيم في النعمة والعافية، بين أهل أمك في تلك البلاد البعيدة، فما بالك بالذين يعيشون في الخيام البالية ولا مورد لحياتهم الا ما تجود به عليهم أكف المتصدقين تحت اسم «هيئة اغاثة اللاجئين»، وانه لفتات لا يسمن ولا يغني من جوع!.

وسكت وليد قليلا ثم أردف:

ــ ان لي صديقا يعمل في معهد المكفوفين الذي ستعمل به أنت، واسمه «طالب حمادي». وقد تعرفت به منذ سنتين، وكان يومئذ يعيش في معسكر اللاجئين الكبير بالقرب من (بيت لحم). وكنت قد ذهبت لزيارة ذلك المعسكر في صحبة عمي مدير البنك. وطفنا بأرجائه ومعنا المشرف ومندوب لجنة الاغاثة، وكان طالب حمادي أحد الذين تحدثنا اليهم لاستطلاع الأحوال، فألفاه عمي شخصا ذكيا متوقد الذهن، ثابت الجنان، طلق

اللسان . فأعجب به ، وسأله ، أفلا يحب أن يلتحق بعمل خارج نطاق المعسكر فيتسنى له ان يعيش بعيدا عنه في ظروف أفضل من هذه الظروف ؟ وكانت سن طالب وقتئذ ثماني عشرة سنة . فأجاب لأول وهلة بالرفض ، لأن قبوله سيترتب عليه انقاص مخصصات المعونة لأسرته ، بيد أن أباه انتهره وقال ان من الغباء افلات متل هده الفرصة . وهكذا حصل عمي لطالب على ذلك العمل في معهد مستر شابلي . وفي العام الماضي تزوج من احدى فتيات المعسكر ، وهي لم تزل مقيمة به ، مع أنه يقيم مثل سائر مدرسي المعهد في المستعمرة الملحقة بالمعهد نفسه ، لأنها فضلت البقاء مع أسرتها .

ــ وكيف يستقيم هذا الزواج ؟

ــ انه ينتهز أي فترة فراغ مدتها ساعة أو ساعتان لينطلق الى المعسكر على متن دراجته كي يرى زوجته ويجالسها قليلا . وقد صارحني بأن المعيشة في المعهد تتوفر لها وسائل الراحة الى أقصى حد . وان الغذاء في نظره على الأقل ممتاز . وان الجميع هناك يعاملونه أكرم معاملة . ومع هذا فهو لم يزل يشعر باستمرار ان

بيته الحقيقي في ذلك المعسكر بين أبناء عشيرته. وهذا هو ما يسمى الآن بعقدة الالتجاء. أو العقلية الخاصة باللاجئين. وزوجته تنتمي الى هذه العقلية أيضا. ولذا ترفض أن تستقل بمعيشتها مع زوجها بمسكن خاص ببيت لحم. وكلنا هنا تقريبا ننتمي الى هذه العقلية، حتى من لا يعيشون منا في المعسكرات، مثلي أنا الذي أعيش في بيت عمي مدير البنك ــ حين أكون هنا ــ أو في مساكن الجامعة ببيروت أثناء السنة الدراسية. وحتى أنت ــ وقد عشت عيشة مختلفة جدا عن معيشة المعسكرات في انجلترا، بين والدتك وجديك ــ الا انك كنت تواقا طوال الوقت للعودة الى هذا البلد..

ــ ان هذه الفكرة لم تفارق ذهني لحظة واحدة!.

ــ وكذلك الحال بالنسبة لي وأنا في بيروت، مع أنني سعيد جدا بالفرصة التي أتيحت لي كي أتلقى العلم هناك. ولكن بيروت ليست وطني، ولا أشعر بقوميتي كما أشعر بها هنا، في الأرض التي كانت تسمى فلسطين، ويجب أن تسمى بهذا الاسم على الدوام.

ــ ولكن ماذا عن صاحبك «طالب حمادي»؟.

ـــ انه يتمتع بمزية بارزة بالنسبة لمشروعنا، فهو من بئر سبع، وهو متلهف أشد اللهفة على العودة اليها، لأن له أخا لم يزل مقيما هناك. وقد استطعت اقناعه بوجوب تكوين نواة للمقاومة الفعالة السرية هناك، داخل الارض المحتلة نفسها. والى أخيه هذا سنتجه عند تسللنا، وسيكون «طالب معنا».

وتسارعت دقات قلب أنطون. فطريق بئر سبع لم تكن قبل ذلك سوى حلم من الاحلام، أقرب الى الرمز منها الى الواقع، ولكن هاهو الحلم يتحقق في صورة مادية، على حين غرة!.

ونظر أنطون من فوق قمة جبل التجربة، كأنه يريد أن يرى تلك الطريق الملتوية التي تبدأ من الخليل وتتعرج في مسيرها عبر حدود التقسيم، وان هي الا بضعة أميال حتى تكون قد أفضت الى بئر سبع. انهما على هذه الطريق سيدرجان معا. هذا هو الواقع الذي بات ملموسا لأنطون، كواقع وجوده الآن على قمة جبل التجربة مع وليد، وكواقع هبوطها عنه بعد قليل ليستردا دراجتيهما من الدير في منتصف السفح.

وسأل أنطون وليدا وهو يجتهد أن يبدو غير مضطرب النفس بما جاش في صدره من انفعالات عنيفة: «وهل يعرف طالب أرض تلك المنطقة جيدا؟».

ــ خير معرفة. فقد كانت لأبيه أرض زراعية في الوادي من وراء (الظهيرية)، وله في القرية أبناء عمومة، مما سيساعده على الوصول الى تلك المنطقة.

ــ وهل لم يزل الوصول الى هناك محفوفا بالصعاب؟

ــ الغرباء عن المنطقة لا بد لهم من ترخيص بالمرور، وسيكون في وسعنا أن نحصل على الترخيص بسهولة عن طريق عمي. أما طالب فقد يجازف بركوب السيارة العامة ان حضر أحد أبناء عمومته حتى يتسنى له اثبات شخصيته عند اللزوم لدى الشرطة، ذلك أن رجال الشرطة يقومون احيانا بالتفتيش على الركاب ومراجعة هوياتهم ــ (بطاقاتهم الشخصية) ــ ليتأكدوا من عدم وجود غرباء بينهم، فان وجدوا بينهم غريبا كان عليه أن يثبت قرابته لأحد من سكان (الظهيرية)، ولذا يستحسن أن يكون معه أحد أقاربه بالفعل. وأنا شخصيا كثيرا ما ذهبت مع عمي كلما حضر الى الخليل. وعلى كل حال لم يعد الأمر عسيرا كما

كان في سنة ١٩٤٩، ومع هذا ستكون أنت بحاجة الى ترخيص.

ـــ وما هي خطتك؟

ـــ خطتي أن أقضي العطلة كلها هناك في فصل الصيف القادم، كي أتعرف على أرض المنطقة تعرفا تاما، سأقضي النهار بطوله في الحقول مع عمي ومع سعيد ومع الجد، وفي كل يوم سأوغل الى مسافة أبعد، وأنا أعمل في الزراعة، من غير أن أتجاوز خط الهدنة. وسيقوم طالب برسم خريطة تفصيلية للمنطقة.

ـــ وكم من الوقت ستقضيه في بئر سبع؟

ـــ ربما قضيت هناك بضعة أسابيع، أما أنت وطالب فلن تقضيا هناك سوى بضعة أيام، لأن العطلة الصيفية في معهدكم شبه معدومة.

ـــ سيكون عليك اذن أن تعود وحدك!

ـــ لن يكون هذا عسيرا، لأني في هذه الحالة لن أكون مشغول الذهن بمصير من معي. هل تشعر أنت بتوتر أعصابك في مثل هذا الموقف يا أنطون؟

ـــ أجل. ان المسألة برمتها تبدو لي الآن هائلة، وقد أوشكنا

على تنفيذها. وليس معنى هذا طبعا اني لا أريد أن أقوم بالمهمة، فقد قضيت السنوات الأربع في انجلترا وهي شغلي الشاغل!

ــ ان وصولنا الى بئر سبع سيكون له أكبر الأثر في الفلسطينيين هناك، ولا سيما حين يرون شابا مثلك جاء اليهم خصيصا من وراء البحار، وثق أن من بين المسنين هناك من يذكرون أباك ومواقفه الوطنية.

ــ هل من المعروف عدد الفلسطينيين في الأرض المحتلة؟

ــ نحو خمسة وسبعين الف فلسطيني يعيشون تحت نير اسرائيل، ويعاملونهم على أساس أنهم «مواطنون من الدرجة الثانية». وليست بئر سبع كما تعلم سوى البداية. مجرد نواة للمقاومة السرية التي يجب أن تنشأ في كل قرية ومدينة في الأراضي المحتلة لم يزل بها عرب. وقد آثرنا الابتداء ببئر سبع لأنها موطني الأصلي وموطن طالب. ولا بد لنا مستقبلا من وحدات من الفدائيين مدربين أحسن تدريب على طول الحدود..

ــ الحكومات وحدها هي التي تستطيع هذا!

ــ وأي حكومة هي التي أعدت جيش ايرلندا الوطني السري الذي كافح الانجليز بعد تقسيم ايرلندا؟ ومن الذي أعد جيش

المقاومة الفرنسي عند تقسيم فرنسا الى محتلة وغير محتلة بعد الغزو النازي ؟

ثم نظر وليد في ساعته وقال : «يحسن أن نعود الآن ، فقد وعدناهم في الدير أن نعود في الساعة الرابعة» .

— ٣ —

كتب أنطون عددا من الرسائل الى أهله في انجلترا، والى صديقه مستر جونز، وأرسل بطاقات ملونة الى لندلي. وكان معظم حديثه الى والدته عن ثريا: «لقد أعجبت ثريا كثيرا بدار السلام، وقد طفت بها أرجاءها وشرفاتها. ووقفنا وقفة طويلة في الشرفة العلوية التي تطل عبر البستان على جبل التجربة. وأحسست وهي واقفة هناك معي أن التاريخ يعيد نفسه، كما حدث في أول مرة وقفت أنت فيها هناك مع أبي.. ولم تسنح لي الفرصة كي أراها بعد ذلك لأنها غادرت (أريحا) في الصباح الى (رام الله) لقضاء عيد الميلاد مع ذويها هناك. وفي نهاية الشهر ستكون قد غادرت رام الله عائدة الى بيروت لاستئناف دراستها. كم وددت لو انها لم ترحل!.

« ..وقد ذهبت لزيارة مستر شابلي في يوم وصولي بعد الظهر ، في صحبة زوج عمتي خليل الذي كان يقود السيارة ، وذهب معنا وليد ، وبذلك سنحت لي الفرصة كي أقدمه الى أمين الذي يحتفظ الآن بشارب أسود كث مثل وليد ، ويعلم الأشغال اليدوية للمكفوفين في المعهد . وقد طاف بي «أمين» أرجاء المعهد وملحقاته ، ومستعمرة المساكن التي يقيم بها المعلمون ، وأراني الكوخ الصغير الذي سأشاركه فيه عندما أتسلم العمل . وكل شيء في داخل هذا الكوخ الصغير أبيض ، أجرد ، والأرض الحجرية عارية والأثاث بسيط جدا وفي أضيق الحدود الممكنة . فكل شيء هنا هو الحد الأدنى للوازم المعيشة الضرورية ، من غير نظر الى وسائل الراحة أو الترف بطبيعة الحال ! .

« وليس بيت مستر شابلي أحسن حالا من بيوت المعلمين . وكل ما يتميز به هو تلك الكمية الضخمة من الكتب التي يملكها ، وهو رجل طويل القامة ، نحيلها ، أشيب الشعر ، رقيق الجانب غاية الرقة ، يفيض دماثة وعطفا وحنانا على تلاميذه ومرؤوسيه . وأمين يقول ان الجميع هنا يحبونه لأنه في الواقع انسان منكر لذاته كل الانكار . وهو شديد الاعجاب بالمهاتما غاندي .

قال لي أمين ذات مرة أن هذا الهندوسي أشد مسيحية من الكثرة الغالبة ممن ينتسبون الى المسيح بالاسم والعنوان. بل انه يعتبر المهاتما غاندي أعظم مثل للمسيحية في العصور الحديثة.

«والمعهد في الحقيقة أقرب الى الجالية التي تعيش على أسلوب تعاوني مشترك منه الى المدرسة. بل ما أشبهه بمستعمرة من حيث أنه يتألف من مجموعة من الأكواخ للاقامة، ومزرعة صغيرة، وحديقة لانتاج الخضر التي تباع في سوق البلدة، وعدد من الورش، ومصنع صغير للنسيج.

«ومستر شابلي لم يتزوج. ويزعم أمين أن ذلك أثر من آثار اعجابه بفلسفة غاندي. وفي المستعمرة أيضا سيدة انجليزية هي الانسة «ريس»، وتقوم بمهمة مديرة البيت والأم لجميع من في المستعمرة، وهي التي تعنى بثياب التلاميذ المكفوفين، وتشرف على أعمال الغسيل التي تقوم بها فتيات من اللاجئات المقيمات في المعسكر القريب.

«والآنسة ريس في نحو الستين من عمرها فيما اعتقد. وقد حسبتها لأول وهلة حادة الطبع، ولكن أمينا قال لي أنها طيبة القلب، وأن ما حسبته حدة طبع انما هو في الواقع صراحة

واستقامة في التعبير، وانها ذات عقل عملي. وهذا الجانب من الخير يتوفر فيها، لأن مستر شابلي رجل حالم ولا يصلح لمعالجة المسائل العملية. وقد أخبرتني الآنسة ريس أنها كانت تعمل تحت امرة جدي في يافا، وانها ترسل اليه بتحياتها.

«والتلاميذ المكفوفين منهم من يقيمون في المعهد بالقسم الداخلي، ومنهم تلاميذ بالقسم الخارجي يحضرون يوميا فيما عدا يوم الأحد. وتتولى الآنسة ريس احضارهم في عربة المدرسة. ومستر شابلي هو الذي يلقي دروس اللغة الانجليزية عليهم، وسأتولى مساعدته في هذه الدروس على أمل أن أتولاها نيابة عنه بصفة شاملة فيما بعد».

○

والحقيقة أن ماريان لم تسترح لما ورد في الخطاب بشأن الفتاة، وان كانت تعرف عائلة «سابا» معرفة يسيرة. وهي على يقين من أن ثريا فتاة مهذبة حسنة التربية، يمكن أن تنجح في «كشف الهيئة» أمام نظرات «الزبيت» الفاحصة، ومقاييسها الاجتماعية الصارمة. ولكنها كانت تريد لأنطون ألا ينشىء علاقة

تربطه ببلاده العربية ، وتجعل اقامته تمتد مستقبلا الى أكثر من هذه السنة التدريبة .

ثم ماذا يكون الحال ومن المفروض في ختام هذه السنة أن يعود أنطون الى لندن ليدرس في مدرسة العلوم الاجتماعية والاقتصادية مدى سنتين على الأقل، في الوقت الذي لابد فيه للفتاة نفسها من قضاء مدة أطول من هذه في اتمام دراستها الطبية بجامعة بيروت الامريكية . فالصورة العامة لأطراف هذه العلاقة ، لا تبشر الا بأنواع من الفرقة والقلق والحرمان ..

وناقشت ماريان الأمر مع ابيها ، ولكن الرجل العجوز المجرب رفض أن يجاريها في هذا القلق ، وقال انها تزعج نفسها بأمور لم تزل في طي الغيب : «دعي الفتى يستمتع بهذه العلاقة الحالمة خلال السنة التي يقضيها هناك ، ولا تنسي أن مثل هذه العلاقة ستشغل ذهنه عن كل هراء من قبيل التسلل وراء خطوط الهدنة مع صاحبه وليد . حتى اذا عاد الى لندن ، استغرقته حياة جديدة في الجامعة ، وتنتهي هذه العلاقة نهايتها الطبيعية . عن طريق الذبول والتلاشي . فأكبر الظن أن عودته الى انجلترا ستتصل

اسبابه بأسباب الحياة الانجليزية، فيتزوج في النهاية فتاة انجليزية. ومتى تم هذا فهو لن يفكر في العودة الى فلسطين».

ــ أخشى يا أبي أن تكون متفائلا أكثر مما ينبغي. فأنطون ابن أبيه أكثر مما تتصور. وقد ظلت انجلترا بالنسبة له «أرض المنفى» كما كانت حرية أن تكون بالنسبة لبطرس لو أنه كان هنا معنا تلك السنوات. فالعودة الى فلسطين في احساس أنطون هي العودة الى الوطن. وميله الى هذه الفتاة ثريا راجع الى حد كبير الى أنها تمثل ببشرتها الحنطية طينة بلاده وشمسها. فارتباطه بها هو ارتباط الجذر بالتربة التي ينمو فيها ويتأصل. ولذا اعتقد أنها ستجذبه الى الشرق بحيث يعسر جدا انتزاعه من هناك ليعود الى أحضاننا.

وهز روبرت ملبي كتفيه وقال بهدوء: «ليكن ما يكون. فالفتى ينبغي أن يحقق ذاته على الطريقة التي تستقر بها نفسه ويرتاح اليها تفكيره».

ــ هذا شيء لا أماري فيه. وان كان يسبب لي ألما شديدا. ولكننا لا نصوغ أولادنا على ما نهوى. وسأكتب اليه اليوم وأبعث اليه ببركتي..

ــ ولا تنسى بركتي أنا أيضا . «أعطنا اليوم . خبزنا كفافنا .» يوما بيوم . وغدا يوم جديد يفرض نفسه ، ولا حيلة لنا في تحويله أو التنبؤ به . هذه فلسفة لم تزل صالحة لتسيير أمور البشر في كل حين .

○

ولم يكتب أنطون الى والدته شيئا عن تفاصيل حياته بعد ذلك، وان كان قد وصف لها احتفالات عيد الميلاد في دار السلام ، وفي رام الله . ولم يذكر لها كيف حرص على لقاء ثريا قبل عودتها الى بيروت ، وكيف كانت يداهما تتشابكان خلسة في الحين بعد الحين ، كلما أمنتا أعين الرقباء ــ أو على الأصح الرقيبات من بنات عمته ــ وأن ثريا لم تكن تجذب يدها الا بعد برهة طويلة وهي ترمقه بابتسامة وضيئة .

والحقيقة أن بذور القلق العاطفي أخذت تنمو في نفسه بسرعة بعد أعياد الميلاد ورحيل ثريا . وكثيرا ما كان يختلط عليه الأمر وهو يحلم ، فيرى روزا بين ذراعيه في قاعة السينما المظلمة . وقد التقمت شفتيه في شفتيها كما كانت تفعل ، فيستيقظ من نومه

مرتجفا وتفيض نفسه بالاسى والشجن، ثم يتضح له بعد قليل أن ذلك الأسى ليس حنينا الى روزا بالذات، وان صورتها في الحلم لم تحدث له الا اضطرابا جسديا عضويا، أما حنينه العاطفي فالى الفتاة المقيمة في بيروت!.

وكان يؤلمه أن عطلة عيد الفصح لن تحل الا بعد وقت طويل. ولابد له من الصبر. ولكنه صبر يزيد عاطفته الوليدة اشتعالا..

— ٤ —

شعر أنطون لأول وهلة أن «طالب حمادي» لايمنحه ثقته، رغم التزكية الحارة التي أضفاها عليه صديقه وليد، فهو ينظر نظرة تشكك الى الدماء السكسونية التي تسري في عروقه مختلطة بالدماء العربية. ولذا لم يكن راغبا في اشراكه معهما في عملية بئر سبع!.. يضاف الى هذا أن طالبا من أسرة فقيرة أشد الفقر، وكاهله مثقل أشد الاثقال بمسؤولياته العائلية. وقد علمته مرارة التجربة في معسكر اللاجئين الا يثق بالطبقة الغنية من الفلسطينيين، لأن الظروف لم تقس عليهم الى الحد الذي يتضورون فيه جوعا أو يعيشون على فتات الصدقة كما يعيش ذووه مع ألوف من نظرائهم في تلك الخيام. وقد زادت هذه المرارة رسوبا في نفسه بعد أن أودى سوء التغذية وبرد الشتاء وضآلة

الكساء بحياة أبيه ــ على اثر التهاب رئوي في ثاني شتاء قضته الأسرة في ذلك المعسكر الرهيب ــ وهذه النار المتأججة في نفسه هي التي جعلته شديد التحمس لفكرة التسلل الى (بئر سبع) عندما فاتحه فيها وليد. فهذه الفكرة هي المتنفس الطبيعي الذي كانت تحتاج اليه نفسه الساخطة!.

و «طالب حمادي» شاب طويل القامة، عريض الكتفين، وسيم المحيا، لولا انه دائم العبوس، ضيق الصدر، لا يميل للمجاملة. وقلما رآه أحد باسم الثغر منبسط النفس كسائر الناس. ولبث متحفظا جدا في علاقته بزميله الجديد انطون. وكان أول ما خطر لأنطون في تعليل ذلك، أنه يشعر بالغيرة منه لأنه اقتحم عليه استئثاره بصديقه وليد. ثم بدأت الحقيقة تتكشف له رويدا رويدا. فلم يحاول بعدها أن يكتسب صداقته، واكتفى بصداقة صاحبه القديم أمين.

وأمين ــ على عكس «طالب» ــ دمث متواضع سهل القياد، راض نفسه منذ زمن طويل على تقبل عاهته بغير تذمر، وهو فياض النفس بالشكران والمودة على المعونة التي اسبغها عليه

منذ صباه الباكر والد أنطون . أما أنطون نفسه فهو أحب انسان في الدنيا اليه ، وقد ظلت راسخة في ذاكرته لمسة يد انطون وهو قابض على يده طوال تلك المسيرة المشؤومة من (اللد) الى (رام الله) تحت شمس الصيف المحرقة في البرية .

ولن ينسى أمين ــ ما عاش ــ اصرار أنطون على الاحتفاظ به الى جواره في سيارة الأسرة عندما أقبل عمه فريد لاصطحابه . ثم اصراره بعد ذلك على استبقائه معه في بيت آل داود ، وقد جدد هذا الاحساس لديه أن أنطونا أصر عندما شاركه كوخه أن ينقل سريره الى حجرة نوم أمين نفسها ليتسنى لهما السمر الطويل بعد ذلك الانقطاع ! .

ولكن أنطونا لم يخبر أمينا بما دبره مع وليد وطالب ، وان كان قد سأله عرضا عن رأيه في انشاء طابور خامس داخل الأرض المحتلة ، تمهيدا لقيام حركة مقاومة مسلحة على نحو ما صنعه الفرنسيون اثناء الحرب العالمية الثانية بعد الغزو النازي . فاذا بأمين لا يدري شيئا عن الطابور الخامس أو حركة المقاومة الفرنسية . وكان أنطون قد عرف ذلك كله من مدرسه السابق مستر جونز ، فشرحه لأمين بحماسة أثارت اهتمام الشاب الأعمى ،

بيد أنه لم يستطع أن يتصور نجاح المقاومة الفرنسية الا على أساس أن الحلفاء كانوا يمدونهم بالمساعدات والسلاح بطريقة أو بأخرى. ولكن هل هذه هي الحال بالنسبة لحركة المقاومة العربية داخل اسرائيل؟.. انه يفهم بسهولة أن يتسلل العرب الفلسطينيون وراء خطوط الهدنة لزيارة ذويهم وديارهم خلسة ثم يعودون بعد اطفاء غلة اشواقهم الى مرابع طفولتهم ومراتع صباهم. فهذه في تصوره عملية عاطفية عائلية ولا يمكن أن تكون حركة سياسية عسكرية.. وقد قال أمين رأيه هذا بصراحة. وهو رأي أملته عليه ظروف نشأته وعاهته التي جعلته «مستطيعا بغيره»، ولا يتصور قيام الانسان بأعمال خطيرة مستقلا بنفسه، غير مستمد العون من أحد.

ومهما يكن من شيء فقد ظل أنطون وقتا طويلا ساهر العين والذهن بعد ان استسلم أمين للنعاس. وراح يقلب الفكرة كلها في ذهنه. وخطر له أن وليدا وطالبا ربما كانا مدفوعين الى هذه العملية بحافز انفعالي يريد أن يجد متنفسا عمليا للسخط والرغبة في المقاومة، من غير نظر الى جدوى تلك المقاومة. فهي

أشبه بالصرخة التي يطلقها المكروب ولو كان يعلم انه ما من سميع ولا مجيب !.

وفكر في أمر نفسه شخصيا، وفي الدافع الذي يحفزه على المضي في انفاذ تلك الخطة، وتراءى له بعد امعان التفكير أنه انما يستجيب في ذلك لصداقته القديمة بوليد، ورغبة منه في اثبات جدارته بتلك الصداقة. ولفرط ما «عايش» تلك الفكرة، استولت عليه بحكم الألفة، بصرف النظر عن مبرراتها الذهنية.. ولكن حاله اليوم غير حاله بالأمس. ولئن كانت فكرة التسلل هي منزعه العاطفي الأوحد يوما ما، فلديه اليوم منزع عاطفي آخر يزداد يوما بعد يوما هيمنة عليه، وهذا المنزع العاطفي يتمثل في «ثريا سابا»!.. وما أشد المفارقة بين ذلك الحب الذي يكنه لثريا، وما كان يكتوي به سابقا من الشوق الى روزا. فشوقه الى روزا هو الشوق الى العناق الحار والمداعبات المثيرة ودفء الأنوثة الدافقة، أما شوقه الى ثريا فلا يتمثل له الا في الجلوس اليها، والنظر الى عينيها، والتحدث معها. ولكن هذا الشوق على خلوه من سعير الشهوة ليس أقل سيطرة عليه من شوقه الى روزا يوم كانت علاقتهما في ابانها، ان لم يكن أشد، لأن هذا الشوق نابع

من وجدانه لا من غدده الصماء، ومن عقله وشخصيته كلها لامن أحاسيس المراهقة الرعناء.

ولكم كان يحلم أحلام اليقظة فيراها وقد طارت من بيروت الى بيت لحم لتقضي معه يوما في النزهة، حيث يجلسان في ظل شجرة تين عجوز ويرسلان الطرف معا عبر المروج الفيحاء، حيث ترعى الحملان البيضاء أعشابا مزدانة بالسوسن!.

وسأله مستر شابلي ذات يوم عن حاله، وهل يشعر في المعهد بالايناس والاستقرار النفسي، وألفى أنطون نفسه يبتسم ويقول انه على خير ما يرام هنا، مثلما كان يبتسم وهو في المدرسة بلندن متظاهرا بالتأقلم والسعادة، وقلبه في واد آخر!.. ان العميد على رقته البالغة لم يشعره بالالفة العقلية. ولكنه وجد تلك الألفة الصريحة مع الآنسة «ريس» التي شعر بعد انقضاء أسبوعين على الأكثر انها تميل اليه وتألفه، وكثيرا ما كانت تسري عنه بعض وحشته بدعوته للركوب معها الى القدس، كلما ذهبت الى هناك لشراء مستلزمات المستعمرة من الأطعمة وما اليها، وكان هو خالي البرنامج من الدروس التي يلقيها في اللغة الانجليزية

والقراءة بطريقة «برايل».. فكان عندئذ يرحب دائما بتلك الرحلات التي تدخل التغيير على نمط حياته الرتيب في ذلك المكان، ويجد فيها فرصا طيبة للانصراف عن تفكيره المتصل في ثريا سابا.

وكثيرا ما نازعته نفسه أن يكتب الى ثريا جانبا من الخواطر التي تدور بذهنه في شأنها، ويبثها بعض أحلامه وأمانيه وأشواقه، ولكنه كانْ دائما يمزق ما يكتبه اليها ولا يجسر على ايداعه صندوق البريد الجوي!.

○

واخذ موعد عطلة عيد الفصح يقترب رويدا رويدا، ومعنى ذلك عودة ثريا الى رام الله. ومعناه في الوقت نفسه عودة وليد أيضا! ووليد مصرّ على أن الوقت غير مناسب على الاطلاق لانشاء علاقة حب، ووجود ثريا في حد ذاته أمام ناظري أنطون برهان من أقوى ما يمكن على لزوم تلك العلاقة!.

وشعر أنطون بحاجته القصوى للافضاء بحيرته الى انسان ما، بيد أنه الفى من المستحيل عليه أن يناقش عاطفته نحو ثريا

مع صديقه المكفوف أمين، وليس له صديق سواه للأسف يسعه أن يفتح له قلبه في هذه الفترة.. وفجأة ذات صباح مشرق من شهر ابريل «نيسان»، رأى ثريا في مدينة القدس، تدس رأسها داخل نافذة السيارة التي جلس هو فيها، في المقعد المجاور للسائق، ينتظر أوبة الآنسة من مكتب البريد، وعلى محياها ابتسامتها المشرقة!.

ووثب أنطون من السيارة وراح يسألها بعد عبارات الترحيب الأولى عما أتى بها الى القدس قبل بداية عطلة الفصح، ومتى كان وصولها من بيروت. فأجابته ان عطلات كلية الطب تختلف من سنة الى أخرى، وانها حضرت من بيروت منذ ثلاثة ايام. فقال لها في شيء من الاستياء:

ـ لك هنا ثلاثة ايام ولم نتقابل لولا هذه المصادفة التي جاءت على غير انتظار؟

وكم كانت دهشته حين قالت له انها فكرت كثيرا في الذهاب الى بيت لحم لزيارته، ولكنها لم تستطع تدبير ذلك بسهولة، وانها ذهبت مرتين الى بيت آل داود على أمل أن تراه هناك، ولكنهم قالوا لها أنه لم يعد يزورهم منذ التحق بالعمل.

فقال أنطون: «ان وقت فراغي قليل. وليس هناك ما يدعوني للتوجه الى بيت فيه بنات عمتي الحمقاوات. ولكن ماذا سنصنع الآن وقد اوشكت عطلتك على الانتهاء؟».

ـــأمامنا في الصيف عطلة تمتد ثلاثة أشهر، وسيكون من السهل علينا في تلك الفترة أن نلتقي.

ـــلم تزل بيننا وبين الصيف فترة طويلة جدا.

ـــليست طويلة الى هذا الحد.

ـــفي نظري أنا على الأقل!

ـــفي وسعنا أن نقصرها بتبادل الرسائل!

وعندئذ أقبلت الآنسة ريس من مكتب البريد، فقام بتقديم ثريا اليها. وكانت الآنسة ريس تعرف والدها الدكتور سابا. ولم تلبث ثريا أن استأذنت في الانصراف، ثم حرصت على استبقاء يد أنطون في يدها وهي تودعه، وقالت له باسمة:

ـــهذا وعد اذن؟ ستكتب الي واكتب اليك!

ـــكم كنت متلهفا على هذا الوعد.

وتلاقت عيناها في نظرة طويلة، ثم انصرفت. وفي الطريق الى بيت لحم سألته الآنسة ريس: «أهي فتاتك؟».

ــ أظن هذا. ولكن الفرصة لم تسنح لنا قط للالتقاء على انفراد. ولم اقابلها من قبل الا في حفلات عيد الميلاد بأريحا، وكانت شرذمة كبيرة من أعضاء الأسرة تحيط بنا على الدوام! ولست أدري كيف يتسنى للشباب هنا أن يتعارفوا معرفة كافية لعقد الخطبة، ودعي عنك عقد الزواج!

ــ في مثل هذه الظروف التقى أبواك، وتسنى لهما أن يتدبرا أمرهما جيدا!

ــ لا وجه للمقارنة، فقد كان أبي صديقا لوالد أمي.

ــ وهل في نيتك أن تتزوج هذه الفتاة؟

ــ ان تفكيري لم يصل الى هذا المدى بعد. وكل مرادي أن أجد فرصة للانفراد بها أحيانا لكي يعرف كل منا صاحبه! ولو كنا في انجلترا لوسعني أن أخرج معها للنزهة علانية وان اصحبها الى السينما وأزورها في بيتها وأدعوها لزيارتي في بيتي..

ــ وشيء من هذا يحدث الآن هنا بالفعل بين الشباب المتعلم على الطريقة الأوروبية. ولكنك عجول أيها الشاب! ثم أنت كسول ايضا ولا تبذل جهدا كافيا، فالسعادة كالطائر لا بد أن تستدرجه الى شباكك ولا فلا صيد! والفتيات في هذا البلد

لايسقطن من السماء على الرجال كما تسقط الثمرة عند تمام نضجها على الجالسين في ظلال الاشجار . بل لابد من جني الثمار بعناية وحذر في أوانها المناسب . ومتى تم جنيهن ، قر قرارهن في السلال . وهي مزية لا يمكن أن تقال بصدق عن كثيرات من فتياتك الانجليزيات ! .

واستسلم أنطون للصمت والتفكير ، ثم سألها فجأة :

« خبريني يا آنسة ريس : ماذا تفعلين لو أن لديك رغبتين متعارضتين تماما ، وكل منهما عزيزة عليك ؟ الى أيهما تسعين ؟ »

ـــ أهذه هي مشكلتك ؟ أهذا التعارض هو الذي يـ؟ـدك عن السعي للحصول على فتاتك ؟ هل هناك عاطفة أخرى تتنازعك ؟

ـــ تقريبا .

ـــ في هذه الحالة إما أن تقعد مكتوف اليدين هكذا ، فتفقد الاثنتين معا ، أو تلتزم الحزم مع نفسك وتقرر بصفة قاطعة أيهما ألزم لك ، ثم تجمع همتك للفوز بها ! .

○

أما وليد فلم يقابله أنطون في عطلة عيد الفصح الا مرة

واحدة ، وباتفاق سابق على اللقاء في رام الله ، اذ اتصل بأنطون تليفونيا في المعهد يوم وصوله ، والتقيا في اليوم التالي . وعند وصول أنطون الى رام الله ـــ معولا على قضاء نصف اليوم كله في صحبة وليد ـــ اتضح له أن وليدا لا يستطيع أن يمنحه من وقته سوى ساعة واحدة ! فقد اتفق مع شخص ما على أن يقله في سيارته بعد ساعة الى الخليل ، حيث يبيت ليلته ، ويرحل في الغداة بالسيارة العامة لزيارة عمه منير في (الظهيرية) التي سيقضي بها بقية الاسبوع . ولذا سوف لا يتسع وقته هذه المرة للقاء « طالب حمادي » ، ولكن هذا اللقاء غير ضروري ، فسوف يجتمع شمل ثلاثتهم في الصيف ليرسموا تفاصيل خطة التسلل الى بئر سبع بأتم عناية . أما في هذه المرة فهو ذاهب الى الظهيرية كجزء من خطته البعيدة المدى التي شرع في تنفيذها منذ سنوات ، وهي التعرف بأهالي المنطقة ، والارتباط بأواصر الألفة مع أفراد الحرس الأردني الذي يراقب الحدود هناك ، توطئة للمستقبل ، لأنه قدر في ذهنه أن الخطر من جانبهم سيكون أشد من خطر الحراس الاسرائيليين ، لشدة حرص الأردن على ايقاف التسلل لما يسببه من اضطراب ومتاعب . وكان تعليق وليد على هذا : « انهم على صواب من

وجهة نظرهم بطبيعة الحال، ولكننا نحن أيضا على صواب من وجهة نظرنا، لأن من حقنا كلاجئين أن نعود الى أوطاننا وديارنا... انه حق طبيعي ومقدس.»

وكان لقاء أنطون ووليد في مقهى صغير في وسط البلدة، ثم خرجا للسير معا تحت ظلال الأشجار وهما يتجاذبان الحديث. وسأل وليد صاحبه: «كيف حالك الآن مع طالب؟»

ـــ لا علاقة لي به تقريبا. فهو لا يكلمني الا للضرورة القصوى. وما أقل فرص تلك الضرورة في الواقع. ولا أدري سبب شعوره العدائي نحوي، أهي الغيرة؟

ـــ انه لا يثق بالجانب الانجليزي في تكوينك. ولم يكن ينبغي لي في الواقع أن أصارحه بأن والدتك انجليزية.

ـــ ولكن اباها يشعر نحو فلسطين بشعور العرب أنفسهم.

ـــ من غير الممكن أن تحمل طالبا على تصديق ذلك!

ـــ كم أتمنى لو أنه لم يشترك معنا في مشروعنا.

ـــ ولكننا بحاجة اليه. فهو دليلنا. وبمرور الزمن سيثق بك

متى وجدك جادا في حماستك للفكرة . أخبره على كل حال أنك قابلتني وأنني ذاهب الى الخليل والظهيرية .

وافترقا بعد ذلك ، وقد خامر أنطون احساس ـــ لا يدري مبعثه ـــ بالضيق ، وكأن شبكة توشك ان تطبق عليه فلا تفلته . ان الصفاء بينه وبين صديقه لم يعد خالصا كذي قبل !

ـ ٥ ـ

وطوال ذلك الربيع كان أنطون يحدث نفسه بأن الصيف آت لا ريب فيه. وان وليدا وثريا سيغادران بيروت في منتصف يونيو «حزيران» عائدين الى رام الله. وكانت ثريا قد كتبت اليه رسالة واحدة، الا انها كانت كافية جدا، فقد أودعتها كل ما يمكن أن يقال، وختمتها بقولها: «احتفظ بي في قلبك ياعزيزي أنطون مثلما احتفظ بك في قلبي!».. ووقعت رسالتها بتلك الكلمة الجريئة: «حبيبتك ثريا».

.. وفي وسعه الآن أن يعيش مطمئن النفس الى أن كل شيء على ما يرام. وأن قلقه الذي شاب أحلامه وأمانيه العاطفية لم يعد له محل في حياته. فقد أوشك الحلم أن يكون واقعا محسوسا. وقد عول عند قدومها في منتصف يونيو «حزيران»

على أن يصحبها لزيارة بيت أسرتها. وأن يطلب الى أبيها والى والدتها أن يباركا خطبتهما رسميا. ولئن كانت ثمة صعاب تكتنف سبيلهما، فهي صعاب ما أهونها أمام العزم الذي استقر من الجانبين. وكل ما يصبو اليه الآن أن يحل اليوم الذي تتأكد فيه هذه السطور المقروءة بلمسة اليد ولمسة الشفاه!.

وذات يوم، تكررت مفاجأة اللقاء في القدس في شهر أبريل «نيسان»، ولكن بصورة اخرى، عندما رآها ذات يوم تجتاز فناء المعهد وفي صحبتها رجل لم تزل به آثار الشباب، نحيف القامة، يشبهها شبها شديدا، فأدرك على الفور أنه أبوها وكان أنطون يلقي درسا في الهواء الطلق تحت شجرة، عندما رأى الزائرين يقتربان، فاشتد وجيب قلبه، وصرف التلاميذ.. ثم تقدم للقاء ثريا والدكتور سابا. وكانت ثريا ترتدي ثوبا أبيض وحذاء أبيض اللون عالي الكعب، وتبدو في أوج جمالها. وصاحت به بعد أن قامت بتقديمه الى أبيها:

ـــ لابد أن تعود معنا لتناول الغذاء، لأني أريد أن اقدمك الى والدتي وسائر أفراد الأسرة.

ـــ لست أدري هل هذا في المستطاع أم لا ، لأن لدي درسا سألقيه في الثالثة بعد الظهر .

وعندئذ قال الدكتور سابا أن العميد صديقه ، وانه سيرجوه أن يمنح التلاميذ عطلة بعد ظهر ذلك اليوم . وبعد قليل كانت سيارة الدكتور سابا تقلهم ، وقد جلس الدكتور الى جوار السائق ، وجلست ثريا مع أنطون في المقعد الخلفي ، وقد تشابكت يداهما خلسة . وقال لها هامسا : «يجب أن نطلب اليهم اليوم الموافقة على اعلان خطبتنا .» .. فاحمر وجه ثريا وهزت رأسها ، وضغطت على اصابعه ضغطا شديدا . وخيل الى انطون أنه لن يشعر ما عاش بمثل السعادة التي غمرته في هذه اللحظة ! .

أما انطباعاته بعد ذلك فلا تتجاوز احساساته العابرة ببيت أنيق يتوسط حديقة واسعة الأرجاء ، فوق ربوة تشرف على واد عريض . وفي ذلك البيت وجوه باسمة مشرقة ، لأسماء سمعها ولكنه لا يعتقد أن ذاكرته وعت شيئا منها . ولفت نظره منها على الخصوص ، وجه امرأة خيل اليه لأول وهلة أنها شقيقة ثريا

الكبرى، ثم اتضح أنها والدتها، وقد رحبت به أحر ترحيب، وأكدت له أن بيتهم بيته منذ الآن.

وتلت ذلك مأدبة غداء احتفالية خيل اليه أن الطعام فيها كان اكداسا مكدسة. وبعد الغداء انتهزت ثريا أول فرصة مناسبة وتعللت برغبتها في الطواف به بين أحواض الزهور وأشجار الفاكهة في الحديقة، كي تنفرد به هناك، حيث قالت له:

ــ لقد قلت لأبي اننا راغبان في اعلان الخطبة، فقال انه لا يمانع في ذلك اذا كانت اسرتك لا ترى مانعا من اعلانها، الا أنه لا يريد أن يتم هذا الاعلان الا قبيل عودتي الى بيروت، وعندئذ يقيم لنا حفلا كبيرا، يدعو اليه جميع الاقارب والأصهار والأصدقاء، ويحضره كذلك آل منصور و آل داود، ويا حبذا لو استطاعت والدتك القدوم ايضا.

ــ يا لها من فكرة بديعة. وان كنت لا أدري بالضبط هل سيكون في مقدورها أن تحضر في ذلك الحين أم لا.

وألفيا نفسيهما تحت عريشة من نبات الجهنمية تواريهما عن أنظار من في البيت، فوقف والتفت اليها بنظرة رجاء. ثم احتواها بين ذراعيه وأطبق بفمه على شفتيها، ولكن شفتيها لم

تنفرجا تحت قبلته على نحو ما كانت تفعل روزا. وعندما افلتها من بين ذراعيه تنهدت وقالت بأنفاس متقطعة:

ـــ هيا بنا نعود اليهم قبل أن يفتقدونا.

ـــ ولكني أريد أن أعرف منك هل تحبينني؟.. هل؟

ـــ طبعا. طبعا. أنت تعرف هذا. وقد كتبته اليك!

فأطلق ضحكة سعادة صافية وتأبط ذراعها عائدين.

○

هذا كله لم يكاشف به أنطون صديقه وليد الذي زاره بعد بضعة ايام وهو في طريقه الى الخليل. وتحت ظلال شجرة تين عتيقة في طرف الضيعة الأقصى، جلس «طالب» معهما، وراجع الثلاثة خطة العمل.. فقال لهما وليد انه سوف لا يعود الى رام الله قبل تنفيذ المشروع. وأن عملية بئر سبع سيبدأ تنفيذها في اليوم التالي لوصول طالب وأنطون الى الظهيرية، حيث سينتظرهما. والمراسلات قبل ذلك ممنوعة!.

وكان من المقرر أن يحصل طالب على اجازة مدتها اسبوع في شهر سبتمبر «ايلول»، على أن يختار أسبوعا لايكون القمر

فيه بدرا. وأخرج وليد من جيبه مفكرة، وبدأ الثلاثة يتناقشون في التاريخ.

وانتهز أنطون هذه الفرصة وراح يتأمل وجهي زميليه الجادين، وشعر على الفور باختلافهما عنه. وان علة ذلك الاختلاف كامنة فيه هو وفي ظروفه. فهذه العملية التي ظل يحلم بها طيلة أربع سنوات، لم تعد بالنسبة له الآن في المقام الأول من الأهمية. لم يعد حريصا على الانطلاق نحو الظهيرية كما كان يتمنى منذ بضعة شهور. فكل أمانيه اليوم محصورة في البقاء قرب ثريا. وما من شيء بعد ذلك يعنيه. وكأنما عودته من أرض المنفى لم تكن الا من اجلها. أما طريق بئر سبع فبدأت تتخلى عن مكانتها كي تحتلها طريق اخرى، هي الطريق الى ثريا!.

وفي الوقت الذي انصرف فيه صاحباه الى مناقشة أنسب موعد، كان هو يسترجع بضاضة شفتي ثريا المطبقتين، وزفرتها الصغيرة بعد ذلك، وقد تحولت من طالبة طب واثقة بنفسها، الى فتاة عاشقة مرتجفة الأوصال بين يديه!.

وقطع عليه صوت وليد الجاد حبل تأملاته الحالمة: «أليس هذا رأيك أيضا يا أنطون؟».. فأسرع يقول له: «هو ما

تقول. ويخيل الي أنه سيكون في وسعي أن أحصل على عطلة في نفس الوقت الذي يحصل فيه طالب على عطلته، لأننا لا نعمل في قسم واحد من أقسام المعهد، بل في قسمين مختلفين».

فتجهم وجه وليد وقال: «ليس حديثنا الآن عن التواريخ. فقد فرغنا من هذا. وانما كنت أقول انك ينبغي أن ترحل من الخليل الى الظهيرية بمفردك، وأن يسافر طالب اليها مع أقاربه الذين سيحضرون الى الخليل لاصطحابه».

ـــ بمفردي تماما؟

ـــ ليس تماما. بل سأرسل عمي منير لاصطحابك. وانما الغرض من هذا ألا تسافرا معا أنت وطالب.

ـــ يؤسفني أني لم أكن مركزا ذهني في الحديث. ولكني موافق طبعا على هذا الرأي.

فقال طالب عندئذ بلهجة باترة: «لعلك ـــ في اليوم الموعود ـــ أن تركز ذهنك، لأنك ستكون بحاجة الى تركيزه، مع كل خطوة تخطوها عند التسلل!.

— ٦ —

ومن لندن كتبت ماريان :

«عزيزي أنطون

أسعدني أن أعلم أن الأمور جرتْ على نحو ما تمنيت ، بشأن ما بينك وبين ثريا . وكذلك سعد جداك بهذه الأنباء ، وليس هناك ما يمنع مطلقا من اعلان خطبتكما رسميا ، مادامت هذه رغبتك ورغبة آل سابا . أما عن اقتراحك أن أحضر بالطائرة لشهود ذلك الحفل في أوائل اكتوبر «تشرين الأول» فهو اقتراح قريب الى نفسي جدا ، وستكون مناسبة طيبة للاجتماع بسائر أقاربي الفلسطينيين مرة أخرى في رام الله . والحقيقة أنه من الجائز أن أحضر الى عمان في نهاية سبتمبر «ايلول» ، لأعمال تتعلق بالصحيفة ، ولم أشأ أن أذكر لك ذلك من قبل لأنني لم أكن

متأكدة من ذلك التاريخ. وسأبرق اليك بموعد وصولي على أمل أن تتمكن من استقبالي في المطار، أنت «وكنتي» المستقبلة ثريا. جدتك وجدك يضمان صوتهما اليّ في اهداء التهاني اليكما معا».

وفرح أنطون فرحا عظيما بهذا الخطاب. واطلع عليه ثريا ووالديها. وشاركه في الفرح سائر أقاربه في رام الله والآنسة ريس وأمين، وكل من يعرفهم.. فيما عدا وليد الذي لن يجرؤ على اخباره بموعد الخطبة الا بعد الانتهاء من عملية بئر سبع!.

وعلى كل حال لم يعد الاجتماع بثريا مشكلة عويصة. فقد دبر الأمر مع مستر شابلي بمساندة الآنسة ريس كي يخليه من العمل يوم الأحد من كل اسبوع، فيركب دراجته الى رام الله ويرى ثريا، اما في بيتها أو في بيت آل داود.

ولم يكن انفرادهما أمرا كثير الوقوع في تلك الزيارات ولكن الفتاة لم تكن تتوقع ذلك، وأنطون كان يعلم أن الأردن ليست كبريطانيا، وأن ثريا ليست كروزا، وهو لا يتمنى الآن شيئا أكثر من جوارها، ويجد في ذلك سعادة لا يعذبه فيها الشعور بالحرمان.

وصار يجد عناء شديدا في ارغام ذهنه على التفكير في وليد، فاذا نجح في ذلك تولاه احساس بالاثم لأنه خان ما عاهده عليه!.. ولكن الأمر خرج من يده، لأن ثريا صارت جزءا لا يتجزأ من حياته. وكل شيء عداها هو وهم لا يستطيع أن يقنع نفسه بواقعيته.

واستمر الحال على هذا المنوال الى أن انقضى شهر يوليو «تموز». وفي أغسطس «آب» بدأ يشفق من اقتراب الموعد المضروب بينه وبين وليد، وأحس كأن شبكة تكاد تطبق بأطرافها عليه. ولكن الوقت أخذ يمضي، ويدنو بمضيه شهر سبتمبر «ايلول» ويزداد بهذا الدنو قلقه، حتى أنه لم يجد محيصا في النهاية عن مناقشة الموضوع من حيث عمومياته مع ثريا، من غير أن يتورط في افشاء السر الخاص بصاحبيه!.

وذات يوم، فيما هو جالس معها في حديقة بيت والديها، سألها عن رأيها في التسلل عموما: «ولنا الحق فيما تعلمين في العودة الى ديارنا. وهو حق طبيعي ومقدس. ولئن كانت الدول الكبرى ــ وهيئة الأمم المتحدة ــ تأبى أن تساعدنا في الحصول

على ذلك الحق، فما عذرنا أمام أنفسنا في الامتناع عن محاولة تحقيق ذلك بأنفسنا؟».

ـــ ان المسألة تنحصر في امكان هذا العمل أو عدم امكانه. فاذا كان التسلل ممكنا، فجدواه مشكوك فيها.

ـــ ولكن ما رأيك اذا كان التسلل توطئة لانشاء حركة مقاومة سرية داخل الأرض المحتلة؟

ـــ كنت أفهم هذا لو أن الفلسطينيين كانوا أغلبية أو شبه أغلبية، في الأرض المحتلة.. أو حتى لو كانوا أقلية كبيرة. أما وهم لا يتجاوزون السبعين ألفا، فالعملية غير متكافئة وغير منطقية!

فنظر اليها أنطون بأسى شديد وقال: «لو كنت وأهلك من اللاجئين لما قلت هذا الكلام!».. فوضعت راحة يدها على ظاهر يده وقالت: «أرجو أن تصدقني حين أقول لك أنني لو كنت لاجئة لكان رأيي في الأعمال العنيفة غير المنظمة، وغير المثمرة، هو عين رأيي الآن!».

ـــ ما أشبه هذا الكلام بكلام من يسمون أنفسهم ـــ أو يسميهم الانجليز ـــ بالعقلاء، أو من يقبلون الأمر الواقع ويستسلمون للهزيمة! لقد خسرنا الجولة الأولى في هذه الحرب مع

اليهود بسبب التقصير والخيانة، وما لم نفعل شيئا، سنظل خاسرين الى النهاية!.

ـــ ليس الى النهاية. فعامل الزمن في جانبنا!

ـــ كثيرا ما قيل لي هذا من قبل. ولكني لا استطيع الصبر مائة سنة. بل لابد لنا من العمل العاجل. وان كنت قد تعتقدين أن ما أقوله تعبير عما يسمونه «عقلية اللاجئين».

ـــ لا اكتمك أن هذا رأيي فعلا.

وعندئذ خيل اليه أن استمرار المناقشة غير مجد، وتمنى فجأة لو أن وليدا بجواره كي يرفع من روحه المعنوية ويقوي من ايمانه. فقد فل من عزيمته كثيرا أن يجد ثريا معارضة لرأيه، مثلها في ذلك مثل أمه وجده وصديقه أمين.. وخيل اليه ان مستر شابلي بمكن أن ينير له الطريق، فانتهز فرصة انفراده به بعد أيام ـــ وهما في طريقهما الى احدى القرى سيرا على الأقدام، لزيارة أسرة لديها ابن مكفوف يزعج بسخطه وتذمره ونوبات هياجه كل من حوله ـــ فألقى عليه فجأة سؤاله:

ـــ ما رأيك في التسلل؟

ـــ وسيلة خرقاء. ولاسيما من الناحية الأخلاقية.

ألا تعتقد أن من حقنا نحن اللاجئين أن نعود الى ديارنا ما وجدنا الى ذلك سبيلا؟

ــ بلى! هذا أمر لا مراء فيه، ولكن السبيل الى هذا ليس التسلل الفردي لأنه يحرج الدولة التي تستضيف اللاجئين. وليس من حقك أن تشكو من عدوان خصمك ان أنت سلكت سبيل العدوان!

ــ وهل من العدوان ان يحاول المرء العودة الى داره؟

ــ نعم. اذا كانت الوسيلة منافية للقانون والنظام!

ــ وما العمل اذن؟

ــ وجهة نظري في هذا هي وجهة نظر المهاتما غاندي. فالوسيلة المناسبة هنا هي العمل الجماعي السلمي المناهض للعدوان والعنف. هل تذكر الزحف الكبير نحو الملح في الهند؟ انك بالطبع لا تذكره لأنك لم تكن قد ولدت بعد. ان الحكومة الانجليزية في الهند كانت تحتكر الملح، وتفرض عليه ضرائب باهظة، فقرر المهاتما غاندي أن يدعو الشعب الى الامتناع عن اداء تلك الضريبة، باعتبار ذلك الامتناع جزءا من معركة العصيان المدني. وتزعم المهاتما غاندي ألوفا من مواطنيه زحفوا الى

شاطىء البحر ، حيث استخلص بيده حفنة من الملح ــ وهو عمل لايعدو في قيمته أن يكون رمزا! ــ وعلى هذه الصورة أتمثل معسكر اللاجئين الكبير في الأردن ، أو سائر المعسكرات الموجودة في هذه البلاد ، وقد غادرها سكانها جميعا وتدفقوا في مسيرة كبرى قوامها جيش عرم من الجياع المهلهلي الثياب ، زاحفين وهم عزل من السلاح نحو الحدود التي فرضت عليهم عسفا .. رجالا ونساء واطفالا ، وجهتهم ديارهم المسلوبة .. وقد لا يتمكنون من تجاوز الحدود ، أو قد يصلون الى الشقة الحرام . ولكنهم سيهزون ضمير العالم!

ــ ولكن مدافع اليهود الرشاشة ستحصدهم من أوكارها فوق قمم التلال ، ومن الطائرات!!

ــ وهل يعقل أن يحصدوا ألوفا من العزل من السلاح في مثل ذلك الموكب الرهيب؟

فصرخ أنطون : «انهم لايتورعون عن ذلك . ولن يعدو الأمر في نظرهم أن يكون مذبحة أخرى من سلسلة مذابحهم!»

وهكذا انتهى ذلك الجدل أيضا الى الاخفاق ، ولم يجد أنطون من يسانده في موقفه .

— ٧ —

وفي أواخر سبتمبر «ايلول»، قبل الموعد المتفق عليه ببضعة أيام، قال انطون لثريا أنه قد أزمع الذهاب لقضاء بضعة أيام مع وليد وعائلته في الخليل، وقد تستغرق هذه الزيارة أسبوعا على الأكثر. ووقع منها هذا النبأ موقعا غير حسن، لأن عطلة الصيف قد آذنت بالانتهاء، وعندئذ ستعود الى بيروت، فلا يتسنى لها أن تراه الا في عطلة عيد الميلاد.. وقالت له: «لا ينبغي لك أن تطيل الغياب، فلا بد لنا من اعداد العدة لحفلتنا كما تعلم».

وكانا جالسين في ركن منعزل من حديقة آل سابا، فطوق كتفيها بذراعه، فحولت وجهها اليه.. فطبع على شفتيها قبلة ناعمة، ثم قال: «ما أسعدني! كم وددت لو لم يكن لزاما علي أن

أذهب الى الخليل! فلا أمنية لي سوى قضاء كل دقيقة من المدة الباقية معك!».

لماذا اذن تذهب الى الخليل؟ ما الذي يلزمك بذلك؟

ــ لقد وعدت وليدا!

ــ وهل أمره يعنيك الى هذه الدرجة؟

ــ انه صديقي الكبير. بل صديقي الأوحد. كنا تلميذين في المدرسة معا، وظللنا على اتصال مستمر طيلة غربتي في انجلترا.

ــ كل هذا مفهوم. ولكنه لم يعد الآن صديقك الأوحد. فأنا الآن في حياتك.

فأجابها باصرار: «أنت حبيبتي، أما هو فصديقي. والأمران مختلفان. فحبي لك لايغير من شعوري نحو وليد. وأنا في الواقع لا أريد أن أقتطع من وقتي معك بالذهاب الى الخليل، ولكنني كنت قد وعدته بذلك منذ زمن طويل جدا، ولا بد لي من الوفاء بوعدي!».

.. فتنهدت، ثم قالت: «كما تشاء. ولكن لا تطل الغياب».

ــ سأعود في الوقت المناسب لاقامة الحفل.

ــ ان شاء الله .

ــ أجل ، ان شاء الله .

○

وسافر أنطون وطالب معا بالسيارة العامة من بيت لحم الى الخليل . ووقفت الانسة «ريس» تودعهما ملوحة بيدها أمام مبنى المعهد الرئيسي . أما أمين فقال لأنطون وقد وضع يده على ذراعه : «عد الينا سريعا ، فاني سأفتقد أحاديثك في الليل .. مع السلامة » .

وفي الطريق ، لم يسأل « طالب » أنطونا الا سؤالا واحدا بخصوص الحصول على الترخيص . وفيما عدا ذلك لم يوجه اليه كلمة واحدة ! .. وكانت السيارة العامة تمر ــ في طريقها ــ بين بساتين التفاح ، والحقول المزروعة ، ومعسكرات اللاجئين ، وطالب يطل على ذلك كله من النافذة بوجه صارم مقطب ، وفي ذهنه أنه لولا عملية بئر سبع هذه ، لكان بوسعه أن يقضي اسبوع العطلة في معسكر اللاجئين مع زوجته . أما الآن فلن يسعه أن يقضي معها ، من هذا الأسبوع كله ، يوما واحدا ولا ليلة واحدة . ولم

يكن قد أنبأها بأمر الاجازة التي حصل عليها، أو ما اعتزم أن يصنعه فيها، ولكنه قد يخبرها بعد عودته ويروي لها أنباء مسقط رأسهما (بئر سبع).

وكان وليد في استقبال السيارة العامة في الخليل، متهلل الوجه منشرح الصدر. فقد تم اعداد العدة لاستخراج الترخيصات، وما عليهم الا أن يذهبوا الى بلدية المدينة لتسلمها.

وقال وليد لأنطون ان عمه منير في المدينة، وسيصحبهما في طريق العودة. أما طالب فيتوقع وصول أقاربه من الظهيرية في السيارة العامة التي تصل بعد ظهر ذلك اليوم. وقال طالب حمادي لوليد: ومتى سننطلق الى هناك؟ ، فأجاب وليد: «الليلة. فليس هناك ما يدعو للتسكع هنا».

وعندئذ سأله أنطون وهو يحاول أن يجعل لهجته طبيعية: «كم من الوقت يلزمنا في اعتقادك للوصول الى هناك؟»، فقال وليد: «ان المسافة تبلغ نحو اثني عشر كيلو مترا بالطريق الممهدة. ولكن لابد لنا من تجنب تلك الطريق. وسيكون السير في هذه الحالة شاقا جدا وتحت جنح الظلام».

وقال طالب: «ربما استطعنا أن نقطع المسافة في ثلاث

ساعات . فقد رتبت كل شيء في ذهني ، على أن نتجنب المرور بالقرى والكفور » .

وكانوا يتكلمون وهم في طريقهم الى البلدية ، والتجهم باد على وجه طالب كالعادة . أما وليد فكان على سجيته ، الا انه كان جادا . وأما أنطون فكان يشعر بهبوط في قواه وروحه المعنوية ، حتى لقد عجز عن اصطناع تلك الابتسامة التي كان يجيدها . وقبل أن يصلوا الى البلدية ، لحق بهم العم منير ، فرحب بأنطون ترحيبا حارا ، وقال لطالب : « بيتي هو بيتك . يا مرحبا » .

وصحبهم الى البلدية حيث كان له صديق من موظفيها ، فاستطاع الحصول على الترخيصات على الفور ، من غير أن يتجشموا الانتظار مع عشرات المنتظرين . ثم قال وليد لأنطون : « سوف لاندهب في هذه المرة الى الحانوت ، لأنني لا أريد أن يعلم أقاربي بذهابنا الى الظهيرية . ولكننا سنزورهم عند عودتنا ، وان كانت هذه الزيارة ستتم ونحن متفرقين ، لأنني قد أبقى في بئر سبع لمدة شهر » .

ثم توجهوا الى مطعم شعبي في شارع خلفي بالمدينة ، وهناك شعر أنطون بحالته النفسية تزداد سوءا ، فلم يستطع أن

يمس الطعام. ونظر اليه طالب بخبث وقال: كأني بك خائف؟»، وقال وليد: «كثيرا ما تتوتر الاعصاب عند اقتراب ساعة الصفر»، فقال أنطون: «ليس توتر أعصابي بسبب خوفي من عملية التسلل ذاتها ـــ فما أكثر من يقومون بها ـــ ولكني في الحقيقة لم أعد مؤمنا بجدوى هذه العملية».

ونظر اليه وليد نظرة صارمة، أما طالب فضحك ضحكة استهزاء. ثم قال وليد بصوت باتر: «يبدو أنك لم تعد تصلح للايمان الا بفتاة تدعى ثريا سابا! انك لم تعد تؤمن بعملية بئر سبع، ولا بالتسلل. لأن هذه الأفكار كلها، لم تعد مناسبة لك!». ثم دفع وليد صفحته من غير أن يتم طعامه، وفي حركة تدل على منتهى الاشمئزاز والتقزز، ورفع نظره الى أنطون وقال: «هناك سيارة عامة تقوم الى بيت لحم بعد الظهر. ومن الخير ان تستقلها. بل لعل أفضل من هذا وذاك أن تعود الى انجلترا حيث تنتمي، وأن تقلع منذ الآن عن ادعاء انتمائك الى العروبة التي كان أبوك من أبطالها. فأنت انجليزي كأمك! انجليزي حتى النخاع!».

ونهض أنطون عن المائدة، وقد شحب وجهه شحوبا

شديدا حتى حاكى الثلج في بياضه، وقال: «سأنصرف، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائي»... فقال وليد بمرارة: «اطلاقا».

وأطلق طالب ضحكة ساخرة، وأولاهما أنطون ظهره، ولم يلبث أن أختفى.

— ٨ —

وبعد ظهر ذلك اليوم، وصلت الى حانوت أقارب وليد بالخليل، برقية باسم أنطون بطرس منصور محولة من بيت لحم. وكانت هذه البرقية بعينها قد وصلت الى المعهد في الصباح بعد رحيل انطون وطالب. فلم يسع مستر شابلي — بعد استشارة الانسة ريس، والرجوع الى أمين — الا أن يحول البرقية الى عنوان أقارب وليد، لأن المفروض أن أنطون سينزل ضيفا عليهم هناك طيلة ذلك الاسبوع.

وكانت البرقية من أمه، ونصها: «أصل (عمان) في منتصف السادسة صباح غد بتوقيت الأردن».

وكان المفروض طبعا أن تصل البرقية الى أنطون في اليوم نفسه، كي يغادران الخليل الى عمان في الحال لاستقبال أمه.

ولما كان الشبان الثلاثة قد تحاشوا المرور بالحانوت ـ في الخليل ـ فقد تحير أقارب وليد في معنى تحويل هذه البرقية اليهم. وأخيرا قرروا الاحتفاظ بها الى أن يسأل عنها صاحبها!.

وفي هذه الاثناء، كان الصراع ناشبا في سريرة أنطون: بين ايثار السلامة، وبين المضي في الكفاح الوطني كما اتفق عليه مع صديقه وليد!.. ولم يدم ذلك الصراع طويلا، لأن حمية الشباب، ونخوة القومية، أشعرتاه بالخزي لموقفه المتخاذل، ولم يأت الأصيل حتى كان قد غير اتجاهه وأخذ طريقه الى الظهيرية ـ وليس الى بيت لحم ـ ليحاول اللحاق بصاحبيه.

وكان منير حسين وزوجته يتأهبان للنوم، عندما طرق بابهما طارق، فبادر منير الى بندقيته القائمة في ركن من الحجرة، وخرج سعيد من الحجرة الأخرى وفي يده بندقيته. فقد تعود أهل الظهيرية أن يطرق بابهم أفراد الحرس الوطني للانذار بغارة من غارات اليهود على الحدود. وقد يكون الطارقون هم المغيرون أنفسهم. أو هم أفراد الحرس الوطني وقد ضبطوا وليدا وطالبا يحاولان التسلل فجاؤوا لالقاء القبض على سكان الدار أيضا بتهمة التواطؤ!.. وصاح منير بصوت أجش: «من هناك».

ــ أنا أنطون منصور. صديق وليد.

وعلى الفور فتح الباب. ولم يأبه أنطون بالرد على عبارات الترحيب والمجاملة، بل صاح في لهفة يسأل عن وليد وطالب.. فقيل له: «لقد رحلا منذ ساعة، ولن تستطيع اللحاق بهما الآن في الظلام استرح».

وجلس أنطون، ثم تناول قدح اللبن الذي قدموه اليه، وهو يقول: «اني في غاية التعب. فقد جئت سائرا على قدمي من الخليل. والمسافة ليست طويلة، ولكني حرصت على الابتعاد عن الطريق حتى لا أقع في يد الدوريات الليلية. ولا بد لي الآن من اللحاق بهما. فقد تشاجرت مع وليد وافترقنا متخاصمين. ولكني راجعت نفسي. ولا بد لى الان من الانصراف حتى لاتزداد المسافة بيني وبينهما. ألا تظن أني سأدركهما؟».

ــ هذا يتوقف على سرعتهما في المرحلة الأولى. وهذه المرحلة تقع في الشقة الحرام، وهي أصعب المراحل. ولكن طالبا يعرفها بالشبر. ووليد قضى السنوات الأخيرة في تفقدها بين الحين والحين، وهو يتظاهر برعي الأغنام أو العمل في الحقول، كلما سنحت له فرصة للحضور الى هنا. أما أنت فمن الجنون أن

تجازف بالمضي وحدك لأنك لاتعرف تفاصيل الأرض في هذه المنطقة.

ـــ ولكن لا مناص لي من الذهاب!

ـــ وما الذي جعلك تغير رأيك؟

ـــ وجدت أن احساسي العميق بقوميتي أرجح عندي وأبقى من نداء العقل، وصوت المصلحة، وروابط العواطف الأخرى. وأحزاني أن يصمني طالب بأنني انجليزي. ثم لم يلبث وليد أن تبعه في ذلك ورماني بأني لا أصلح الا لصحبة النساء!.

ـــ ولكنك على الأقل يجب أن تأكل شيئا قبل أن تنطلق. ولم يسع أنطون الا ان يشرب الشاي ويأكل كعكة مما قدم اليه على خوان من النحاس ــ على الطريقة العربية ــ مع شيء من جبن الماعز والزيتون الأسود. ثم كرر عليه منير ووالده العجوز النصح بألا يجازف بالتسلل في الليل وحده وهو يجهل كل شيء عن المنطقة. ولكن أنطونا قال: «لا بد من هذا. وفي وسعكم ان تساعدوني. فاني أعلم أن طالبا رسم خريطة لهذه المنطقة غاية في الدقة. فهل لديكم هذه الخريطة؟»

وجاءه منير بالخريطة. وكان أنطون قد تدرب على قراءة

الخرائط العسكرية في معسكر التدريب في انجلترا، وأظهر في ذلك تفوقا ملحوظا، فجعل يطبع في ذاكرته جميع التفاصيل. وكي يطمئن منيرا طوى الخريطة ثم شرع يرسمها من ذاكرته. فلم يترك منها شاردة أو واردة.

وعلى باب الدار، ودعه منير وسائر أفراد البيت قائلين:

ـــ كان الله معك. مع السلامة.

○

وكانت الليلة حالكة السواد، لا قمر فيها. وأخذ أنطون يتحرك بحذر، والخريطة مرتسمة في مخيلته، وهو يحرص على ألا يحدث صوتا بمشيه فوق الحصى الكبير غير المتماسك. وفي بعض المواضع كان يضطر للزحف. وقدر أن وليدا وطالبا لابد قد اجتازا خط التقسيم ودخلا في البرية منذ أكثر من ساعة. ولعلهما قد اجتازا البرية أيضا ووصلا الى سفح التل. وحين يقترب منهما ـــ زاحفا في الظلام ـــ قد ينتابهما الرعب، بل قد يثبان اليه، ولكن حسبه أن يهمس باسم وليد قائلا له: « ها أنذا قد أتيت يا وليد! ».

وهدأت نفسه عند هذه الخاطرة. وكانت الطريق تبدو متعرجة بين التلال، منحدرة الى بئر سبع. وجلس يستريح قليلا ويلتقط انفاسه اللاهثة، ويصغي لسكون الليل يمزقه نباح كلب في مكان بعيد، عند احد معسكرات البدو. وجاوبته بالنباح كلاب أخرى في قرية مجاورة. ثم لم يلبث الصوت أن خبا. وأعقبته بعد قليل نغمات من ناي يعزفه شخص ما داخل كوخ مقفل.

وانتقلت خواطره الى الحراس اليهود الكامنين في أوكارهم فوق التلال من الجانب الآخر. أتراهم يلعبون الورق الآن بين نوبات الحراسة وأوقات الدورية؟ وهل احدى دورياتهم الآن تجتاز الوادي؟ ان مثل هذه الدوريات هي الخطر الحقيقي، أما الحراس فوق رؤوس التلال فلا خطر منهم في هذا الليل البهيم. وأنه ليعجب كيف استطاع وليد وطالب أن يفلتا.

ونهض وشرع يهبط الى بطن الوادي بحذر. وكانت الحصباء تنزلق تحت قدميه، ولكن صوتها لا يسري في الليل طويلا. وهو مستمر في زحفه، مستترا بالصخور البارزة، متنقلا بينها على يديه ورجليه. ثم يتوقف بين الحين والحين، ويصيخ السمع.

واصطدم في زحفه بشجرة من الشوك، فأدمت يده وكاد يصرخ من الألم، وانبجست الدموع من عينيه، ثم زايله الألم عندما جمد الدم في عروقه لسماعه نباح كلب يقترب منه بخطوات واسعة. ثم لم يلبث النباح أن بعد، وتبين أنه لم يكن كلبا كما يخشى، بل ابن آوى.

وكان يتقدم ببطء والمسافة قد أمست في نظره أطول مما يتصور. وتراءت له على البعد أنوار كشافة فخفق قلبه خشية أن يسقط عليه شعاع من أنوارها من فوق احدى القمم، وأنشأ يجري كي يختصر المسافة ويحتمي بالجانب الآخر حيث سفح التل، وحيث يقدر ان صاحبيه قد وصلا منذ حين. وتعثر وهو يجري، وسقط على وجهه، فظل بلا حراك وقتا طويلا، وهو يرهف السمع، ولما اطمأن أخذ يزحف على بطنه خائفا من الوقوف على قدميه، وجعل يشجع نفسه بجميع الخواطر الممكنة، ويحاول ان يتذكر بقية الخريطة، وموضع بيت شقيق طالب قرب السوق في بئر سبع. ونظر من فوقه الى النجوم وقد أخذت تتكاثف فيما خيل اليه.

واستجمع قواه ونهض، وأخذ يجري بخفة.. ولكنه تعثر مرة

أخرى، فعدل عن الجري الى السير البطيء، الى أن وجد الأرض مستوية تحت قدميه، خالية من الصخور التي يمكن أن يتوارى خلفها حتى قاعدة التل التي يقدر أن صاحبيه يجلسان عندها. وتمنى لو استطاع أن يقطع هذه الأرض المكشوفة منتصب القامة، حتى يرياه على تلك الحال، ولكنه لم يجسر. واستمر يزحف على بطنه. وفجأة تجدد النباح. واقترب الكلب منه اقترابا شديدا، فالتقط حصاة قذفه بها. ولكن نباح الكلب اشتد، ثم تبين عينيه في الظلام على قيد أقدام قليلة منه. ثم سمع لغط كلام لم يتبينه، فلم يكن أمامه الا الفرار السريع. ووثب كالأيل الشارد ووجهته بطن الجبل..

ومزقت سكون الليل طلقات مدفع رشاش!

ومات أنطون قبل أن تسقط جثته الدامية على أرض الشقة الحرام.

○

وبعد بضع ساعات بزغ الفجر على وليد حسين وطالب حمادي وقد دخلا بئر سبع.. وعلى طائرة ماريان وهي في طريقها

الى عمان .. وعلى ثلة من الرجال يحملون الى خط التقسيم جثة شاب فلسطيني ليسلموها الى حرس الحدود الأردنيين .

وتجمع حشد من الناس صامتين، كأن على رؤوسهم الطير .

انه شهيد آخر ــلن يكون الأخيرــ على الطريق الى (بئر سبع) ! .



الفهـرس



صدر عن دار
طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر[1] ليرة
رسالة الاسلام ـ الرسول العربي	العماد مصطفى طلاس ..	....	٢٥
فارس الأطلس ـ عقبة بن نافع	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٠
فطير صهيون	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٦
راعي القدس ـ ايلاريون كبوجي ...	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٥
فارس الجزائر ـ الأمير عبد القادر ..	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٧
المصطفى من أحاديث المصطفى ..	العماد مصطفى طلاس ..	.........(قياس كبير)	٦٠
		........(قياس صغير)	٣٠
كذلك قال الأسد	اختارها العماد	.........(قياس كبير)	٣٠
	مصطفى طلاس	........(قياس صغير)	١٥
حب وبطولة	سليمان العيسى	....	١٥
قصة المتنبي....................	أحمد الجندي	....	١٢
صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) .	أمنون كابليوك	المكتب العربي للترجمة ...	٦
روضة الورد	سعدي الشيرازي	محمد الفراتي	١٥
سعد الله الجابري	أحمد الجندي	....	١٥

(١) السعر يشمل كامل الأجزاء .

فراشات غجرية	نصال قبلان		٦
كيان (قصة)	كوليت الخوري		٩
البطل والتاريخ	صفوان قدسي		١٨
خريف الغضب (جزءان)	محمد حسنين هيكل		٣٠
كفاحي	آدولف هتلر	لويس الحاج	١٨
ماجدولين	الفونس كار	مصطفى لطفي المنفلوطي	١٠
رسالة من امرأة مجهولة والحب الجنوني	ستيفان زفايغ	أنجيل عبود	٨
سقوط السنديان	اندريه مالرو	د . سامي الجندي	٩
عشرة أيام هزت العالم	جون ريد	فواز طرابلسي	٢٢
هكذا يتكلم القائد	نابليون بونابرت	عبد الله حيدر	٨
حبات من الرمال الذهبية	سليمان العيسى وشعراء آخرون		١٠
رواد النغم العربي	أحمد الجندي		٩
حبال من رمل	ولبر كرين ايفلاند	د . سهيل زكار	٢٥
البطالة المقنعة في الوطن العربي	سمير عبده		١٤
باقة نثر	سليمان العيسى		١٨
موجز ديوان المتنبي (شرح اليازجي)	اختصره سليمان العيسى		٢٠
طريق التبغ	ارسكين كالدويل	منير البعلبكي	١٥
تولستوي	ستيفان زفايغ	ميشيل واكيم قصي الأتاسي	١٠
حب بياتريس الجديد (شعر) (بالعربية والفرنسية)	جيرار مورغ	رواد طربيه	٨
الاستراتيجيتان السوفييتية والأمريكية	هنري باريس	أحمد عبد الكريم	١٠

شعراء من بلاد الشام	أحمد الجندي		١٥
رد على التوراة	ندرة اليازجي		١٠
رد على اليهودية واليهودية المسيحية	ندرة اليازجي		٢٥
الصراع على سورية	باتريك سيل	سمير عبده ـ محمود فلاحة	٢٠
نظرات ومسائل في الإدارة	أحمد الدباس		٤٠
روائع طاغور	رابندرانات طاغور	الدكتور بديع حقي	٢٠
الفراشة وقصائد أخرى (بالعربية والانكليزية)	سليمان العيسى	برندا ووكر	١٠
العواصف	جبران خليل جبران		١٠
البدائع والطرائف	جبران خليل جبران		١٠
النبي	جبران خليل جبران	ثروت عكاشة	٨
السابق	جبران خليل جبران	انطونيوس بشير	٥
عرائس المروج	جبران خليل جبران		٥
التائه	جبران خليل جبران	عبد اللطيف شرارة	٦
المجنون	جبران خليل جبران	انطونيوس بشير	٥
الأرواح المتمردة	جبران خليل جبران		٨
دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران		١٠
الحروب والحضارات	مدرسون في المعهد الفرنسي لعلم الحرب	أحمد عبد الكريم	٢٠
بروتوكولات حكماء صهيون (جزءان)	عجاج نويهض		٣٠
حرب الثلاث سنوات ٦٧ــ٧٠ (مذكرات)	الفريق أول محمد فوزي		٢٥
قصة الرعب والجرأة	الكسندر بيك		١٥
رفائيل	لامرتين	محمد حسن الزيات	١٦
فيكتور هيجو		فريد جحا	١٥

عملية كمال عدوان	العماد مصطفى طلاس		٨
الثورة الجزائرية	العماد مصطفى طلاس		٨٠
مع سليمان العيسى	مجموعة من الكتاب		١٤
من وحي المرأة (شعر)	عمر أبو ريشة		٢٥
كيف سقينا الفولاذ	نيقولاي أوستروفسكي	غائب طعمة فرمان	٢٥
رباعيات عمر الخيام	عمر الخيام	أحمد الصافي النجفي تقديم أحمد الجندي	١٥
المسيح يُصلب من جديد	نيكولاس كازانتزاكس	شوقي جلال (جزءان)	٤٠
وجيز علم الجنس الهندي	فاتسيايانا	كاستون فاتول	٢٠
لحن كرويتزر	ليون تولستوي	د . سامي الدروبي	١٣
أنشودة الحب الظافر (قصص)	تورجنيف	عدنان سيعي وخليل شطا	١٢
الأيام المضيئة (قصص)	كوليت الخوري		١٥
أغاني الأغاني (٣ مجلدات)	أبو الفرج الأصفهاني	اختصره يوسف عون	١٠٠
شوارد قلم في الأدب والنقد	محمد روحي فيصل		١٥
العمران في مقدمة ابن خلدون	د . سعيد محمد رعد		٤٠
حديث الهيل (شعر)	عمر الفرا		١٢
مذكرات ديغول (٤ أجزاء)			١٠٠
١ ـ النفير	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٢ ـ الوحدة	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٣ ـ الخلاص	الجنرال ديغول	خليل هنداوي ابراهيم مرجانة	
٤ ـ الأمل	الجنرال ديغول	د . سموحي فوق العادة	
مذبحة صبرا وشاتيلا	العماد مصطفى طلاس		٢٢
تقرير لجنة كاهان	لجنة التحقيق الاسرائيلية		١٨
الآداب المعنوية للصلاة	الإمام آية الله الخميني	أحمد الفهري	٦٠
رسائل أبي حيان التوحيدي	د . ابراهيم كيلاني		٢٨

تحت الطبع

ـ معجم الأسماء العربية..........	العماد مصطفى طلاس	
	الاستاذ نديم عدي	
ـ شعراء فرنسيون معاصرون......	سعد صائب	
ـ فن الشعر في قصائد	مجموعة من الأساتذة	سعد صائب
الشعراء وكلماتهم		
ـ الدليل العملي للوقاية	المركز الطبي............	دار طلاس
من أمراض القلب	لجامعة بوسطن	
ـ العلاقات الدبلوماسية الأميركية .	توماس آ . برايسون	دار طلاس
مع الشرق الأوسط		
ـ الفن الاسلامي................	د . عفيف بهنسي	
ـ الجامع الأموي باللغات :	د . عفيف بهنسي	
(العربية والافرنسية والانكليزية)		
ـ ايزابيلا	اندريه جيد.............	د . صبري فهمي
ـ العلاقات الخطرة بين الجنسين..	كودير لوي دي لاكلو ..	اديب مروة
ـ سيرة بالتازار كوسا	اليكساندر باراديسيس..	بسام اسخيطة
(البابا يوحنا الثالث والعشرون)		
ـ آه يا أنا	سهام ترجمان	
ـ تدخل الدول العظمى.........	بيتر مانفولد	اديب يوسف شيش
في الشرق الأوسط		
ـ هرمن ودروتيه	غوته.	د . محمد عوض محمد
ـ مذكرات ادغار فور	ادغار فور	د . حافظ الجمالي

العنوان	المؤلف	المترجم / الناشر
ـ التحكم بورن الجسم.......... عن طريق اليوغا	ريتشارد . ل . هيتل مان	دار طلاس
ـ أصوات في الليل.......	صلاح دهني	
ـ عتب المائدة	مجموعة من الباحثين المختصين .	دار طلاس
ـ امرؤ القيس .... (عاشق وبطل درامي)	قمر كيلاني	
ـ الف وخمس مية......... ...... من الأمثال الشعبية	سيمون حمصي	
ـ تلخيص المتشابه في الرسم ..... وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم	أحمد علي ثابت .... (أبو بكر الخطيب البغدادي)	تحقيق سكينة الشهابي
ـ الدليل العملي لمنتجي......... الغذاء الملكي	آلان كاياس............	دار طلاس
ـ العسل غذاء وعافية	جان لوك داريغول.......	دار طلاس
ـ مصلح البيانو الضرير..........	مارسيل بريغو...........	حسن صادق
ـ الوجبات الغذائية الهدية السريعة .	ميشيل ماندبا	مهند الغبرة
ـ التربية الحديثة للأغنام	د . بوهير دوليكليز	دار طلاس
ـ ديغول ما له وما عليه	بيرنارد ليدويدج.........	اللواء الركن سميح السيد
ـ الأصابع الصغيرة ... . تنمو في الظلام	نزار مؤيد العظم	
ـ مناهج التعليم البوليتكنيكي	حسين عمر حمادة	
ـ اصداء النضال العربي......... في شعرنا المعاصر	أحمد سعيد هواش	
ـ دراسات حول النظرية الديمقراطية	رينيه دو لاساريير........	د . حافظ الجمالي
ـ طريق الحرية	هوارد فاست	سليم ابراهيم عبود
ـ الأدب والأنواع الأدبية	مجموعة من الاساتذة	طاهر حجار









هذا الكتاب

« إيثيل مانين » مؤلفة هذه القصة الشائقة ، روائية انكليزية معاصرة من أصل ايرلندي ترجمت كتبها الى اللغات الفرنسية ، الالمانية ، الهولندية ، الاسبانية ، الايطالية والاسكاندينافية .

قصة « الطريق الى بئر سبع » من أشهر ماكتبت ، وقد صورت فيها ، مأساة العدوان الصهيوني الغادر على عرب فلسطين خلال حرب عام ١٩٤٨ من خلال مشاهداتها ومعايشتها الاحداث بحكم عملها الصحفي . تروي فيها قصة حقيقية بعواطفها وانفعالاتها ومشاعرها الحسية بين فتيات وفتيان فلسطينيين وصهاينة يظهر من خلالها الغدر اللاانساني وحقارة النفس البشرية في تعاملها مع الآخرين الابرياء ، عندما يبيع الانسان نفسه ويضعها في خدمة المخططات الشريرة .

قصة انسانية عاطفية مؤثرة أهدتها المؤلفة الى عرب فلسطين في كل مكان الذين طلبوا اليها أن تكتب قصتهم ... فكانت هذه الرائعة .